

د. محمود ماهر

مكتبة  
بحر

الظلمات



عصير  
الكتب

انضم ل مكتبة .. اصحح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط



telegram @soramnqraa

بحر  
الظلمات



إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email: P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان: بحر الظلمات
- الطبعة الأولى: يناير 2024 م
- تدقيق لغوي: مريم عبد الجليل
- رقم الإيداع: 2023/25362 م
- تنسيق داخلي: معزز حسنين علي
- الترقيم الدولي: 5-334-992-977-978

مكتبة  
t.me/soramnqraa

د. محمود ماهر

مكتبة

بحر

الظلمات



عصير  
الكتب

## الإهداء

إلى أبي رحمه الله  
وإلى هؤلاء الذين يحملون في قلوبهم جذوة الأمل  
في عودة هذه الأمة لطريقها الصحيح.



# تنويه

وقعت أحداث هذه الرواية في أواخر القرن الخامس عشر  
وبداية القرن السادس عشر الميلادي،  
وجميع ما وُرد فيها من أحداث ومعلومات هي حقائق  
وليست من نَسْجِ الخيال!

راوي الأندلس





## شكر وتقدير

إلى كلِّ مَنْ أسهم معي حتى خرج هذا العمل  
كما يجب أن يكون

إلى:

الأستاذة: ابتهاج محمد الدسوقي.

والأستاذة: الشيماء صلاح الدين.



# الفصل الأول

مكتبة

t.me/soramnqraa

(1)

## أرض الجبال العالية

على شاطئ مدينة «العرائش» المغربية بطبيعته الخلابة، حيث تملأ أمواج البحر المنعشة لتنتشر رذاذه، وتعبق المكان برائحته، والشمس تتزين في مرآة الرمال الذهبية، لينعكس ضوءها كاشفاً عن مشهدٍ خلّابٍ، تحركت العجوز «هيذا» ترتدي ثياباً مغربية يغلب عليها اللون الأزرق، متوكئةً على عصا تحاول بها إقامة اعوجاج ظهرها الضعيف، وبخطوات متقاربة واهنة تابعت تحركها صوب الشاطئ، وقدمها تغوصان في الرمال الناعمة فتثقل حركتها البطيئة أكثر وأكثر، ولكنها كلما اقتربت من الشاطئ زادت همتها للوصول إليه، حتى إذا استشعرت رذاذ أمواج البحر الهائجة واشتمتها وقفت تنظر صوب الغرب وهي تستنشق الهواء وقد انتعشت نفسها ورقصت روحها قبل أن ترفع عينيها إلى السماء الزرقاء الصافية من الغيوم؛ تنظر إليها وقد وضعت يديها على جبهتها تحميها من أشعة الشمس، ثم ارتدت ببصرها صوب الأرض تبحث عن شيء بعينه... نظرت هنا وهناك ثم تحركت ببطء

شديد حتى أمسكت بأحد الأحجار، واجتهدت أن تحركه حتى وضعته على آخر اليابسة عند نهاية الأمواج.

أخذت العجوز نَفْسًا عميقًا، ثم جلست على هذا الحجر، ووضعت العصا أسفل ذقنها، وراحت تتأمل أمواج البحر الهائجة أمواجًا بعضها فوق بعض. مرَّ بعض الوقت وهي لا ترفع عينيها عن الغرب، وتاهت ببصرها وذاكرتها وانسالت دموعها لحظات قليلة وهي لا تهتم حتى بتجفيفها، وإذ بأحد الصبية يتحرك صوبها حتى جلس أسفل منها على الأرض.

جففت العجوز دموعها قبل أن تنظر إلى الفتى الذي قال لها ناظرًا إلى الشاطئ: «سنوات مرّت يا جدتي، ولا أعرف السرّ الذي يحمله هذا البحر وأمواجه، بل لا أعرف هذا السحر الذي يجعلك تستيقظين كل يوم ليكون البحر أول ما ترينه كل يوم».

تنهّدت العجوز قائلة: «إنّه الشوق إلى الوطن يا بني والحنين إليه.. إنه البحث عن الروح الهائمة التي لا يمكن للفضاء رغم اتساعه أن يحتويها، ولكن يحتويها مكان تحبه وتتوق إليه».

تحيّر «إدريس» أكثر وقال: «أيّ وطنٍ يا جدتي هذا الذي يحتوي الروح دون غيره؟!».

- الوطن الذي ولدنا فيه، فهو جزء منّا ولا تزال أرواحنا متعلقة به ما حيننا، حتى لو صرنا في الموطن الجديد ملوكًا، فسَنَحِنُ إلى موطن الولادة والصبأ.

- وبلاد المغرب، ألم تَكُن وطننا الذي ولدنا فيه؟

- بلاد المغرب يا ولدي بلاد كريمة بين ذراعيها تحتضن كلّ المعذبين والمضطهدين، فهي بلاد لكل البشر وهي بوابة المسلمين الغربية، وحصنها القوي المنيع الذي احتوى بأهله الطيبين الفارين من الأندلس، وكذا الفارين من خلف هذا البحر المظلم.

- أتقصدين أنك لم تُولدي هنا؟

رفعت العجوز وجهها ودققت خلف الأمواج، ثم قالت: «عندما ضاقت الدنيا علينا في العالم الذي يسمونه جديدًا، خرجنا إلى هنا فوجدنا الأمان، والسلم

والحياة، والحضارة والرُّقي، ولا فرق بين البشر، ولا عنصرية بغيضة، ولا رائحة دماء تفوح هنا وهناك، ولا آكلي لحوم البشر، لم نجد اضطهادًا للوننا الأحمر، ولم نجد أسيادًا يجلدون ظهورنا بالسياط...».

صمتت قليلًا، وانسالت دموعها بغزارة عجيبة.

- ما الذي يبكيك يا جدتي؟

- إنما يبكيني أرواح عزيزة أزهقت، وطفولة بريئة قُتلت، وحضارة كانت فأبيدت، وبلاد كانت آمنة مطمئنة فأصبحت سجونًا وعذابًا أليماً.

- ولم كل هذا؟ إذ كيف تتبدل الأحوال وتتغير الصفات فينقلب المطمئن خائفًا والسعيد حزينًا والقادر عاجزًا والحاكم محكومًا؟!

تنهَّدت «هيدا» في أسي: «إنها قصة طويلة يا بُني».

- إن كانت مرتبطة بأجدادي فيجب عليّ أن أعرفها، ألم تقولي يومًا: إن في تعلُّم الماضي عبرة؟!

تنهَّدت مجددًا ورائت يبصرها صوب السماء الزرقاء، ونظرت إلى تلك الأمواج العالية، وعادت بذاكرتها لعقود ماضية، وقالت: «عندما كانت ريح المساء تداعب نواثب الأشجار العالية، وضوء القمر يتخلل أوراق تلك الأشجار ليسقط على أكواخ الجريد والقش والطين، كانت مجموعة كبيرة من أهل قرية «ماجوانا» يجتمعون شيبًا وشبانًا، وهم يرتدون جلود الحيوانات، ويضعون ريش الطيور على رؤوسهم، وقد التفوا جميعًا ليستمعوا إلى العجوز ذي الشعر الأبيض والجسد النحيل «بوردوم» الذي لم يرتد مثلهم، بل كان يُزيّن رأسه بقرنين من قرون الماعز، وهو يُشير بيده صوب الشرق والجميع يراقب حركاته، وهو يقول بصوت رخيم هادئ: «عبر هذا البحر المظلم، سيأتي من يُنقذنا مما نحن فيه، ستأتي آلهة طيبة تطرد تلك الأرواح الشريرة الخبيثة من هنا، وتنشر الرحمة وتنقذنا من العذاب!».

ثم أمسك بعصاه واستند إليها واقفًا، وتحرك بخطوات بطيئة وثيدة صوب البحر المظلم، وخلفه مجموعة كبيرة من الشباب يهتفون بكلام غير مفهوم، حتى إذا غاصت قدماه بحذائه المصنوع من جلد الحيوانات في الماء توقف وقال: «ترقبوها ها هنا، واجمعوا لها الكثير من الذهب والمال، حتى إذا حان

الوقت وأتت الآلهة قَدَّموا لها الذهب قربانًا ودليلَ محبةٍ! ولا تغضبوها، فإنها إن رجعت غاضبة لن تعود!». .

قال ذلك ثم تحرَّك مرتدًّا للخلف متجهًا صوب بيته المبني من أكوام القش والطين ليخلع قرون الماعز عن رأسه وهو يقول بصوت خافت: «لقد اقترب موعدهم يا «بوردوم»، ولن يطول غيابهم».

وبينما كان يحدث ذلك كانت الملكة العجوز «أناكاونا» تجلس في قصرها الذي لا يختلف كثيرًا عن باقي بيوت القرية إلا بقدر قليل، فالقصر أيضًا مصنوع من القش والطين وبعض الأحجار وحوله مجموعة من الحراس، وفي وسط القصر تجلس الملكة وهي ترتدي ثيابًا مصنوعة من جلد الحيوانات، وعلى رأسها تاج من الريش وقد ظهرت عليها علامات الشيخوخة، فقد تجعَّد وجهها وابتيضَّ شعرها وانحنى ظهرها، وقد أمسكت بيدها عصا خشبية عليها بعض النقوش الغربية والرسومات العجيبة، بينما تغطي الأرض بعضًا من جلود النمر والأسود، وعلى الجدران توجد مجموعة من رؤوس الحيوانات مثبتة بطريقة ما، وجلس بجوارها زوجها العجوز «كاونابو» مرتديًا ثيابًا مصنوعة من جلود الحيوانات وبعض الريش، وعلى رأسه قرنان من قرون البقر، وقد علَّق في أذنه وأنفه حلقات من الذهب، وقد كان أهل «ماجوانا» يتمايزون بما يرتدونه من جلود الحيوانات وقرونها، فكلما زادت مكانة الفرد زاد حجم القرن الذي يرتديه، وجلست أمامهم ابنتهما الوحيدة ذات الستة عشر عامًا وهي فتاة محمرة البشرة كمعظم أهل القرية، طويلة الشعر، نحيفة القد، واسعة العينين، ترتدي تاجًا من الريش فوق رأسها، بينما بدا على وجهها الجميل التأثر والحزن، وكأن شيئًا أهمها وسرق منها فرحتها وتركها في حيرة من أمرها، فكانت لا تتحدث وتنظر إلى الأرض لا تريد أن ترفع رأسها، ولا تريد أن تنظر إلى أمها الملكة.

نظرت «أناكاونا» إلى ابنتها وقالت بشيء من الغضب: «لا.. لن ينقرض نسلي، ولن ينقطع ذكرى، فاحزمي أمرك واختاري لنفسك زوجًا يليق بك وبمكانتك، فقد تقدم عمري وعمًا قريب ترثين حكم القرية».

رفعت «هيدا» وجهها وقالت بشيء من الحزم والقوة: «لن أختار إلا مَنْ يهواه قلبي ويرضاه عقلي، ولا أجد في هؤلاء من يستحق ذلك، وأنا يا أمي ابنتك قبل أن أكون ابنة الملكة».

ضربت الأم الأرض بالعصا، ثم نهضت وقالت بغضب: «لن تتزوجي من هذه القبيلة، فاقطعي أمك وأطيعي أمك!».

ثم خرجت من المكان ليظل الأب وابنته يتبادلان النظرات، حتى إذا خفضت «هيدا» وجهها ونظرت إلى الأرض انسالت الدموع من عينيها، فما كان من «كاونابو» إلا أن تحرَّك صوبها ومدَّ يده فنهضت الفتاة واحتضنها، وقال في حنان وشفقة: «أعلمُ يا بُنيتي تعلق قلبك بهذا الغريب عن قريتنا، ولكن لا حيلة لي في هذا الأمر، فدينهم غير ديننا وعاداتهم غير عاداتنا، وهذه أمك لا تسمع إلا نفسها، ولن ترضى بحكمي لو حكمت، فالأمر كما تعلمين إليها، وأنتم النساء سيدات القبيلة ولا كلمة لنا عليكم نحن الرجال، فإنما نحن طوع أمركن، فالكلمة لكن والحكم لكن، وأنا لم أخرج على أمك منذ أن تزوجتني، ولم أعص لها أمراً».

ثم جلس وجلست «هيدا» بجواره وبعد صمت قصير قالت: «كم كنت أتمنى أن يكون الحكم لك يا أبي، فأنت أرحم قلباً وأكثر عطفاً منها وحكمة». نظر «كاونابو» هنا وهناك وقال مبتسماً: «صه، لا تقولي ذلك فيسمعه أحد، فهذه قوانين القبيلة منذ الأزل، وأخشى أن يصلَ هذا الكلام إلى أمك فتغضب عليك، أو حتى يصل إلى باقي أهل القرية فيعلمن أنك خارجة على قوانينهن، ولا تهتمين لهنَّ وهنَّ سيدات عالمنا هذا».

- أنا لا أخشى أحداً يا أبي، ولا أريد هذا الملك الذي سيحرمني ممن أحب، فإن كان لا بُدَّ من وريث للملك فلتخترُ أمي مَنْ يرثها غيري، ولو كان من غير نسلها فبنات خالتي كُثُر... فلتخترُ واحدةً منهنَّ إن أردت ذلك، ولها عليَّ السمع والطاعة.

- لن يرث الملك غيرك يا بنيتي، حتى لو قبلت أن تتزوجي من غير القبيلة، فلن أرضى أن يؤول الحكم إلى غيرك!

- ولن أتزوج إلا من أردتُ يا أبتِ، فإن كان الحكم والكلمة في «ماجوانا» للنساء، فأنا أيضًا لي كلمتي ولي أن أختار من أحب وأهوى وأتزوجه، فلن يكون هذا الاختيار متاحًا للجميع ومحرمً على «هيدا».

- لكنك لست مثلهنَّ، فأنت ابنة زعيمة القرية.

- وهل لأجل ذلك أصبحُ أقلهنَّ نصيبًا؟ وهل المُلك يعني موتَ الحب والقلب وانتصار المصالح؟!

- مَنْ قال إنكِ أقل نساء القرية نصيبًا؟

- أنت وأمي.. وإلا فكيف لهنَّ أن يخترن أزواجهنَّ وأنا لا؟!

صمت «كاونابو» قليلاً ثم قال: «لتختاري أيًّا من رجال القبيلة، ولكِ عليّ أن أبدل رأيي أمك».

«هيدا» وهي غاضبة بعض الشيء: «ولماذا لا يكون «مالك»؟».

- لأنه على غير ديننا ولن يقبل عاداتنا.

«هيدا» بإصرار: «أجل، هو على غير ديني، ولكنه وقومه مسالمون مثلنا ويحبون الخير للجميع».

- لو كانوا كذلك يا بنيتي ما صنعوا تلك الأسلحة الغريبة عنا؟!

رفعت «هيدا» بصرها تنتظر في وجه أبيها وقالت: «يحملون الأسلحة ليدافعوا عن أنفسهم لا ليعتدوا بها على الآخرين، وهل رأيتم يوماً يعتدون على أحد؟ حتى دينهم الذي ترفضونه لا يجبرون أحدًا عليه، وقد علمت يا أبي أن منهم مَنْ يُدين بديننا ولا يضيقون أبدًا عليه، بل يعيش معهم وتحت حمايتهم وفي كنفهم».

تتهدّد «كاونابو» وهزّ رأسه قبل أن يقبلَ رأس ابنته ثم قال لها: «ربما أنتِ على حق».

ثم نهض من مكانه، فنظرت «هيدا» إليه مستعطفة وقالت: «ألا تراجعها يا أبي؟».

خفض وجهه وقال: «سأفعل يا بنتي، ولكن تذكّري أن أمك هي الملكة، وأنها لا تؤيد تدخلّي في أمر قطعته، وهي بعد تخشى على مُلكها أن يرثه أحد



سواك، فأنتِ ابنتها الوحيدة وقد أنجبتك بعد صبر طويل، وبعد خمسة من إخوتك الذكور.....».

\*\*\*

مكتبة

t.me/soramnqraa

(2)

## ماجوانا

كانت قرية «ماجوانا» قرية تحمل تقاليد «التاينو»، وهم شعوب تلك الجزيرة وللإنات حظ كبير في كل شيء، فقد كان النسب فيها للأُم، وتتحدد العضوية في كلِّ أسرة بالخط النَّسوي، وتتكون الأسرة النموذجية من الأم الكبيرة وبناتها ومعهن أزواجهن وأبنائهن، ومن أحفادها وحفيداتها غير المتزوجين، ويظل الابن والحفيد في مجموعة قرابة الأم حتى يتزوج فيصبح عضوًا في أسرة زوجته.

خرجت «أناكاونا» من قصرها وهي غاضبة، فتبعتها وزيرتها وبعض الحارسات، وتحرك الجميع صوب معبد الإله «كيتزالكواتل» واخترقت «أناكاونا» الطريق المغطى بالحشائش والأعشاب حتى وصلت أعلى الهضبة في القرية، وما إن دخلت المعبد، حتى جثت على ركبته، ورفع يديها تطلب العون من الإله أن يوفِّق ابنتها للزواج ممن ترضاه لها، ثم صمتت هُنَيْهة وهي تفكر في القرية والمُلك بعدها وقد أخذ الحزن منها مأخذه، وبعد مدة قصيرة نهضت من مكانها، وأمرت الحارسات فقدمن القرايين والماعز، وبعض الطيور، وسلاسل الذهب للآلهة وحراس المعبد، ثم طافت بالآلهة، حتى إذا مرَّ الوقت واطمأنت قليلاً قررت العودة لقصرها البسيط، وقد كانت «أناكاونا» على ثقة بأن الآلهة لن تخذلها أبدًا، وخصوصًا وأنها دائمة التردد على المعبد، فقد اعتادت على فعل ذلك منذ صباها.

أشارت «أناكاونا» إلى أحد حراس المعبد فتقدم منها، وسألته عن «بوردوم» فقال لها: «لم يأت اليوم يا مولاتي، فقد علمنا أنه كان يخطب في الناس الليلة الفائتة».

- حسنًا.. فإن جاء، فلتخبروه أنني أريده.

وما إن أتمت كلمتها حتى كان «بوردوم» قد وصل المعبد، وكانت ما تزال جالسة أمام الآلهة، فتقدم صوبها حتى صار أمامها وقال متودّدًا: «مولاتي، أريد أن أبشرك، فعلمًا قريب تأتي الملائكة عبر البحر فتنتشر الرحمة والخير، ويزول عن ملكتنا هذا الحزن والغم.. ومَن يدري فلعلّ الأميرة «هيدا» تجد في ملائكة الشرق مَن يليق بها، وإلا فإن الملائكة سيجعلون الأميرة تختار مَن تريده الملكة، فقط نقدم لهم الذهب، والأموال والهدايا».

- لا تفتأ تقول ذلك من سنين حتى مللنا الانتظار.

ثم نهضت من مكانها، وتحركت لتخرج من المعبد ويخرج «بوردوم» خلفها ويقول: «وسأظل أقول ذلك حتى يتحقق الوعد».

هزت «أناكاونا» رأسها ثم نظرت إليه، وقالت: «كم أتمنى أن تصدقني هذه المرة».

- لم أكذبك من قبل يا سيدتي.

- اهتم بالمعبد وقدّم القرابين باسمي واسم شعب «ماجوانا».

- كنت أريدك أن تظلي وقتًا أطول يا سيدتي.

- سأعود قريبًا يا «بوردوم».. فقط يلبي لي الإله ما أطلب، وتتزوج «هيدا» ممن أريد.

- سيحدث يا مولاتي ولن تخذلك كيتزالكواتل أبدًا.

تحركت «أناكاونا» مبتعدةً عن المعبد، بينما راح «بوردوم» يجمع الذهب وقرابين الملكة ليخفيها في سرداب خاص أسفل المعبد لا يعلم طريقه غيره، حتى إذا اطمان إلى جمع كلّ الأموال والقرابين، ترك المعبد وانطلق إلى بيته الذي علّق على بابهِ هيكلًا كبيرًا لرأس بقرة ذات قرنين ورسمه كبيرة للآلهة «كيتزالكواتل» ففتح الباب ودخل، ثم أغلق عليه بابهِ، وما إن أغلق الباب حتى خلع القرون التي على رأسه، وولج إلى أحد جوانب الكوخ المظلمة ليشعل

فتيلاً من نار أضاء المكان بنور خافت، فظهر على ضوء الفتيل صندوق خشبي عتيق...

مدّ يده إلى باب الصندوق ورفعه فأحدث صوتاً يدل على أنه لم يفتح منذ فترة طويلة، ثم أمسك بورقة كبيرة داخل الصندوق وراح يحدّق إليها ليقراً وهو يقول: «سيعودون، وقريباً سيأتون ليتبدل الحال ويبدأ عهدٌ جديد!».»

\*\*\*

(3)

## جمهورية جنوة

في إحدى كنائس جمهورية «جنوة» العتيقة حيث تُضاء الكنيسة بشموع خافتة الضوء، وقف كبير القساوسة يخطب في الناس حاملاً صليباً خشبياً كبيراً، ويتحدث بصعوبة بالغة، فقد كان كبيراً في العمر، واشتعل رأسه وشعر وجهه شيباً، وهو يتحدث وسط قرع أجراس الكنيسة وأمام جمهرة كبيرة من الناس، فقال: «لم يكتفِ العثمانيون بأخذ القسطنطينية مقر الكنيسة الشرقية ويحولون «آيا صوفيا» إلى مسجدٍ، حتى زحفت جيوشهم غرباً وهم يريدون روما بعد القسطنطينية، ولو أخذوها لن يبقى لمسيحي العالم مكانٌ يؤدون فيه صلاتهم...».

ثم بكى وقال: «لقد حولوا بحر الروم إلى بحيرة محمدية بعد أن فرضت سفنهم الهلال في كلِّ مكان، حتى صارت الكنائس تصمت عند اقتراب سفنهم خشية أن يفتحوا تلك البلاد.. لقد نشر العثمانيون الرعبَ في كل مكان، ولو لم تتحد أوروبا كلها كجبهة واحدة، فلن يزحزحوا العثمانيين ولن يردوهم عن مبتغاهم، بعد أن أصبحنا نخشى أن يسمع العثمانيون أصواتَ الأجراس فيهبوا لإخمادها.. إنهم يريدون روما ولئن أخذوها سيستعيدون ما فقدوا من «الأندلس» ويطوقوننا من الشرق والغرب والجنوب، فأين المفر من جحافل

العثمانيين التي تطرق أبوابنا؟ لقد قضى «شارل مارتل» على المحمديين عندما عبروا «البرتات» وكان لهم بالمرصاد، فمن للعثمانيين يكبح جماحهم؟! وقد شارف ملوك «قشتالة» و«أراجون» على طرد المسلمين من الغرب.. أفنطردهم من الغرب ليدخلوها من الشرق؟! ولو حدث سيَّئُحد المحمديون مشرقيون ومغاربة ولن تقوم لنا بعدها قائمة، وها هو البابا «إنوسنتيوس الثامن» يرسل إليكم يريد أن يخرج منكم مَنْ يتطوع للدفاع عن المسيحية، فمن أراد أن يلتحق بقشتالة وأراجون في حربهما مع مسلمي «غرناطة» فليفعل، ومن أراد أن ينضمَّ إلى الشرق لمحاربة العثمانيين فليفعل، على أن المتطوع منكم له أجر الدنيا، وصكوك الغفران التي تمنحه النعيم الدائم في الملكوت الأعلى، فهبوا يا أنصار الصليب ولتمحوا بأيديكم الكفار من كل الدنيا ولترسلوهم إلى الجحيم... إن ثأرنا مع هؤلاء قديمٌ منذ أن نجحوا في طردنا من بلاد الشام ومصر، ثم غزَّوهم الأندلس وعبورهم «البرتات» إلى بلاط الشهداء... أوقفوا فورة هؤلاء كما فعل «شارل مارتل» في «بواتية»، وكما فعل «ألفونس الثامن» في العقاب، وليكن هدفنا التالي هو غزوهم في عقر ديارهم... أجل في إفريقيا وآسيا حيث مكن قوتهم وديارهم، اشغلوهم بأنفسهم وازرعوا الفتنة في قلوبهم حتى لا تقوم لهم بعد ذلك قائمة، أنسوهم ما اتحدوا عليه من الإسلام، وذكروهم بما تفرَّقوا عليه قبل، ميزوهم إلى أجناس مختلفة تتفوقون عليهم، حاربوهم بقومياتهم القديمة كعرب وترك، وأمازيغ وهنود، وأفارقة، وغير ذلك، ولا تحاربوهم كمسلمين فتخسروا!».

ألهب كلمات القس قلوب الحاضرين وأدمعت أعينهم، فغلت الدماء في عروقهم، ورفعوا الصليب وهتفوا: «الموت للكفار».

وقرَّ الكثيرون منهم الانضمام إلى الجيوش المغادرة صوب ميادين القتال حيث الجبهة المشتعلة مع العثمانيين، وكان من ضمن هؤلاء الحضور شاب طويل القامة أزرق العين أشقر الشعر يتابع بصمت، وبجانبه شاب أصغر منه سنًا ويشبهه إلى حدٍّ كبير، وما إن انتهت الخطبة حتى خرج الجميع من الكنيسة الكبيرة، وقلوبهم ملآنة بالحقد على المسلمين وبلادهم، وإذا بالصغير يقول: «هل ستقرر التطوع في الشرق أم الغرب؟».

تحرك «كريستوفر كولومبس» واخترق أزقة «جنوة» الضيقة المتعرجة رافعاً ملابسه، خشية أن تلتصق بها بعض القاذورات الملقاة على الأرض، بينما تكاد الرائحة تزكم أنفه، ونظر إلى أخيه وقال: «لو كنت فاعلاً لانضمت إلى الغرب».

- ولم الغرب دون الشرق؟

- لا أنضم إلى الجبهة الخاسرة أبداً، والعثمانيون الآن في أوج قوتهم، ولن تستطيع قوة كائنة إيقافهم أو تحديهم فمن يحاربهم خاسر لا محالة، أما الغرب فالأندلس قد فقدت قوتها منذ قرون، منذ أن تفرقت كلمة المحمديين فيها وصاروا طوائف و«ممالك» متحاربة، وهؤلاء قد ذهب ريحهم وترنحوا تحت ضربات مملكتي «قشتالة» و«أراجون»، فمن يحاربهم سيهزمهم لا محالة، فهم إلى زوال وإن طال الأمد، فالفتنة إن دخلت قرية هدمتها، والأندلس مشتعلة بالفتن منذ قرون، وصروحها تنهاوى ولن يستطيع أحد وقف سقوطها.

- إن كان الأمر كما تقول، فلا غرو أن يغزو العثمانيون العالم وينقذوا الأندلس!

- لن يهزم العثمانيون ما لم تتفرق كلمتهم، ولن يتركوا أوروبا تعيش إلا إذا ظهرت لهم قوة أخرى تغير وجهتهم، وإلا فسينقذون الأندلس لا محالة أو يستردونها!

- ممم، تعني أنك ستتطوع في جيش «فرناندو»؟

- لم أقل إنني سأنضم إلى الغرب، ولكن قلت لو كنت فاعلاً لانضمت إلى الغرب.. لو كنت!

- عجب أمرك!

- وما العجب في ذلك؟

- كنت أظنك أول المتطوعين، وذلك لحقدك الكبير على المحمديين.

كان الأخوان خلال هذا الحديث قد وصلا إلى الدار، فتوقف «كريستوفر» عند بابه وأخرج سيفه مستهيناً به، وحدق إليه وقال: «وماذا سيفعل سيفي هذا؟ فهو يظل سيفاً واحداً رغم كل شيء، والمحمديون قد ملكوا مفاتيح

الدنيا وسيطروا على خيراتها منذ أخذوا القسطنطينية وقبلها الأندلس والشام ومصر. فلن نهزمهم بالسيف يا «بارتولوميو» ولن يغني الحقد في هزيمتهم شيئاً ولكن بالعلم الذي هزمونا به غير مرة...».

صمت قليلاً وهو ينظر أمامه وتابع: «أجل، بالعلم الذي جعلهم يصنعون أكبر مدفع في الدنيا لهدم أسوار القسطنطينية، ثم جعلنا في حاجة إليهم في كل أمر: من علوم الطب، والصناعة، والجغرافيا، والصيدلة، والفلك وغير ذلك من العلوم».

- لم أكن أعلم أنك مهتم بالعلوم لهذه الدرجة!

- أنا لست مهتماً به ولكنها الحقيقة.

ومن ثم ربت على كتف أخيه، وقال: «ما زال الطريق أمامنا طويلاً لهزيمة هؤلاء».

ثم أدار وجهه صوب باب المنزل ففتحه ليدخل أولاً وخلفه أخيه، وما إن دخل حتى نظر، فلم يجد إلا امرأةً نحيفةً كبيرةً في السن تجلس في أحد أركان المنزل وهي تمسك ببعض الثياب تخطيها، نظر إليها وقال: «أمأه، أين أبي؟». رفعت رأسها، وقالت: «لم يستطع صبراً فذهب إلى دكانه، وأوصى أن تلحقا به».

مطاً «كريستوفر» شفتيه وهز رأسه ولم ينبس بكلمة واحدة، وانطلق إلى غرفته وأغلق عليه بابها، وراح يفتش في ثيابه ويحدث ضجيجاً كبيراً، وما هي إلا لحظات حتى طرق «بارتولوميو» الباب عليه وقال: «ماذا تفعل الآن... هيأ لا نريد أن نتأخر فيغضب أبوك».

تابع «كريستوفر» إخراج ثيابه وقال: «لن أذهب ولن أعمل في تجارة الصوف هنا بعد اليوم، فقد أحيا فيّ هذا القس شيئاً كنت أظنه قد مات».

- لم أفهم ماذا تعني؟

انتصب «كريستوفر» وصمت قليلاً قبل أن يقول: «سأبحر إلى لشبونة»<sup>(1)</sup>.

- لشبونة!

- نعم لشبونة وأساطيرها الجميلة، فلربما يتحقق منها حلمي القديم الذي كثيراً ما حلمت به...

ثم وضع يديه على ذراعي أخيه وقال: «نعم يا أخي، أنا لم أُخلق لتجارة الصوف أو المكوث هنا في جنوة حيث بؤس العيش وشقائه، ولكن لأكون بحاراً ووزيراً للملوك وربما ملكاً، فلن أمكث هنا فتصغر أحلامي، ولديّ عزيمة عظيمة لأكون شيئاً تفتخر وأفتخر به...».

- ثم تقدّم صوب النافذة ونظر إلى الشارع فارتدّ سريعاً، وكأنه رأى ما يكره، وتابع يقول: «لن تقدّم لي جنوة ولا تجارة الصوف فيها ما يليق بي وما أصبو إليه».

ترقرقت الدموع في أعين أخيه الصغير، وقال: «ألا يمكنك تحقيق حلمك هنا وتبقى معي؟».

- لا.. ولكن اصبر ولتعلم أنني لن أنسك.

- وما الفرق بين جنوة ولشبونة وكتاهما متشابهتين.

- ليس التشابه في كونهما تطلان على البحار هو كل شيء، ولا حتى المسيحية هنا وهناك، ولكن «لشبونة» زاخرة بقصص وكتب ومعلومات ومغامرات لن أجدها في غيرها، فقد ترك فيها المسلمون ما لن أجده في غيرها ولو اجتهدت.

جفّف «بارتولوميو» دموعه وقال مستهجنًا: «تحقد على المسلمين وتبحث عن إرثهم؟!».

- كما قلت من قبل، هم متقدمون علينا في كل شيء، وكى نهزمهم، يجب أن نتعلم منهم، ونأخذ علومهم، ثم نحرمهم منها، عندها سننتصر عليهم ولا يمنعني حقدى عليهم من الاستفادة منهم، وإلا فهذا أشدّ الحرق.

- ما زلت تتحدث عن العلم!

نظر «كريستوفر» إلى وجه أخيه وقال: «أتريد أن أقول لك المال، أجل أريد المال والجاه، أجل! أنا رجل أريد السطوة والغنى».

- إذاً ألا أصحبك، فأنال حظاً من حظك وأكون جانبك وأنت تعلم أنني أجيد البرتغالية، فلربما تحتاج إليّ؟

- حظي لم يتضح بعد، ولكن أعددك حال نجاحي أن تكون معي في جميع أسفاري.

هزَّ «بارتولوميو» رأسه واحتضن أخيه الذي حزم أمتعته، وخرج من البيت متجهاً صوب ميناء «جنوة».

- ألا تودع أمك؟

- لا أريد للدموع أن تمنعني مما أنا مُقدم عليه، فالدموع تضعف النفوس، وأنا لا أجيد الوداع ولكن أخبرها بعد خروجي بما أنا مُقدم عليه وأحسن صحبتها.

أخرج «بارتولوميو» بعض النقود من جيبه وتقدم ليعطيها له، وهو يقول: «إن لم أصحبك في رحلتك هذه، فاستعن بهذه الأموال في أمورك وقادم أيامك».

أخذها منه ونظر إليه نظرةً سريعةً قبل أن يحتضنه بقوة، ومن بعدها تحرك وخرج من الدار، واخترق أزقةً «جنوة» حتى وصل إلى الميناء.

كانت الأمواج عالية ورذاذ الماء يتطاير في الهواء وأخذ «كريستوفر» يشم عباب الماء وهو ينظر في الأفق وكأن أحلامه قد تحققت، ثم تقدم خطوات أخرى، وسأل أحد ربان السفن عن السفينة المبحرة صوب «لشبونة» فأشار له إليها، فتقدم «كريستوفر» واتفق مع صاحب السفينة على أن يصحبه معه إلى «لشبونة» مقابل مال بعينه ثم تقدّم فركب مع الركاب بعد أن دفع تلك الأموال.

\*\*\*



## (4)

كانت الأحلام والآمال الكبيرة معلقة بعقل وفكر «كريستوفر»، فطوال عمره كان يتحىّن الفرصة لتحقيقها، فما إن ركب السفينة وتعلّق بحبالها العالية حتى انتعشت نفسه وشعر بنشوة كبيرة تغزو قلبه وروحه، وكأنه قد أصبح سيد البحار، فراح يراقب البحّارة وهم يسيرون السفينة في نظام عجيب والابتسامات تعلو وجهه، وتحركت السفينة مبتعدة عن «جنوة» شيئاً فشيئاً، حتى اختفت اليابسة تماماً و«كريستوفر» يتخيل نفسه القبطان، وكل الذين من حوله يأتّمرون بأمره، واخترقت السفينة مضيق جبل طارق لتخرج منه على بحر لا ترى العين نهايةً له... خفق قلب «كريستوفر» وهو يطالع الغرب ويراقب الشمس تسقط في بحر الظلمات لتختفي ويحل الظلام، ثم يظهر الشفق الأحمر الجميل يزين السماء...

بعد ساعات من الوقوف والحركة في جنبات السفينة جلس «كريستوفر» في أحد أركانها وأخرج من جعبته بعض الطعام وأكل منه، ثم استرخى مكانه ناظرًا إلى السماء يراقب نجومها حتى غلبه النوم، ودخل في سبات عميق، لم يخرج منه سوى ضوء الشمس المشرقة وحرارتها في الصباح، فاستيقظ من فوره وبصعوبة بالغّة، جلس مستندًا إلى ظهره على إحدى سوازي السفينة حتى إذا مرّ بجواره أحد البحّارة أمسك «كريستوفر» بثيابه وقال له: «متى سنصل إلى لشبونة؟».

جذب البحار ثيابه من يد «كريستوفر» وقال له: «لن تغيب الشمس إلا ونحن على شواطئها».

ابتهج «كريستوفر» بما سمع وارتسمت البسمة على وجهه، فقد كان ما يزال متكئًا إلى سارية السفينة، ومع مرور الوقت استعاد بعضًا من نشاطه فتناول طعام إفطاره، وهو يراقب كلّ شيء في السفينة، البحّارة وعملهم، السفينة واتساعها، الشراع وكيفية التحكم فيه والبحر وعبابه وبُعد السفينة عن اليابسة والماء وأهميته هنا، إذ إن ماء البحر لا يصلح للشراب، ثم راح يحصي الموجودين على سطح السفينة، وقال: «يجب أن يكون صاحب هذه السفينة ذا مال عريض».

ومع مرور الوقت كانت السفينة تقترب أكثر وأكثر من «لشبونة»، وكان البحر هادئاً والسماء جميلة صافية، فكان كلُّ شيء يُنبئ عن رحلة سعيدة.

كان بعض البحَّارة يشغلون أنفسهم بالغناء والمزاح، وفجأة سُمع صرخ عالٍ، فذبَّ الرعب في قلوب الجميع، ونظر «كريستوفر» فإذا بقراصنة «الفايكنج» المتوحشين بهيئتهم المرعبة وشواربهم الضخمة يهاجمون السفينة، وهم يحملون الموت بين أيديهم، وتقدمت سفن «الفايكنج» حتى اقتربت من سفينة «كريستوفر»، وما هي إلا دقائق حتى ركبوها، وهم يحملون الفؤوس يقطعون بها الرقاب، ومنهم من كان يحمل الرماح الطويلة، ومنهم من كان يحمل السيوف، وما إن سعدوا السفينة حتى بدأ الموت يحصد الأرواح، لا يفرق بين طفل أو امرأة أو رجل عجوز، والدماء تسيل على سطح السفينة، والنار تلتهم ما تبقي منها، إذ أشعل هؤلاء النيران في السفينة ولم يجرؤ أحد من أهلها على شيء إلا الفرار بأنفسهم، فقذف من يُجيد السباحة منهم في البحر بأنفسهم، وحتى هؤلاء طاردهم «الفايكنج» بسهامهم ورماحهم، وكأنهم يريدون الموت لغيرهم، وكان الموت والقتل غايتهم وسفك الدماء هدفهم، ولكن سهام «الفايكنج» لم تصب كل من لاذ بالماء فقد نجا «كريستوفر»، كما نجا بعض أهل السفينة، بينما اشتعلت النيران تآكل السفينة، لينعكس ضوء النار على سطح البحر المحيط.

\*\*\*

(5)

## الطرياني

عندما كانت الشمس تميل إلى الغروب، وبالقرب من كاتدرائية «إشبيلية» الشهيرة، وقف جمع من الفتیان يشاهدون تحرك الجيوش القشتالية الكثيفة يقودهم المَلْكان الكاثوليكيان في نظام جميل، والصلبان تُزيّن صدور الجنود ويرُفع صليب كبير خلف المَلْكين، والأعلام ترفرف في السماء، في حين

يرتل الجند أناشيد النصر، تلك الجيوش التي عَجَّتْ بالمتطوعة من كل أنحاء أوروبا في حملة صليبية ضخمة للقضاء على مملكة «غرناطة» آخر حصون المسلمين في الأندلس، تلك التي استطاعت الصمود لأكثر من قرنين ونصف، وقد كان تحرك الجيوش يُثير الكثير من الحماسة في نفوس هؤلاء الشبان الذين ارتفعت صيحاتهم وهم يشاهدون جيشًا كبيرًا لم ترَ «إشبيلية» مثله منذ زمن.

نظر أحد الفتيان إلى مَنْ بجانبه وقال: «إنهم متجهون صوب «غرناطة» لطرده المسلمين منها».

أثار الجيش الأتربة في الهواء، فانتاب بعضهم السعال، حتى إذا استطاعوا الحديث قال أحدهم: «وكيف عرفت وجهتهم؟».

- لأن أبي خارج معهم، وقد أخبرني بذلك منذ ليالٍ، إذ وعدني ووعدهم أمي بالكثير من الذهب والمال والحريز، فقد قيل إن حريز غرناطة من أجود أنواع الحريز.. وأنت، ألن يخرج أبوك معهم لينال الفخر ومكافأة الملكين «إيزابيلا» و«فرناندو»؟

- أظن أنه لن يخرج، فأبي لم يحمل السيف يومًا وهو دائمًا منشغل بأعماله.

اهتزَّ الأول متفأخرًا: «إنما يحمل السيف الأبطال والرجال».

- تريد أن تقول إن أباك خير من أبي؟

ضربه الأول على كتفه متهكمًا: «أنا لم أقل ذلك، ولكن انظر حولك، فهؤلاء الشبان قد خرج آباؤهم أيضًا إلى الحرب...».

ثم صاح في الشباب الموجودين، وقال: «هذا لم يخرج أبوه مع الجيش».

ردَّ البعض بأصوات متفرقة، وقالوا: «جبان! خائن! لا يعرف معاني البطولة.. اذهب عنا يا «لُذريق» لا نريدك معنا».

لم يتماسك «لُذريق»<sup>(1)</sup> هذا الشاب الذي لم يبلغ السابعة عشر من عمره نفسه، وقد اجتمع عليه الجميع متفأخرين بآبائهم، وهو لا يعرف كيف يرد عليهم ولا كيف يدافع عن أبيه، فشعر أنه أقل من رفاقه، فلم يتحمل كلامهم

(1) بالإسبانية Rodrigo de Triana.

وانطلق إلى المنزل وهو باكي القلب ذليل النفس، فقطع شوارع «إشبيلية» في وقت قصير، حتى إذا دخل المنزل لم يُلقِ أي تحية، بل بادر إلى مكان جلوس أبيه وقال بشيء من الحدة والحزن: «أبي، ألن تذهب إلى «غرناطة» للحرب؟».

- ألا تستريح أولاً؟ تسارعت أنفاسك وكأنك قادم من ركض طويل، ثم قل ما تريد.

أخذ «لذريق» نفساً عميقاً ثم أغمض عينيه لهنهية من الزمن، قال بعدها: «لقد سخر مني أصدقائي وعايروني بعدم خروجك مع الجيش يا أبت! فقد شاهدت اليوم جموع الجيش تتجه إلى هناك، وقد ذهب كلُّ آباء أصدقائي الذين سخرُوا من عدم حملك السيف وبقائك هنا بين النساء».

نظر الأب بحيرة إلى «لذريق» وهو لا يعرف ماذا يقول؟ وكأنه لم يكن يتوقع يوماً أن يسأله أحد هذا السؤال، بينما تابع الابن وقال: «الجميع يتفاخرون بأبائهم، فلماذا يا أبتِ قعدت عن الخروج وحرمتني التفاخر بك؟».

زادت حيرته أكثر وأكثر وهو ينظر في عيني ابنه، ثم أخذ نفساً عميقاً وأمسك بذراع ابنه وقال له: «أنصت يا بُني».

فتح الفتى عينيه ونظر إلى شفتي أبيه ووجهه مترقباً ماذا سيفصح عنه وهو حائر النفس؟ فإذا بالأب يقول بعد تردد: «اسمع يا بني، فقد كبرت يا ولدي وقد حان الوقت لتعرف الحقيقة الغائبة عنك، والتي اجتهدتُ وأمك لنخفيها عنك».

«لذريق» متوجساً: «أيُّ حقيقة تلك؟».

أغمض الأب عينيه للحظات، ثم فتحها وقال بصوت خافت: «أنصت إلى قولي».

- كلي آذان مصغية.

- عاهدني أولاً ألا يخرج هذا الكلام خارج هذه الغرفة، ولا تتحدث به حتى مع أمك.

ابتلع «لذريق» ريقه وقال: «أعاهدك أن أفعل».

- إنني يا ولدي أتمنى بل وأدعو الله أن ينهزم الملكان الكاثوليكيان بحق ما فعلاً في تلك البلاد.

فغر الفتى فاه مما سمع وتعجب، كيف لأبيه أن يقول هكذا كلام وهو الرجل الصالح الذي يذهب كلُّ أحد إلى الكنيسة ويصلي من أجل الملوك الكاثوليك؟! ورفع حاجبيه متعجباً، فبادره أبوه: «أعلم ما يدور في عقلك والحيرة التي تسيطر عليك، ولكن لا بأس فهذه يا بُني هي الحقيقة التي أكتُمها عنك ويكتُمها غيري من أهل «إشبيلية» وكل الأندلس...».

ثم أغمض عينيه للحظات وكأنه يتذكر شيئاً مرَّ بخلده، ثم فتح عينيه ونظر إلى «لُدريق» وقال: «إنني من بني المسلمين وكذلك أمك، ولكنهم أجبرونا على التنصر ودخول دينهم، بل إنهم منعونا من الخروج إلى «غرناطة» كمسلمين، فلم يكن من سبيل أمامنا سوى التنصر لنعيش معهم في سلام، فهم يرفضون الآخر يا ولدي، فإمّا أن نكون كما يريدون وإمّا يقتلوننا، لقد نسي هؤلاء أننا كنا يوماً سادة الجزيرة وما اعتدينا عليهم، ولا أجبرناهم على دين، ولا هدمنا كنائسهم ولا أحرقنا زروعهم ودورهم.. وهو بعد يا ولدي، تنصّر ظاهريٌّ لا يُغيّر ما في القلب من إيمان بالله سبحانه وتعالى.. لقد كانت الأندلس بلادنا وستظل بلادنا مهما فعلوا، ومهما بدلوا وغيروا، ولن يضيرنا كتمان ما نؤمن به...».

ثم وقف وأكمل: «لقد خشي الملوك الكاثوليك أن ننضم إلى «غرناطة» فتقوى شوكتها، فكان مصيرنا ما نحن الآن فيه، وكنت أنتظر هذا اليوم وأعدُّ له وأخشاه في الوقت ذاته.. أجل يا ولدي، فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، وما كنت سأدعك لدين غير دين الله أبداً.. لقد كنت أنتظر أن تعي القول وتفقهه وتكتم السر وتحمله.. إن الإسلام دين عظيم وهو الدين الحق يا ولدي، الدين الذي يدعو إلى العدل بين الناس.. ويرفض الظلم وينشر محاسن الأخلاق، دين لم يتنشر بالسيف ولم يجبر عليه أحد، بل اختاره قومه بإرادتهم، إنه الدين الذي لو أقامه الناس في قلوبهم وأعمالهم لتحولت تلك الدنيا المظلمة إلى جنة الخلد.. لقد دخل الإسلام هنا منذ ثمانية قرون فلم نقرأ أن «طارق بن زياد، أو موسي بن نصير» أو من أتى بعدهم من أمراء وخلفاء، وحتى ملوك الطوائف قد أجبروا الناس عليه، فقد دخل أجدادنا في دين الله بكامل إرادتهم ومحبتهم، حتى إذا كان عصر «الناصر» لم يبقَ في كلِّ الأندلس سوى قلة قليلة من المسيحيين الذين رفضوا تبديل دينهم فلم يرغمهم أحد

على تركه، ولم يهدم المسلمون في عز قوتهم كنائس النصارى، ولم يقتلوهم ولم يقيموا لهم محافل تفتيش أو حلقات تعذيب أو تقتيل أو حفلات الديوان المقدس<sup>(1)</sup>....

يقولون الله محبة يا بني، فأين هي المحبة من محاكم التفتيش التي يحرقون فيها من يخالفهم؟ وأين هي المحبة من رفض الآخر وطرده أو قتله؟!..

نهض «لُذريق» ودار في مكانه مذهولاً: «وكأني لم أرَ كلَّ تلك الحقائق إلا الآن، بل إنني لم أسأل نفسي ولم أشغل تفكيري بأي من تلك الأمور من قبل، فقد كنت أتردد على الكنيسة وأسمع الكثير والكثير، ولكن لم أكن أقارنه يوماً مع ما يحدث خارج جدران الكنيسة فكان القول مخالف للفعل».

هزَّ الأب رأسه وأطرق: «هو كذلك يا بُني، لا تجد تلك المحبة إلا في الكلام المعسول فقط».

- وماذا عليَّ أن أفعل لأكون من المسلمين؟

هشَّ الأب مبتهجاً: «تغتسل، وتنطق الشهادتين، وتصلي، وتصوم، وتحج البيت إن استطعت يا ولدي، ولكن احذر أن يلاحظ عليك أحد شيئاً من هذا، فإنهم يراقبون حتى من يستخدم الماء بكثرة، ومن يتحدث بحديث الإسلام، فإن هم علموا، سيقتلوننا جميعاً فحذارٍ يا بني، أن تودي بنا إلى الجحيم، أو أن تلقي بيدك إلى التهلكة فقد أمرنا ديننا بحفظ النفس والمال والعرض».

هزَّ «لُذريق» رأسه مبتسماً ثم انطلق خارجاً من الغرفة، وما إن خرج حتى دخلت والدته الغرفة وكانت متوجسة خوفاً فقالت لزوجها: «ماذا فعلت؟».

- اطمئني فقد وعى الفتى، ما ترددنا كثيراً في إخباره به، بل وأبدى سعادة كبيرة بالأمر، وما قد خرج وأظنه سيغتسل.

تنهدت براحة ورفعت رأسها للسماء، ثم رنت إليه بأسى: «كم كنت أتمنى أن نستطيع الخروج من «إشبيلية» ليعيش ابننا دون خوف وتوجس وقلق».

(1) Auto - da fe وتعني رسوم الإيمان هو تكفير علني للخطيئة كان يخضع له المدانون بالهرطقة أو الردة عن طريق الإعدام حرقاً.

وبينما تتحدث بذلك إذ دخل «لُدريق» فقبَّل يدها وقال: «لا تخشي شيئاً يا أمّاه، وإني لأشفق عليكما الآن ما كابدتما، فدعاني أتحمّل عنكما بعض الذي أخفيتماه عني».

ثم نظر إلى أبيه واغرورقت عيناه بالدمع وقال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

بكت أمه واحتضنته، وعاهد أباه على كتمان إسلامه مهما كلف الأمر، وبدا من ذلك الحين يتعلم أسس الدين ويتلوا القرآن في سره، ويختلف إلى صديق أبيه «المُدوّري»<sup>(1)</sup> يتلقى عنه القرآن ويتعلم منه اللغة العربية، بينما في أوقات فراغه يذهب إلى حافة نهر «الوادي الكبير» يطالع حركة الملاحة فيه، ويُمْنِي نفسه بهذا اليوم الذي يخرج فيه من «إشبيلية» ليعيش بلا خوف ويمارس عقائده ودينه، وينصر أهله وقومه، ولكن كيف ذلك والملوك الكاثوليك يبتون جواسيسهم في كل أنحاء «قشتالة» بحثاً عن غير الكاثوليك؟

\*\*\*

## (6)

استطاع «كريستوفر» بمهارته في السباحة وبعد جهد جهيد أن ينجو من قراصنة «الفايكنج»، ويصل إلى سواحل «لشبونة»، ولكنه وصل منهكاً خائراً، وقد ساعده في الوصول والنجاة لوح خشبي قد أمسك به، وظل يسبح حتى وصل إلى الشاطئ، وما إن وصل حتى استلقى على ظهره وهو يتنفس الصعداء، ولا يكاد يصدق ما حدث، وأنه قد نجا من موت أكيد.

استرخى، وترك جسده للهواء، ولم يتحرك حتى انقضى الليل، وما إن تنفّس الصباح حتى لملم قوته، ونهض من مكانه، وتحرك صوب المدينة ليدخلها، وهو ينظر هنا وهناك ليرى أشجار النخيل والبرتقال واللارنج، تُزين كلَّ شوارع وأزقة المدينة، فكانت كلُّ خطوة يخطوها على بلاط المدينة تذكره بذلك الوحل، وتلك القاذورات في شوارع جنوة، وكلما هبَّت ريح تحمل رائحة

(1) بالإسبانية Mudarra.

زهور الياسمين والريحان تذكر تلك الروائح الكريهة التي كانت تفوح من كل ركن وشارع من شوارع مدينته القديمة، وقد كانت «لشبونة» قد ورثت كل هذا من أهلها المسلمين الذين تفننوا في تزيين شوارعها وتمنيقها..

استمر في السير لا يعرف أين ستوصله قدماه، ليخرج من زقاق إلى غيره ومن شارع إلى آخر وهو يحمل ما تبقى معه من متاع، وقد ورمت قدماه من السير، وفجأة توقف هنيهةً وكأنه تذكر شيئاً بعينه، فوضع يديه على خاصرته وتحسس شيئاً بيده، ثم ابتسم، وظهرت عليه علامات الارتياح، فقد وجد نقوده كاملة ما تزال معه، وقد كان أخفاها في حزام أسفل ثيابه، فتابع السير في طرقات المدينة المبلطة بالأحجار، وهو يتعجب من جمال وروعة المدينة وزينتها وانتشار الزروع فيها، وألوان البيوت الزاهية الزرقاء والبيضاء، وكان أمام كل بيت من بيوتها شجرة جميلة، كما تحمل النوافذ بعض الزروع والورود، فزاد إعجابه إذ إنَّه لم يعهد وهو في «جنوة» أن يرى تنظيماً كهذا؛ بيوتاً جميلة متراسة تتخللها أزقة ضيقة، تجتمع كلها كشعاع الشمس حول كنيسة «لشبونة» الكبرى، التي ما إن وصل إليها، حتى رفع حاجبيه ودقق النظر فإذا بنقوش عربية مكتوبة على جدرانها، فراح يحاول قراءتها فقد كانت الكنيسة مشيدة على أنقاض مسجد «لشبونة الجامع»<sup>(1)</sup>.

جال ببصره هنا وهناك وهو يقول: «آه يا كريستوفر»، لقد وصلت أخيراً إلى «لشبونة» التي منها ستحقق أحلامك..

ثم رنا ببصره إلى قصر الملك، ووقف أمامه وقال: «ولكن من يوصلني إلى هذا القصر ومن فيه؟».

كانت الشمس قد توسطت السماء والتعب قد بلغ به مبلغه، فقال: «يجب ألا أبيت ليلة أخرى في العراء، يجب أن أجد خاناً يصلح للإقامة فيه».

فنظر فإذا بخان متواضع في أحد الأزقة فحدث نفسه: «خان كهذا لن يأخذ مني الكثير من المال!».

ثم ولج الخان واتفق مع صاحبه على مقدار معين من المال يدفعه له كل ليلة فوافق صاحب الخان، ليصعد به أحد الخدم إلى الطابق العلوي، ويدخله

(1) الذي حوَّله الملك «ألفونسو هنريكز» سنة 1150 إلى كنيسة عقب احتلاله المدينة.



إحدى الغرف التي ما إن دخل فيها، حتى وضع جسده المنهك، على الفراش ولم يمر وقت طويل حتى غطَّ في نوم عميق.

وما إن طلع الصباح حتى نهض من فراشه، وكان الجوع قد بلغ منه مبلغًا، فبحث في طيات ثيابه، فوجد بعض الخبز اليابس، فأكل منه وبعدها خرج ل يبحث عن مبتغاه، فهو لم يأتِ إلى هنا للسياحة، ولكن كي يصل إلى غايته ومبتغاه وهي البحث عن المال والوصول إلى الملك، وعرض خدماته عليه، وقد كانت «البرتغال» في هذا الوقت تجوب سفنها العالم بحثًا عن الكنوز، وعن أرض تستغل ما فيها بعد أن ضاقت عليها «إيبيرية» بمنافسة مملكة «قشتالة» الجديدة لها، ولكن كيف لكريستوفر الغريب أن يصل إلى حاكم المدينة؟ كان هذا السؤال يطرق رأسه وعليه أن يجد له إجابة شافية..

تحرك في المدينة، وراح يتفقد أحوالها وأخبارها، وكان قد علم أن جُلَّ هم الملك «جواو الثاني»<sup>(1)</sup> هو غزو الدنيا، وعلوم البحار وكان «كريستوفر» قد تعلم الكثير من كتب المسلمين، وكان بسبب ذلك خبيرًا برسم الخرائط ومعرفة البحار والطرق، فحدد غايته وقرَّر أن يشتري دكانًا يعمل فيه برسم الخرائط، وبيعهما فإن كان الأمر كما يعلم، فسيصل خبره إلى الملك، ولكن أين هذا الدكان؟ وكيف له أن يستأجره وهو غريب عن المكان؟!

كانت أزقة المدينة بجمالها لم تستطع منع «كريستوفر» ولو لحظة عن التفكير في غايته، فظل يتحرك متعرِّفًا على الطرق، وبعد وقت وضع يده على بطنه، فقد بدأ الجوع يقرصه بقوة، بحث في الأنحاء عن حانوت يبيع الطعام، حتى وجده، أخذ نفسًا عميقًا، وتحرك صوبه، وما إن دخل، حتى خف إليه صاحبه ملبيًا له ما يريد مقابل المال.

جلس إلى منضدة حقيرة وقَدَّم له صاحب الحانوت الطعام والشراب، وما إن انتهى من طعامه، حتى نظر إلى صاحب الحانوت وقال: «إنني غريب عن هذه الديار، وأريدك أن تساعدني لإيجاد عمل يناسبني، واعلم أنني أجيد الإيطالية والإسبانية، والبرتغالية، والإنجليزية، كما أنني خبير بعلوم البحار ورسم الخرائط».

(1) João II o Príncipe Perfeito ملك البرتغال والغرب.

غمغم صاحب الحانوت وقال: «إن أردت أن تعمل معي فعلى الرحب والسعة.. فأنت كما ترى لا أحد هنا يساعدني، فمعظم الناس هنا يعملون في الصيد أو يلتحقون بخدمة الملك».

تذمر «كريستوفر» وجزَّ غضبه: «لا أجيد طهي الطعام ولا طاقة لي على عمل كهذا».

- حسنًا، ولكن إن أردت أن تعمل في رسم الخرائط أو شيء من هذا القبيل فلن أستطيع مساعدتك، فجلَّ معرفتي تنحصر في أهل السوق والخانات.

- لا بأس.. ولكن إن كنت تريد مساعدتي، فهل لك أن تدلني على دكان أستأجره أو أبتاعه لعملي الخاص؟ وقد علمت أن «لشبونة» تخلو -رغم مكانها على بحر الظلمات- ممن يعمل في هذا المجال.

وضع صاحب الحانوت يده على ذقنه، وقال: «فكرة صائبة، ولكن ليس كل أهل المدينة يحبون القراءة، ومعرفة جغرافيا الدنيا».

- سيكون دكاني لبيع الخرائط ورسمها، وبيع الكتب أيضًا، ويكفييني تلك الفئة القارئة من أهل «لشبونة»، والبحارة الباحثين عن المجد فوق الأمواج.

- إن كان كما تقول فجوار دكاني هذا دكان مغلق منذ سنين، ولا أظن أن صاحبه يريده الآن، ولا أظنه يبيعه أيضًا فهو من إرث أبيه، وقد انشغل صاحبه عنه بما هو أفضل منه، إذ إنه الآن يعمل في قصر الملك، فإن أردت، فلنطلب من صاحبه أن نستأجره منه مقابل أموال معلومة، ولا أظنه يمانع أبدًا، خصوصًا وهو يحب هذا النوع من العمل، فلربما وجد فيك ضالته في التقرب أكثر وأكثر من الملك، وتجد أنت أيضًا فيه ضالتك فتفيد وتستفيد.

ابتهج «كريستوفر» فهذا يعني أن يكون دكانه بالقرب من قصر الأمير «هنري الملاح»، ما يعني سهولة أو حظًا أكبر في التوصل إلى الملك، فقال لصاحب الحانوت: «لا أدري كيف أشكرك أيها الرجل».

ابتسم له مازحًا: «إن لم تعرف كيف تشكرني فلن تشكرني، والآن هل لك أن تتركني لأتم عملي، فهناك الكثير من الزبائن وهم يريدون الطعام وأنت كما ترى لا يوجد معي من يساعدني».

- حسنًا، ولكن متى آتيك لنذهب إلى صاحب الدكان؟

- سأنتظرك قبيل غروب الشمس عندما ينتهي عملي، فأصحبك إلى هناك. أخرج «كريستوفر» بعضًا من نقوده وأعطاهما له، ثم تحرك وخرج من الحانوت وهو يسارع الخُطى صوب الخان الذي نزل فيه، وما إن دخل غرفته، حتى بادر إلى نقوده وراح يحصيها عددًا، ثم وضعها بين يديه، وراح ينتظر مرور الوقت وهو يُمني نفسه الأُماني، ويتعجب من تلك السرعة التي وجد بها ضالته، وفجأة تذكر ما يرتديه وقد تعلقت به الأوساخ، فمنذ أن فُقد متاعه في البحر وهو لا يرتدي غير تلك الثياب فقال في نفسه: «يجب أن أبتاع ما يليق».

وفورًا حملته قدماه إلى سوق الحرير، فاشترى منها ما يلزم وعاد للخان، ومضى الوقت، وقبيل غروب الشمس كان على الموعد، فما إن أغلق صاحب الحانوت حانوته حتى تحركا معًا صوب دار صاحب الدكان المغلق، وقد كان من الغنى والجاه، بحيث إنه كان يسكن في قصر يُحيطه الكثير من الخدم والحرس، فما إن وصلا، حتى خفَّ إليهم بعض الخدم فتحدث صاحب الحانوت وقال: «نريد مقابلة السيد «لويس بن بيرستريلو» لأمر مهم».

تفحصهم أحد الخدم بعينيه: «مَن أنتما؟».

- قل له جارك «إنريكي» صاحب المطعم المجاور لدكان والده القديم.

- سأفعل، ولكن عليكما الانتظار هنا.

ثم أشار لهما بيده وتحرك، ففتبعه «كريستوفر» بعينيه وهو يدخل القصر، وقال: «لم أكن أعلم أن اسمك إنريكي».

- وأنا للآن لا أعلم اسمك أيها الرجل.

ضحك الاثنان، وقال «كريستوفر»: «اسمي كريستوفر كولومبوس» وأنا من «جنوة» شمال إيطاليا».

تضحك «إنريكي»: «لا أعلم ماذا كنت سأصنع إن سألني السيد «لويس» عنك؟ فهل كنت سأخبره أنني لا أعرف اسمك؟!».

تضحاك، وبعد قليل خرج الخادم وقال: «لقد أذن لكما سيدي بلقائه، فهياً معي».

تحركا خلفه، وأجلسهما في المكان المخصص للغرباء، حتى إذا دخل عليهما «لويس» بلباسه البرتغالي قال لهما بلغة جادة: «ما الأمر؟». نهض «إنريكي» وقال على استحياء: «أتيناك يا سيدي في أمر دكانك المغلق».

جلس «لويس» على كرسي مقابل لهم، وقال: «تعلم أنني لن أتركه لك يا «إنريكي»، فلماذا تعنيت القدوم إليّ؟».

- أنا لا أريده لنفسي يا سيدي، ولكن لهذا الشاب.

نظر «لويس» لكريستوفر الذي قال: «أجل يا سيدي، فقد أعجبني الدكان وأنا لا أريد ابتياعه منك، فقد علمت أنك لن تفعل ولو بذهب الدنيا، ولكني أريد أن أستأجره فقط، وقد علمت من السيد «إنريكي» أنك لم تقبل أن يتحول دكانك إلى حانوت لبيع الطعام وعلمت أيضًا يا سيدي، أنك محب للعلم وخصوصًا الجغرافيا وعالم البحار».

بضجر ممزوج بحنق قال «لويس»: «وما علاقة هذا بدكاني؟».

- كل العلاقة يا سيدي، فأنا أجيد رسم الخرائط، ولديّ علم، وقراءة كبيرة في علوم البحار، وإن وافقت سأحول دكانك إلى متجر لبيع الخرائط ورسمها وبيع الكتب وشرائها، و«لشبونة» ميناء كبير، وعاصمة لمملكة قوية تريد أن تغزو الدنيا، فإن كان ذلك، فسيكون دكانك يا سيدي وجهة لكل مغامر يريد أن ينتفع من الخرائط المرسومة بيدي.

استرخى «لويس» على أريكته وقد أعجبه ما قيل، فصمت قليلًا، ثم قال: «لم أك أنتوي أن أترك هذا الدكان قط، ليس لحاجتي له، ولكن لأنه إرث أبي، لكن بعد أن علمت قصدك ومبتغاك، فسأعطيك إياه شريطة أن تنفذ ما قلته لي».

\*\*\*

## الفصل الثاني

هؤلاء الفرسان يرون أنفسهم دائما فوق البشر،  
فهي السلطة تخول لهم كل ذلك فيرون أنفسهم  
بشرا فوق البشر ولهم حقوق غير حقوق الناس.

### (1)

بالقرب من قرية «ماجوانا» كانت ثمة قرية أخرى تختلف عنها في العادات والتقاليد، وإن تشابهت معها في بعض الأمور فمعظم أهل جزيرة «جمرة» من المسلمين، ونساء «جمرة» يرتدين الحجاب القريب الشبه من حجاب الأندلسيات، أما رجالها فمعظمهم معمم الرأس وبعضهم ملثمون، ويوجد بالجزيرة مسجد جامع به منارة مستطيلة الشكل يبلغ ارتفاعها نحو الثلاثين متراً، وجدران المسجد مزينة بالآيات القرآنية، وبالقرب من المسجد يوجد قصر صغير به يسكن حاكم القرية أو الجزيرة وكذا يوجد السوق وأماكن لأصحاب الحرف، ويعمل معظم أهل القرية في الزراعة وصيد الأسماك مثلهم مثل باقي بلاد العالم الجديد، كما يعمل بعضهم في إشابة الذهب ورعي البقر، ويتحدث أهل «جمرة» اللغة العربية وهم مسالمون مثل باقي القرى غير أنهم

يملكون بعض الأسلحة فلا يخرج الرجل منهم إلا والسيف معه أو كنانة  
الأسهم على ظهره أو حربونة بيده...

أشرقت الشمس لتبتد ظلام الليل، وأدلت بجداولها الذهبية خيوط أمل تثنت  
على وجه «مالك» هذا الشاب العشريني داكن البشرة، مفتول العضلات، وسيم  
الوجه، الذي دأب على الخروج إلى جهة البحر وقت الشروق يراقب قرص  
الشمس وهو يخرج من قلب الماء لينير الدنيا من حوله.... جلس «مالك»  
على أحد الأجار يراقب الشمس كعادته، بينما النسيم العليل يداعب خصلات  
شعره الطويلة السوداء المنسدلة على ظهره، وبينما هو غارق في تفكيره  
وأحلامه وسكونه، إذ اقترب منه شاب آخر نحيف الجسد، محمر البشرة،  
طويل الشعر ذو لحية خفيفة، وقال له: «ما زلت تداوم على الجلوس هنا في  
هذا الوقت من اليوم، حتى صرت لا أدري ماذا لو لم تشرق الشمس؟».

التفت «مالك» إلى صاحب الصوت وقال: «لو لم تشرق لن تكون هناك  
حياة يا صديقي، فالشمس نور وأمل جديد يطل علينا يومًا بعد يوم، يذكرنا  
أن الغد قادمٌ لا محالة».

ثم نظر إلى الشرق مرة أخرى وقال: «على أي أنظر إليها وأسألها كل  
يوم عن حال الناس هناك بعدما أصبحت هي الزائر الوحيد الذي يأتينا من  
الشرق!».

جلس «بوبا» بالقرب من صاحبه على رمل الشاطئ وقال: «على أنك لم  
تعرف عن الشرق وأهله إلا عن طريق السماع، فلماذا هذا الشوق إلى مكان  
لم تسكنه يومًا، ولم تعرفه إلا عن طريق السماع وليس من رأى كمن سمع؟».

- إنه موطن أجدادي يا «بوبا» فكيف لا أتوق إليه والفرع إنما ينتمي إلى  
الأصل؟!.

- بالقرب من هنا وفي «ماجوانا» يعتقد الآخرون أن هذا البحر خلفه ظلام  
دامس، وأمواج بعضها فوق بعض، ولا أحد خلفه أو بعده، ويحلمون  
كما تحلم بملائكة تأتي من الشرق تبدل حياتهم وتغير أحوالهم.

- أنا لست مثلهم ولا أقول قولهم، فهذا الدجال «بوردم» هو الذي يخدعهم  
بقوله حتى يسلب أموالهم.... يدعي زيفًا أنه مطلع على الغيب، وأن هذا  
البحر سيحمل يومًا ملائكة تبدل حزن الناس سعدًا.

- لكن من أين لـ«بوردوم» أن يعلم كل ذلك ويتفق معك في قولك؟ ويتحدث بحديث آبائك وأجدادك؟ غير أنك تقول بشر وهو يقول ملائكة.
- أمّا الملائكة ففي السماء، وأمّا أن يتحدث بحديث كحديثي فلا نعلم هل سمع أو قرأ عن نزول مشرقيين هنا من قبل أم لا..... حتى أنا وأسرتي مرّ علينا الكثير من الوقت حتى نسيّ الناس أننا مشرقيون، ولولا أن جدي أوصى أبي أن يقصّ عليّ قصته ما علمتها، وما أدركت أنني من المشرق.

ثم نهض وقال: «وما علمت أن خلف هذا البحر بلادًا شاسعة نتجه إليها في صلاتنا ودعائنا».

ثم تقدّم حتى ضربت أمواج البحر ساقيه، وتابع نظراته إلى الشرق، لتعود به ذاكرته لذلك اليوم، عندما دخل على أبيه في مجلسه في القصر يسأله ويقول: «يا أبي يقول البعض أننا غرباء عن هذه البلاد، ويستشهدون بذلك بسواد بشرتنا وحمرة بشرتهم».

رفع «عبد الله» وجهه ونظر إلى ابنه وقال: «لقد كان جدك «أبو بكر» غريبًا، أما نحن فلا نعلم لنا ديارًا غيرها، وإن أخبرنا جدك غير ذلك».

- فأين بلاد جدي وكيف وصل إلى هنا؟

- هذه قصة طويلة يا ولدي وقد حان الوقت لتعرفها.

- وأنا في شوق لذلك..

اعتدل «عبد الله» في جلسته وصمت هُنيهة من الوقت قبل أن ترسم على محياه ابتسامة خفيفة قال بعدها: «لقد كان جدك الكبير «منسا أبي بكر» هو تاسع مانسا حكم إمبراطورية «مالي» الكبيرة فاحشة الثراء، إذ كانت عاصمتها «تمبكتو» تحوي نصف ذهب العالم، ولكن الذهب والأموال والقصور والنعيم كل ذلك لم يغير جدك أو يبدله، بل لم يكن هدف جدك الحكم بقدر ما كان هدفه نشر الإسلام في بلاد لم يكن يعرفها الإسلام أو تعرفه، فنظر إلى الشمال فوجد بلاد الأندلس، ونظر شرقًا فوجد بلاد السودان ومصر وبلاد الجريد، وكلها بلاد تدين بالإسلام، ونظر غربًا فوجد هذا البحر الذي يسمونه «بحر الظلمات» أو البحر المحيط، وقد أيقن وعلم أن خلف هذا البحر يوجد بشر وخلق لم تصلهم رسالة السماء، علم ذلك من علماء المسلمين، فتنازل عن

حكّمه بعد عام واحد من تنصيبه لاكتشاف حدود المحيط ولنشر الإسلام في البلد التي يجدها... لقد كان جدك عالمًا بالجغرافيا وعلوم الفلك وقد ساعده ذلك في الوصول إلى هنا».

- لكن لماذا تنازل عن ملكه ألم يكن يستطيع أن يقوم بذلك وهو الملك؟

استرخى «عبد الله» على كرسيه وقال: «لأنه لم يكن على يقين بعودته لـ «تمبكتو» سالمًا، ذلك فقد كان يعلم أنه سيقطع طريقًا لم يمر به أحد من قبله، فجهّز نحو مئتي سفينة بمصاحبة نحو ألفي زورق إضافي، وقبل أن ينطلق في رحلته تلك أجرى العديد من التجارب على السفن، واختبر قوة تحملها، واستعان بخبرات عربية لصناعة سفن شبيهة بتلك العربية المسيطرة على البحار، ثم حمّل السفن مؤونة غذائية مجففة تكفي لعامين على الأقل، إضافة إلى أطنان الذهب لمقايضتها مع سكان المجهول إن هو نزل عليهم...».

نظر «عبد الله» ورنا ببصره إلى شيء في ذاكرته وتابع يقول: «أبحر جدك يا ولدي مدة طويلة جدًا إلى أن وصل إلى منتصف المحيط، ثم دخل إلى مكان شبيه بالنهر وذي تيار عالٍ ومخيف... مات الكثير من البحارة وغرقت أكثر من نصف السفن، ونجا جدك والنصف الباقي وأتى إلى هنا، فاستقبله أهل تلك الجزيرة خير استقبال، فوزّع الذهب عليهم وساد فيهم بكرمه وعدله وحسن خلقه، ومع مرور الوقت تعلم لغتهم وتزوج منهم وصار يدعوهم إلى الإسلام، فدخل فيه معظم أهل الجزيرة ثم نصبوه أميرًا عليهم بعد أن تزوج من أشرفهم».

\*\*\*

## (2)

وسط الغابة وبين الأشجار الكثيفة المثقلة بثمارها، المترامية أطرافها الوارفة ظلّالها، حيث تتخلل أشعة الشمس تلك الأشجار لتصل إلى الأرض بصعوبة بالغة، وبأشعة متفرقة متقطعة، وكانت جداول المياه تتخلل تلك الأشجار، والزروع كثيفة لدرجة قد تغطي القاعد فيها.



في هذا المكان كان «مالك» يمسك بعصاه ويرعى قطعان من الغنم والبقر، وهو يجلس متكئاً على أحد جذوع الشجر في اطمئنان وسكينة، بينما تعزف العصافير بأصواتها لحنًا جميلًا، والغزلان والسناجب والأرانب ترتع وتمرح راقصة في كلِّ مكان لا يقترب منها أحد ولا يزعجها إنسان، و«مالك» يراقب جريان المياه وهذا المكان الرائع وقد مدَّ ساقيه إلى الأمام وسند رأسه إلى جذع الشجرة، حتى إذا مرَّ بعض الوقت قال وكأنه يحدث نفسه: «أراها قد تأخرت اليوم كثيرًا، فهل منعها أمها الملكة أم نسيت موعدنا؟!».

ثم هسَّ بعصاه الغنم، وقد ظهرت عليه علامات الضجر والتوتر بعد وقتٍ من السكينة، ثم نظر إلى السماء فوجد الشمس تميل إلى الغروب فضاقت نفسه كثيرًا، وفكَّر في جمع أغنامه والعودة بهم للديار، وقد شعر أن الغروب إنما يدل على نهاية اليوم وانقضاء الأمل، ولكنه كان مترددًا، لا يريد أن يقطع أمله في اللقاء، وبينما هو كذلك إذ سمع أصواتًا غريبة قادمة نحوه، فنظر إلى مصدر الصوت فتبدَّل حاله وانفكت تعابير وجهه عن ابتسامة هادئة ورضا، تبعها بتنهيدة طويلة تدل على شوق عميق، وإذا بـ «هيدا» تقترب منه فبادرها بلهفة كبيرة وقال: «لماذا تأخرت يا حبيبتي؟ لقد ظننت أن اليوم سينقضي ولمَّا أراك بعد؟».

أخذت «هيدا» نفسًا عميقًا وقالت قبل أن تجلس: «ألا تتركني أستريح قليلًا ثم تسأل؟».

أفسح «مالك» المجال لـ«هيدا» فجلست بالقرب من عين الماء، ثم نظرت إليه وقالت: «لقد حاولت محاولات عديدة لآتي وألتقيك، ولولا ذهاب أُمِّي إلى المعبد ما استطعت أن أفعل».

- ألم تتحدثي إليها بعد في أمر زواجنا؟

- بلى فعلت..

- وما كان ردها؟

نهضت «هيدا» وترددت قليلًا قبل أن تقول بحزن وألم: «لقد رفضت ولم أستطع معها حلًّا».

نهض «مالك» من مكانه واقترب منها وقال: «ولمَ الرفض؟».

- لأنك مسلم وغريب عن «ماجوانا» وتقاليدها، تقول إن تزوجتك ستحكم أنت بنفسك، وتُبدل حال «ماجوانا» وربما تضمها إلى جمرة...».
- لكنني أحبك، ومستعد لفعل كل شيء من أجلك، أمّا «ماجوانا» وتقاليدها فليس لي أن أتدخل في ذلك، وما شأنني أنا بـ «ماجوانا» وإنما أريدك فقط، وأمّا ملك القرية فهو لك لا أطمع فيه ولا أريده».
- أُمي تفكر بعقلية الملوك يا «مالك»، وتخشى إن أنا تزوجتك أن ينقطع نسلها ويذهب ملكها.

ثم نظرت إلى «مالك» وقالت: «ولكنني أعدك ألا أتزوج من غيرك، فطُب خاطرًا، وأرني تلك البسمة الحانية على وجهك، فإنما آتيك إلى هنا لأسعد بقربك، لا أن أتسبب في كل هذا الحزن على وجهك».

ابتسم «مالك» ابتسامة خفيفة وهز رأسه ثم جلس وجلست بالقرب منه وتجاذبا أطراف الحديث، حتى إذا مرَّ الوقت انصرفت «هيذا»، وعاد «مالك» لداره وقصر أبيه وقد تعلق قلبه أكثر وأكثر بـ «هيذا» فكأن ما فعلته الملكة «أناكاونا» لم يزده إلا إصرارًا على الزواج من حبيبته.

\*\*\*

(3)

## مروج الذهب

سيطر الضجر على وجه «كريستوفر» وهو يمسك بمجموعة من الخرائط ويقطعها، ثم يلقيها في جنبات دكانه وهو يقول (ليست ثمة خريطة واحدة هنا تُنير لي الطريق، كلها عديمة الفائدة، خرائط عاجزة كمن وضعها ورسمها... لن نستطيع الإفادة منها)، ثم وضع يديه على وجهه ودخل في صمت كبير وقد غلبه الحزن والغضب، وهو يرى أن الوقت ينقضي ولا يستطيع فعل أي

شيء، والمال ينفد من بين يديه بلا طائل، فهل جاء إلى «لشبونة» ليكون صاحب مالٍ وجاهٍ أم ليفقد ماله ويفتقر؟!

مرَّ بعض الوقت وهو على هذا الحال لا يتحرك ولا يتكلم، وبينما هو كذلك إذ دخل عليه مساعده «مانويل» فنظر إلى الخرائط المقطعة بفرع وقال مستنكرًا: «مَن فعل كل هذا؟».

رفع «كريستوفر» يديه من على وجهه وقال: «فعلته أنا...».

- لم يا سيدي؟

- إنه ورق عديم الفائدة لا جدوى من الاحتفاظ به.

ثم أتبع بسخرية وقال: «إنها خرائط مضحكة ومخجلة معًا، وكأن من خطها هو طفل أحمق لا يعلم عن الأرض وتضاريسها أي شيء». ثم تنهَّد واطَّرد يقول: «إنه أمر مؤسف فقد سبقنا العرب في كل شيء، ومَن يعتمد الآن على علوم الغرب مجرد أحمق لن يصل إلى شيء، وها أنا أعترف أنني قد أخطأت عندما لم أهتم إلا بما كتبه الكاثوليك منا... أجل، لقد أخطأت عندما أخذني التعصب فأردت أن أثبت لنفسي أننا علماء، وأن العرب سفهاء لا علم لديهم، فإذا بي أصبح أكثر حمقًا ممن رسم هذه الخرائط اللعينة...».

ثم نهض وتحرك صوب باب الدكان ونظر إلى قصر الأمير «هنري» المشيد على أنقاض القصر العربي في «لشبونة» وقال: «من أراد العلم فليأخذه من العرب، وإلا فليكن أضحوكة لا قيمة له»، ثم أتبع ساخرًا: «مجتمع تكون فيه القراءة حكرًا على الرهبان، ويعالجون الصداع بفتح ثقب في رأس المريض، ويقولون عن خسوف القمر إن تنينًا أو غولًا قد ابتلعه، هؤلاء قوم يحكمهم الجهل والعبث».

اقترب «مانويل» من «كريستوفر» ووقف خلفه وقال: «لقد أصبت يا سيدي، ولقد أردت أن أقولَ هذا مذ عملت معك، ولكنني علمت حقدك الشديد على المحمديين وكرهك لكل عربي وكل مسلم، فلم أُرِد أن أضع نفسي موضع شك وريبة عندك فتقول عني ما لا أحب سماعه، ونحن يا سيدي أقصد أهل «لشبونة» خاصة ومملكة البرتغال عامة، بل ومملكتي «قشتالة» و«أراجون» نعرف عن العرب ما لا يعرفه غيرنا، أجل نحن وإياهم في حروب دائمة لا تنقطع، وقد استطعنا طردهم من هنا، ولكننا طردناهم وأخذنا علومهم وفنونهم، واستولينا

على حضارتهم وكتبهم فهذا الملك «جواو الثاني» قد استعان بكل علوم العرب ليستطيع غزو البحار، بل وفي كل سفنه المبحرة حول الأرض تجد رباناً عربياً يقود السفينة، بل إنَّ واحدًا من أعظم رجالات العرب هو دليلنا وقائد سفننا ويعمل تحت إمرتنا إنه «أحمد بن ماجد» هذا الملاح والجغرافي العربي الذي برع في الفلك والملاحة والجغرافيا، فهو من قاد «فاسكو دي جاما» إلى الهند، حتى أطلقنا عليه لقب الأميرال، ويلقب أيضًا بـ«معلم بحر الهند». وكان ابن ماجد هو أمير للدفة في قطع المرحلة الأخيرة ما بين مالندي (في كينيا) إلى قليقوت (قليقوت جنوبي الساحل الهندي الغربي) لأول مرة في تاريخ البرتغال، ناهيك يا سيدي بفضل ابن ماجد في إرساء قواعد الملاحة فيما وراء البحار في بحر الهند، كما أنه من طور البوصلة والإسطرلاب، وهذه مملكة «قشتالة» أيضًا وهي ليست عنأً ببعيد، فرغم عداؤها للعرب والمسلمين فقد أخذت الأنفاط من العرب وطورتها ثم حاربتهم بها، وقبل ذلك فقد استعان ملوك «قشتالة» بأطبائ العرب يعالجونهم ويطببونهم».

تنهد «كريستوفر» تنهيدة كبيرة وقد ضاق صدره فلم يسعه دكانه، فخرج منه ليتجه صوب البحر المحيط وخلفه «مانويل» وهما يتجاذبان أطراف الحديث وما زالا يتحدثان حتى وصلا إلى الشاطئ فركَّز «كريستوفر» نظره على الغرب وقال: «لقد صدقت فيما تقول فكيف السبيل إلى إصلاح ما فات؟».

- كما قلت يا سيدي نستعين بعلومهم وخرائطهم وبخاريهم، والرب لا تخرج سفينة من «لشبونة» يقودها بطل من أبطال البرتغال إلا ومعها بحار عربي يقود تلك السفينة ويدل من فيها فيذهب العربي بالمال، ويذهب البرتغالي بالجاه، ومملكة البرتغال بالتمكين، ومع الوقت يذهب المال ويبقى الأثر الحادث خالداً في التاريخ، فلن يذكر أحد ابن ماجد هذا أو بحارة العرب في أساطيلنا، ولكن سيذكر التاريخ أن «فاسكو دي جاما» هو مكتشف الهند، وأن البرتغاليين هم أسياد البحار.

هز «كريستوفر» رأسه طرباً بما يسمع ولم يتحدث، فأخرج «مانويل» من طيات ثيابه كتاباً كبيراً وقال: «بعد جهد جهيد وبحث، علمت أن فتى مغامراً يسمى (خشخاش بن سعيد) قد أبحر من لشبونة صوب الغرب، وعاد بعد عدة

أشهر مثقلًا بالذهب والبضائع، ما يعني يا سيدي أن هذا الشاب قد وصل إلى الهند ولكن عن طريق الغرب».

بلهفة شديدة قال «كريستوفر»: «حقًا؟!».

- أجل يا سيدي، فما زال بعض من أهل «لشبونة» يتذكرون ذلك ويتناقلونه، كما وجدت ذلك مدونًا في كتاب (مروج الذهب للمسعودي).

ثم أعطى الكتاب لـ «كريستوفر» الذي أمسكه وجلس فورًا على رمال الشاطئ وتصفح الكتاب بلهفة كبيرة وهو يقلب أوراقه، حتى وصل إلى هذه المقطع الذي يقول: (وعلى الحد بين البحرين أعني بحر الروم وبحر أوقيانوس المنارة النحاس، والحجارة التي بناها هرقل الجبار، على أعلاها الكتابة والتماثيل مشيرة بأيديها أن لا طريق ورائي لجميع الداخلين إلى ذلك البحر بحر الروم، إذ كان بحرًا لا تجري فيه جارية ولا عمارة فيه، ولا حيوان ناطق يسكنه، ولا يحاط بمقداره، ولا تحدر غايته، ولا يعلم منتهاه، وهو بحر الظلمات والأخضر والمحيط، وقد قيل إن المنارة على غير هذا الزقاق، بل في جزيرة من جزائر بحر أوقيانوس المحيط وسواحلها. وقد ذهب قوم إلى أن هذا البحر أصل ماء سائر البحار، وله أخبار عجيبة قد أتينا على ذكرها في كتابنا أخبار الزمان في أخبار من غرر وخاطر بنفسه في ركوبه، ومن نجا منهم، ومن تلف، وما شاهدوا منه، وما رأوا، وأن منهم رجلًا من أهل الأندلس يقال له خشخاش بن سعيد، وكان من فتيان قرطبة وأحداثها فجمع جماعة من أحداثها، وركب بهم مراكب استعدادها في هذا البحر المحيط، فغاب فيه مدة ثم انثنى بغنائم واسعة، وخبره مشهور عند أهل الأندلس).

أغلق «كريستوفر» الكتاب ونظر إلى «مانويل» وقال: «طبقًا لما أورده المسعودي، فإن «خشخاش بن سعيد» هذا، قد أبحر عبر بحر الظلمات هذا وعاد محملًا بحمولات الكنوز الثمينة من أرض الهند.... ولكن أين الطريق؟». ثم أعاد فتح الكتاب وقال لا بدُّ من ثمة طريق سلكها حتى وصل إلى مبتغاه.

\*\*\*

## (4)

تبدلت أحوال «لُذريق الطرياني» وتغيّرت أيامه وصار لا يخرج من البيت كثيراً بعدما تبدلت أهدافه وعزف عن الجلوس إلى أصحابه القدامى، وكان في كلِّ مرة يخرج من البيت يوصيه أبوه ويقول: «كنت لا أخشى عليك، ولكن الآن أخشى عليك من فورة الشباب التي بداخلك، فإياك يا بني أن يستفزك أحدهم فتُخرج ما في قلبك فهلك جميعاً، وإياك أن تذكر المسلمين بخير، أو تُظهر التعاطف معهم، فنحن بين قوم لن يتأخروا عن قتلنا إن هم علموا أننا مسلمون، فالعزيمة الآن يا ولدي أن نحفظ أرواحنا ونظل مسلمين فلا تُلقني بنفسك وبنا في التهلكة».

- لا تخش شيئاً يا أبتِ، وكن على ثقة بي فلن يخرج السر من صدري ولو قتلوني.

- حفظك الله يا ولدي، والآن لا تمكث كثيراً عند «المدوري» فلم تكن لك علاقة به قبل اليوم، ولا أريد أن نثير الشكوك بنا وبه.

- أراك كثير الخوف يا أبتِ، فهل تذكرت أن «المدوري» إنما هو تاجر يبيع الحنطة ويشتريها، ومن شأن التجار أن يدخل الجميع محالهم وبيوتهم فلا تخش شيئاً.

نظرت «خوانا» إلى ابنها وقالت: «حياتنا يا بني قد أصبحت بين يديك، على أنني قد سئمت من الدنيا وما فيها، وما عند الله خير وأبقى، ولكني أخاف عليك من غدرهم».

قبّل «لُذريق» رأس والدته وكأنه يطمئنها، ثم خرج من بيته وتوجه إلى حيث «المدوري»، وكان هذا الرجل الذي يعمل بالتجارة ويظهر كغيره من الموريسكيين النصرانية ويكتم الإسلام، وقد وشم صليباً كبيراً على يديه، وارتدى ملابس قشتالية ولأنه كان يتقن القراءة والكتابة فقد ائتمنه مسلمو إشبيلية على تعليم أولادهم أصول القرآن والإسلام... هؤلاء الفتيان الذين يستطيعون حمل السر وكتمانه، فتعلم منه «لُذريق» القرآن واللغة العربية، وأصول الإسلام، وفي كل مرة كان معلمه يشدد عليه بالكتمان الشديد ويخوفه من مغبة إظهاره الإسلام في بلاد يحارب فيها الإسلام، إذ قال له: «تعامل كأنك

منهم فإن تحدثوا عن نصر لهم فشاركهم نصرهم، وإن تحدثوا عن هزيمة لهم شاركهم حزنهم، وأعلم يا بني أن مهمتك الآن هي حفظ حياتك».

وعى «لُذريق» جيداً دروس معلمه كما أن خشيته على والديه زادته رجولةً وطمأنناً، وقد كانت «إشبيلية» في هذا الوقت عاصمة «قشتالة» و«أراجون» وبها قصور الملك، وكانت أيضاً مشهورة بصناعة السفن، فالتحق «لُذريق» بالميناء، وعمل في صناعة السفن ومع الوقت أصبح ماهراً في تلك الحرفة، حتى اشتهر في كل «إشبيلية» ومر الوقت وتوفيت أم «لُذريق» وبكى «لُذريق» أمه كثيراً، وزاد تعلقه بأبيه وتعلق أبيه به، إذ لم يصبح لأحدهما إلا الآخر، ومرت بضع أشهر وأصيب الوالد بوعكة شديدة ألزمته الفراش، فكان «لُذريق» يعمل في الميناء صباحاً لتوفير احتياجاته وأبيه من مال وطعام، بينما يسهر ليلاً على صحة أبيه وتلبية مطالبه. مكتبة سر من قرأ

وفي أحد الأيام استيقظ «لُذريق» كعادته من يومه وصلى الفجر، وأعد لأبيه طعام الإفطار، ثم قبّل رأسه وخرج ليتابع عمله في الميناء (صناعة السفن).

استلقى الأب على أريكته وجلس يدعو لابنه أن يحفظه الله، فقد كان يعلم أن أيّ خطأ سيحدث سيودي بحياة ابنه لا محالة، فحاكم «ديوان التحقيق» متحفزة جداً في هذه الأيام، وخصوصاً وقد أوكل الملكان الكاثوليكيان للمحاكم حماية الأندلس من الكفرة، وجعل محاكم التفتيش أعلى سلطة في البلاد....

مرّ بعض الوقت قبل أن يسترخي الأب على أريكته فقد كان ظهره يؤلمه بشدة بعد أن تفاقم عليه المرض.

أما «لُذريق» فقد كان دائماً ما يحاول الانتهاء من عمله سريعاً والعودة لوالده حتى إنه فكر أن يتزوج لتعول زوجته أبيه في غيابه ليطمئن عليه.

وبينما «بيريز» مسترخٍ على الأريكة إذ طُرق الباب طرقات ثقيلة متواصلة أزعجت الأب المريض فحاول النهوض من مكانه ليفتح الباب، ولكن صحته وقدميه لم تتحملا ذلك فسقط على الأرض، بينما زادت طرقات الباب حدةً وارتفاعاً وزاد تصميم الطارق على الدخول.

نظر الأب المريض إلى الباب وحاول مرة ثانية أن ينهض ولكن دون جدوى، وبينما هو يحاول إذ دفع أحدهم الباب بقوة ففتحه على مصراعيه،

وإذا برجال الشرطة يقفون على رأس الأب، وإذا بأحدهم يصرخ فيه ويقول: «لماذا لم تفتح الباب سريعاً؟».

ظهر الخوف على وجه الأب وهو يقول: «لم أستطع القيام إليكم لاعتلال صحتي يا سيدي».

- أنت متهم بأنك تتعامل مع اليهود، لهذا فأنت مطلوب أمام محكمة «إشبيلية».

ابتلع الأب ريقه وقال: «ولكني لم أفعل، بل لم أخرج من البيت منذ ستة أشهر، فكيف أتعامل مع اليهود وأتاجر معهم؟».

- هذا تقوله لرئيس المحكمة لالي، ثم صرخ الضابط في عساكره فتحرك اثنان من أقويائهم وأمسكا بالأب وجذباه، فلما لم يستطع قياماً سحلاه في الشوارع حتى أوصلاه إلى محكمة ديوان تحقيق «إشبيلية».

\*\*\*

أنهى «لذريق» أعماله وعاد لبيته ليكون بجوار أبيه، وفي الشارع المؤدي إلى داره، لاحظ نظرات الناس وحديثهم عنه، ولكنه لم يعبأ بذلك، وإن زاده الأمر تعجباً وفضولاً، ولكيلا يضيع أيّ وقت فقد تركهم لما يقولون وتابع سيره، حتى إذا وصل إلى الدار وجد الباب مكسوراً فسارع الخطى ودفع الباب بيده، ودخل يبحث عن أبيه وهو يصرخ «أبي، أين أنت؟» وما زال يبحث وهو يكاد أن يجن فلما لم يجده تحرك وخرج من البيت، فاقترب منه أحد الجيران وقال: «لقد أخذه عساكر ديوان التحقيق».

كاد «لذريق» أن يجن وقد أصابه زهول عظيم، فلم يدرِ ماذا يفعل ولم يستطع تحركاً، فقد أعجزته المفاجأة عن التحرك فقعده على الأرض والخوف يكاد أن يقتله، ودارت الأسئلة في داخله: لماذا حدث الذي حدث وهل اكتشف الديوان إسلام أبيه فأخذه بذلك؟ وإن كان فلا بُدَّ أن يقبضوا أيضاً عليك يا «لذريق»....

ازداد خوف الشاب فلم يستطع مكوثاً في البيت فخرج منه، ولم يجد أمامه سوى معلمه «المدوري» فتحرك صوبه حتى إذا التقاه أخبره بما كان، فما كان



من «المدوري» إلا أن قال له: «إن استطعنا رشوة المحققين فسينجُ أبوك وإلا فلا تلقى بنفسك إلى التهلكة».

- إنه مريض لا يقدر على شيء.... يجب أن ننقذه قبل يفوت الأوان.

أمسك «المدوري» بذراعي «لُذريق» قائلاً: «لا فائدة مما ستفعل، فلا تتعجل أهلك واعلم أن أباك الآن إنما يريد لك الحياة، فلا تقتل نفسك فتهلكه بيدك قبل أن يهلك بأيديهم».

وفي اليوم التالي حاول «المدوري» أن يتصل بأحد رجال الكنيسة ولكنه لم يستطع، لما كانت تمر به «قشالة» من حروب مع «غرناطة» وفشلت كل السبل في إنقاذ الأب.

وبعد عدة أيام من غياب الوالد في سجون محاكم ديوان التحقيق ظهرت أعلام ديوان التحقيق في أعظم ميادين «إشبيلية» وتحرك موكب «الأوتو دافي» يمر بشوارع المدينة وأسواقها وقد ألبسوا والد «لُذريق» الثياب المقدسة، ووضعوا في عنقه حبلاً وفي يده شمعةً وهو مكبل بالأغلال، والأصفاد مطوق بالسلاسل الغليظة، تحيط به فرقة من الجند تسلحوا بالسيوف والقضبان الحديدية، ثم توجه الموكب إلى الكنيسة ليجوز والد «لُذريق» فيها رسوم التوبة، ثم أخذ إلى ساحة التنفيذ، وهناك تلي عليه الحكم لأول مرة، وهو الإعدام حرقاً، ثم تحرك الموكب ودخل إلى أزقة «إشبيلية» والقساوسة يتلون حكم المحكمة وجميع القساوسة قد غطوا وجوههم بلباس غريب لا يظهر منه إلا الأعين فقط، وكان كلما تلي الحكم ابتهج الناس وعلت أصواتهم فرحاً حتى إذا وصل الموكب إلى الساحة الكبيرة للمرة الأخيرة تقدم ثلاثة من رجال الشرطة وأحاطوا بـ «لُذريق» الذي حبس دموعه خوفاً ورهبةً، فقد كان يعلم أن الدموع تعني أن يموت هو أيضاً حرقاً، وتقدم كبير القساوسة إلى «لُذريق» ورفع الصليب في وجهه وقال له بهدوء شديد: «يجب أن تفرح وتطمئن عليه، فإنما نفعل ذلك من أجل خلاص روحه وتطهيرها».

ثم صاح كبير القساوسة بصوت عالٍ في الموجودين حول الموكب وقال: «يجب أن تسعدوا وتفرحوا لا أن تبكوا وتحزنوا! النار تطهره وحسنة لكل من يشعلها، هيأ تقدموا وافعلوا، وتقدم بعض المتطوعين فأشعلوا النيران في كومة الحطب الكبيرة أسفل والد «لُذريق»، فصرخ الأب من هول النار

وعذابها، وقلب «أذريق» يتقطع أَلْمًا وحسرةً عليه، بينما يتبادل الأب قبيل وفاته النظرات مع ابنه وكأنه يقول له: تشجّع يا بني، واصبر واحتسب ولا تلقِ بنفسك في التهلكة واعلم يا بني أنني أحبك.

وقد كان الإحراق بطيئًا حتى لا يتم الموت بسرعة، فتأخذ الروح فرصة للتطهر والسمو حسب زعم أعضاء الديوان المقدس، فالألم أعظم ما يتغلب به الإنسان على الشيطان حسب زعمهم، وكان الإحراق حتى لا يُراق الدم، فأراقه الدم في نظرهم حرام، وكان محققو ديوان التحقيق لديهم قاعدة تقول: «إن موتَ مئة بريء خير من نجاة مذنب واحد».

\*\*\*

## (5)

تابع «كريستوفر» أعماله في «لشبونة» فكان يعمل نهارًا في دكانه حتى إذا عاد لبيته أشعل أضواء القناديل ليبحث في الكتب عن سر بحر الظلمات، وعن تلك الطريق المؤدية إلى المشرق، وكان لا يمل من البحث وخصوصًا البحث عن رحلة «خشخاش بن سعيد»، فقد كانت غايته وهدفه، فهي رحلة ناجحة وعليه أن يقتفي أثرها....

مرّت أيام وأيام و«كريستوفر» يتنقل بين الكتب، وساعده «مانويل» في الحصول على نسخة من خريطة «الإديسي» التي رسمها لـ «روجر الثاني» ملك صقلية عام 1154 م، وكانت الخريطة دقيقة بشكل كبير، وقارن ما في الخريطة ونظرية البكري التي تقول: (إن المتجه من شاطئ أوروبا غربًا يصل إلى آسيا شرقًا لأن الأرض كروية)، وهنا صرخ «كريستوفر» وقال: «أخيرًا وصلت إلى ما أريد، أخيرًا لن تحتاج سفن أوروبا وقوافلها إلى المرور ببلاد المحمديين....».

ثم جلس والسعادة ظاهرة عليه وهو يردد ويقول: الآن تستغني أوروبا عن المرور بتك البلاد، فلا تدفع الأموال نظير ذلك التنقل والمرور.... ولكن لتنفيذ

هذا ستحتاج يا «كريستوفر» إلى المال الكثير فمن سيعطيك إياه؟ من يعطيك المال الكافي لصنع السفن ومن سيمول رحلتك ويؤمن بما تريد أن تفعله؟

- يجب أن يكون من يؤمن بذلك يا سيدي، وخصوصًا إنَّ وثائق كثيرة تتحدث عن رحلة سابقة لرحلتك، ولا تنسَ أن نظرية كهذه وطريقًا كالذي تحلم به سيوفر الكثير من المال والجهد.

- إن كان كذلك يا «مانويل» فيجب أن يكون ملك البرتغال فهو الساعي خلف ذلك وهو الآن سيد البحار.

مرّت أيام كان «كريستوفر» يتقلب فيها على سريره ولا يعرف النوم له طريقًا، يفكر في حلمه ومشروعه، ثم إذ فجأة نهض من سريره وقال: «يجب أن أجد وسيلةً أتصل بها بالملك «جواو الثاني» فلن يحقق لي حلمي غيره، وبخاصة أن مملكة البرتغال لها الباع الأكبر في صناعة السفن وهي الآن مسيطرة على أعالي البحار ومهتمة كثيرًا بالاكتشافات الجغرافية، ولكن كيف لك ذلك يا «كريستوفر» كيف تصل إلى القصر الملكي في «لشبونة»؟». كان هذا هو السؤال الثاني المحير بالنسبة إلى «كريستوفر».

وفي أحد الأيام وبينما يتناول «كريستوفر» طعام إفطاره عند صديقه «إنريكي» تحدث إليه وقال: «قل لي يا «إنريكي» كيف لي أن أرسل برسالة إلى الملك «جواو الثاني»؟».

- الملك يا «كريستوفر»!

- أجل الملك فلن يقدر ما أحلم به غيره، فهي أحلام إن تحققت ستغير وجه العالم والتاريخ وستغير من خريطة البرتغال إلى الأبد...

- أرى إن كثرة مطالعتك للخرائط قد أضعفت عقلك.

- بل أنارته كثيرًا فإن استطعت فلتساعدني، وإلا فلا تؤهن عزيمتي.

أخذ «إنريكي» نفسًا عميقًا ورفع حاجبيه بعد أن شعر بجدية ما يفكر به «كريستوفر»، ثم قال: «لو استطعت فإن «لويس بن بيرستريلو» له علاقة جيدة بالقصر، فقد كان أبوه صديقًا للأمير «هنري» الملاح، واليوم هو على علاقة جيدة بالملك، على أن «لويس» لا يساعد أحدًا بهذه السهولة فهو يخشى على مكانته أن ينافسها عليها أحد كما أنه لا يقدم خدمة دون مقابل!..».

هز «كريستوفر» رأسه وقال في نفسه: «لويس» رجل متكبر لن ينظر إليّ ولن يساعدي إلا لو احتلت عليه...

وبعد أن أنهى طعامه خرج من الحانوت وهو يفكر في كلمات «إنريكي» إذ كيف لـ «لويس» أن يساعده ولا ينقّس عليه بعد ذلك، وأصبح هدفه الآن هو التقرب من الرجل والاستفادة منه، وبدأ «كريستوفر» يذهب كلّ يوم ويحوم حول قصر «لويس» ويسأل عنه، وبعد بحث عرف أن للرجل أختًا دميمة قد تأخر زواجها، فلا أحد قد تقدّم لخطبتها رغم تقدم عمرها وهي أخته الوحيدة، فجعل «كريستوفر» هدفه وتفكيره الزواج من هذه الفتاة، وعندها سيساعده صهره على ما يصبو إليه، فقط عندما يكون زوجًا لأخته!

ولكن كيف تتعلق الفتاة به؟ وكيف يوقعها في شباك حبه، حتى إذا طلبها من أخيها تم له ما يريد؟ وبعد بحث عرف أن الفتاة التحقت بدير «سام سانتياغو»، ولكنها تخرج منه مرة كل شهر تزور فيها أمها وأخاها، ولأجل ذلك بدأ «كريستوفر» يتردد كثيرًا على الدير، ويوجد بكثرة في أماكن وجود الفتاة، وفي كل مكان يتوقع أن يراها فيه، وكان في كل مرة يراها يحاول أن يلفت نظرها ويُسعرها باهتمامه بها، لم يمنعه وجهها القبيح أو تلك الندبات العجيبة في وجهها من ذلك، فقد حدد غايته ورضي أن تكون تلك الدميمة وسيلته، فلن يثنيه عن غايته أيُّ شيء مهما كان.

ورغم كل محاولاته ومع تواتر الأيام لم ينجح في لفت نظر الفتاة، فقد كانت الفتاة دميمة بحيث إنها تخشى أن ينظر إليها أحد، أو يتندّر عليها، فقد كانت على يقين إن أحد رآها سيسخر منها، لذا كانت تتحاشى النظر في وجوه الناس!

حتى إذا كان أحد الأيام وبينما «فيليبا» خارجة من الدير كعادتها وتتحرك في أحد شوارع «لشبونة» عائدة لدارها، إذ بأحد الفرسان ينطلق بسرعة رهيبه وكأن أحدًا يريد قتله أو هو في ساحة المعركة، حتى إذا كاد أن يدهسها أظهر «كريستوفر» الشجاعة الغريبة، وبسرعة كبيرة طار في الهواء وأنقذ الفتاة وسقط على الأرض، وشجت جبهته ولكنه استطاع إنقاذها.

وأحسن «كريستوفر» التصرف ونسي تلك الدماء السائلة من وجهه ورأسه، وقبل أن تنهض الفتاة نهض هو وتحرك صوبها ليقول لها بلهفة كبيرة: «هل أنت بخير؟».

نفضت الفتاة ثيابها وقالت وهي مذعورة: «الشكر للرب فقد أنقذت حياتي أيها الرجل»، ثم نظرت إلى جرحه والدماء تسيل من جبهته وقالت بنظرات حزينة: «ولكن ماذا عن جرحك؟».

رفع «كريستوفر» يده ووضعها على جرحه وقال وهو مبتسم: «إنه جرح بسيط سيندمل سريعاً، فلا تشغلي نفسك به».

ثم نظر إلى هذا الاتجاه الذي ذهب فيه الفارس وقال: «كاد هذا الأحمق أن يقضي عليك بتهوره ورعونته، ولو استطعت لأدبته على ذلك، إذ كيف له أن يسير في تلك الأزقة الضيقة بهذه السرعة وهذا الاستخفاف بأرواح الآخرين؟!».

- لا عليك، فهؤلاء الفرسان يرون أنفسهم دائماً فوق البشر، فهي السلطة تُخَوِّل لهم كل ذلك فيرون أنفسهم بشراً فوق البشر ولهم حقوق غير حقوق الناس.

تعجّب «كريستوفر» من قولها، فهي من عليّة القوم فكيف تصفهم بهذا القول! ثم تنهّد وهو ينظر إلى أعين الفتاة متجاهلاً قبحها مبدئياً ابتساماً حانية وقال: «والآن ألا تدلينني على منزلك لأوصلك إليه؟».

ارتبكت «فيليبيا» فلأول مرة يعاملها إنسان بمثل هذه الرقة وهذا الرُقي فقالت له: «لا لا. شكراً، فأنا أستطيع العودة بنفسى فلا تشغل نفسك بي».

- كما تحبين يا سيدتي، ولكن ألا تستريحي قليلاً في دكاني؟ فهو قريب من هنا، ثم أشار بيده وقال: «هو ذا؟».

نظرت «فيليبيا» إلى دكانه وقالت: «ربما في يوم آخر، والآن عليّ أن أعود للمنزل».

ثم تركته وقد أخذ قلبها وتعلقت به تعلق من كان يبحث عن شيء ولم يصدق أنه وجده!

\*\*\*

## (6)

لم تكذب «فيليبيا» تعود للدار حتى خفت إليها والدتها وقد تبدلت ملامحها وظهر الخوف على محياها فتحركت صوبها وابتدرتها تقول: «ما الذي حلَّ بك يا بنيّتي؟».

نظرت «فيليبيا» إلى ثيابها فكأنها لم تَرها متسخة من قبل، ثم وضعت يديها على الجراح بوجهها وكأنها تستذكر الذي حدث، ثم قالت: «لا شيء لا شيء، فأنا بخير...».

تجاهلت الأم كلام ابنتها وأعدت تقول: «فما الذي فعل بك كل هذا؟».

- لقد تعرضت لحادث وكاد أحد الفرسان أن يدهسني تحت فرسه لولا عناية الرب.

رفعت الأم حاجبها وقالت في صرامة وغضب: «ومَن الذي يجرؤ على فعل ذلك؟ فلو علم أخوك ليفعلن بهذا الفارس الأفاعيل».

لم تتغير ملامح «فيليبيا» وظلت تتحدث في هدوء وكأن شيئاً لم يكن وكأن تلك الجراح لم تكن فيها، بل زاد هدوؤها، وقالت: «لم يقصد أذيتي أو إصابتي فلا تشغلي أخي، ولا تشغلي نفسك بما حدث، فما هي إلا خدوش صغيرة ستندمل قريباً، فلا عليك يا أمي».

ثم اتجهت إلى غرفتها فأغلقت عليها بابها ووقفت أمام المرآة تنظر إلى وجهها وهي تتذكر ذلك الشاب الوسيم الذي أنقذها، وعرض نفسه للموت من أجلها وهي تبتسم وكأنها في حلم لا تريد له نهاية، وما أجمله من حلم راود القلب ورواه فأعاد له النبض والحياة! وبعدها استلقت على سريرها ولم تتحرك، بل كانت تتقلب يميناً ويساراً في سعادة كبيرة وبهجة عظيمة وكأنها امتلكت الدنيا وما فيها.

أما «كريستوفر» فقد شعر أنه أحسن التصرف وشعر أن الفتاة ستعود لتراه، فراح مع الأيام يترقب نتيجة فعله ويرجو أن تعود ولا يطول الغياب، ليس حباً فيها ولكن لأنها وسيلته إلى ما بعدها.

وكانت «فيليبيا» كذلك تتحرق شوقاً للخروج مرة أخرى والتعريج على الفتى تشكره على حسن ما فعل من أجلها، وهي تحلم بأن يكون الفتى قد أحبها كما

شغل عقلها وقلبها، ولم يمر كثيرٌ من الوقت حتى خرجت «فيليبا» من الدير وعرجت على البيت فارتدت أجمل ثيابها حتى ظهرت في أحسن هيئة وأبهى صورة وقد ارتدت زينتها كاملة وكأنها زاهبة إلى عرس لا إلى حانوت صغير هو بالأصل ملكٌ لأخيها، وهي تُمني نفسها الأمانى، وفي كل خطوة تقربها من دكان «كريستوفر» كانت تزداد دقات قلبها وتتسارع أنفاسها، حتى إنها وضعت يديها على صدرها وكأنها تحاول إخفاء أصوات دقات قلبها المرتفعة والعالية حتى لا يسمع ضجيجها أحد، وقد حاولت الفتاة ترتيب بعض كلمات شكر تقولها له، غير أنها وبمجرد اقترابها من باب الدكان فقدت كل كلمة يمكن أن تقال، وما إن وقفت أمام الدكان حتى ارتبكت ولم تدرِ ماذا تفعل، ففكرت في الانسحاب لولا أن خرج لها «كريستوفر» وانحنى لها مرحبًا بها وعلى وجهه ابتسامة كبيرة قبل أن يقول: «مرحبا بك في دكاني المتواضع يا سيدتي».

ثم أشار رافعًا يديه أن تفضلي الدخول، فما كان من الفتاة التي احمرَّ وجهها خجلًا إلا أن دخلت الدكان وقالت: «جئتُ أشكرك على ما فعلت من أجلي».

- بل حقُّ عليَّ أنا أن أشكرك على زيارتك تلك، فمنذ أن افتتحت هذا الدكان لم يدخل إليه أحد بقدرك، ولم يتردد عليَّ نساء بهذا التواضع الذي يزيدك جمالًا، فالتواضع يا سيدتي من الخصال الحميدة التي يتحلى بها الإنسان، ولا يتواضع إلا ذو أصل.

نظرت «فيليبا» إلى الأرض لحظات، ثم استجمعت قوتها ورفعت وجهها، ونظرت إلى «كريستوفر»، وقالت: «أنت تبالغ كثيرًا!».

أشار «كريستوفر» بيده إلى مقعد فجلست «فيليبا» عليه ثم جلس هو أمامها، وقال: «أنا لا أبالغ بل ربما عجزت وتعجزت كلماتي عن الوصف، فأنا لست ماهرًا في هذه الأمور».

نظرت «فيليبا» يمينًا ويسارًا فشاهدت الخرائط المرسومة والكتب الموضوعة هنا وهناك، وقالت متنهدة: «إن «لشبونة» ملائنة بالحسان وأظن أنهم يترددن هنا كثيرًا».

- إنما الحسنة هي من تحرك القلب فيدق من أجلها ويرقص طربًا بسماع صوتها، فتكتحل العين برؤيتها ويبتهج القلب بلقائها فتجف الشفاه

ويصمت اللسان عجزًا عن التعبير، الحسنة يا سيدتي هي من تتواضع ولا ترى الجمال في المرأة، وإنما في حسن أخلاقها وجميل بيانها وواسع معرفتها.

استمر الحديث بين «كريستوفر» و«فيليبا»، وقد كان «كريستوفر» يتمتع بذكاء كبير، فاستطاع أن يمتلك قلب الفتاة أكثر وأكثر حتى إذا خرجت من مكانه تركت قلبها وأحلامها بين يديه، أما هو فكان يراها وسيلة لنيل مبتغاه فتصنع لها من حسان الكلام ما يمتلك الرجل به القلوب ويسيطر به على العقول، فكانت كلماته كالماء لقلبها الجاف الذي لم يعتد على سماع جميل القول، بل إنها لم تكن تتخيل أن تسمع مثله قط.....

ومرّت الأيام وتكرر اللقاء وكل مرة كان قلبها يتعلق به أكثر وأكثر، حتى إذا تأكد من مشاعرها قرّر أن يتقدم لخطبتها بعد أن أكدت له أن أختها لن يرفض هذا الزواج كونه غريبًا عن «جنوة»، أو لكونه لا يملك المال والجاه فالمهم عنده سعادة أخته.

«كريستوفر»: «وماذا عن الدير فقد علمت أنك وأعضاء الدير من الرجال والنساء يجب أن يوافق الملك شخصيًا على زواجكم».

- هذا صحيح، إذ إنني مثل باقي الأعضاء.

- وماذا عليّ أن أفعل؟

- يجب أن تطلب تصريحًا من سيد سانتياغو، أقصد جلالته الملك، ولا أظن أن الملك «جواو» يرفض زواجي، وخصوصًا إن تدخل أخي وتوسّط في ذلك.

وحدث ما كان وتقدم «كريستوفر» لخطبة الفتاة، ولم يمر الكثير من الوقت حتى تم الزواج وحقق بذلك «كريستوفر» أول خطواته في نيل مبتغاه.

\*\*\*

## (7)

كانت الأمطار غزيرة يصاحبها البرق والرعد الشديد، حتى إن شوارع «ماجوانا» قد تحولت إلى برك من المياه الملائنة بالطين، وهُدمت بعض المنازل الضعيفة وأُطفئت بعض من نيران معبد «كيتزالكواتل» وأحدث الرعد



خوفًا في قلوب الكثيرين، فقد كان على غير قوته المعتادة فكاد يصم آذانهم، وبين ومضات البرق الشديدة وأصوات الرعد المرعبة صاح «بوردوم» في صوت مرتفع وهو يرفع عصا بيده إلى السماء وقال: «الويل لـ «ماجوانا» إن لم تنقذها الملائكة... الويل لكل من يبخل على الملائكة بمال أو ذهب... ستأتي الملائكة رحيمة على كل من يقدم لها القرابين، تحمل العذاب لكل من يبخل ويدفن الأموال، قدموا القرابين لكيترالكواتل ليرفع عنكم البلاء»، واخترق الشوارع وهو يصرخ بهذا الكلام فأنزل الرعب في قلوب المساكين من أهل المدينة، حتى دخل إلى بيته الذي كانت المياه قد حاصرته...

تردد صدى كلام «بوردوم» في أذن «أناكاونا» فأخذت الحيطه والحذر فقد كانت تؤمن بكل كلمة يقولها «بوردوم» وتعمل لها ألف حساب، وكيف لا وهو الأمين على الآلهة والمقرب منها، فعينت بعض الرجال لمراقبة الماء وأوصتهم إذا جاءت الملائكة في أي وقت أن يكونوا لهم بالمرصاد قبل أن تستأثر بهم قرية أو قبيلة أخرى، ولكي يغروا تلك الملائكة بالنزول لديهم فقد حمل المراقبون الكثير من صناديق الذهب والفضة، حتى إذا أقبلت تلك الملائكة قدموا لها هذا الذهب هدية، فلا يذهبوا إلى قرية أخرى ويتركونهم.

وبينما كانت الأمطار تبتث الرعب والخوف في «ماجوانا» كانت رحمةً وأمنًا على أهل جزيرة «جمرة» الذين اعتادوا الابتهاج عند نزول الأمطار وكانوا يحتفلون بها فتلهوا الأطفال بمياهاها، ويحمد الكبار الله على ما أنعم عليهم، حتى إذا أمسكت السماء تحرك الأمير الصغير «مالك بن عبد الله» وهو يحمل «حربون» فسار على شواطئ بحر الظلمات مترقبًا وهو يحدق النظر إلى المياه وقد غاص فيها حتى غطت قدميه وساقيه وهو يتحرك هنا وهناك وكأنه يبحث عن شيء، وبينما هو كذلك إذ سمع من يقول له ساخرًا: «هل ينتظر الأمير تلك الملائكة التي يتحدث الجميع عنها»، ثم قهقه بصوت عالٍ.

نظر «مالك» إلى «بوبا» وشاركه الضحك وقال: «لقد استطاع «بوردوم» أن يروج لتلك الخرافات، فسحر بها قلوب العامة فهل رأيتني مثلهم؟».

- كلاً يا صاحبي، ولكن أخشى أن هذا اللعين قد نجح في مبتغاه، وقد علمت أن ملكة «ماجوانا» لا تقطع أمرًا من دونه.

- «بوردوم» يخشى أن يفتضح سره وينكشف للناس جهله، فينفض الجميع عنه ويخسر مكانته، لذا تراه ينشر تلك الخرافات حتى تتعلق بها قلوب العامة ويكون هو ملهمهم فيها فلا ينفضون أبدًا عنه.

ثم رفع حربونه وضرب به الماء ثم أخرجه فإذا بسمكة كبيرة قد تعلقت بالحربون فنظر إليها مالك وقال مستطردًا حديثه عن «بوردوم»: «يحاول نشر الجهل لهذا تراه يحارب الإسلام لعلمه ويقينه أن نشر العلم يقتل الخرافات، وأن المتعلم لا يتبع دجالاً ولا يستمع إلا لمن يرضاه عقله».

ثم تحرك صوب الشاطئ ووضع السمكة وأضرم النيران في بعض القش الذي اشتعل بصعوبة كبيرة لتبلله بالماء، ثم وضع السمكة على النار وهو ينفخ تحتها في تلك الأعشاب، حتى إذا شويت قطعها وجلس يأكل هو و«بوبا» وهما يراقبان الأمواج ويتجاذبان أطراف الحديث.

\*\*\*

## (8)

في بيته بوسط «لشبونة» وأمام تمثال السيدة العذراء جلس «كريستوفر» وهو لا يتحدث وقد ظهرت عليه علامات الاضطراب والحزن والملل، فاقتربت منه زوجته «فيليبا» وقد ظهرت عليها علامات الحمل، فقد ازداد وزنها وبطؤت حركتها حتى قعدت على أريكة بجانب زوجها الذي لم يُعرها أي اهتمام، فنظرت إليه هنيهة من الوقت، ثم قالت: «ما لي أراك على غير ما اعتدتك عليه، حزين لا تضحك ولا تتحدث كثيرًا، وكأن شيئًا كبيرًا قد حدث؟».

تنهَّد «كريستوفر» وأغمض عينيه، ثم فتحهما مرة أخرى وقال: «وما الذي يدعو إلى السعادة يا «فيليبا»؟».

ثم نهض وتحرك صوب زجاجة خمر فصبَّ منها القليل، وعاد لكرسيه فتجرعها دفعةً واحدة، واستطرد يقول: «لديّ أحلام كبيرة، ولكن لم أستطع إلى الآن أن أتقدم ولو خطوة واحدة في سبيل تحقيقها.... أحلام ومشاريع عظيمة إن هي حدثت ستغير وجه الأرض ومسار التاريخ، وإن ظلت حبيسة

أفكاري فلن يحدث أي جديد، وأشد ما يحزن أن أرى من هم أقل مني وقد وصلوا إلى ما لا يستحقون، بينما عجزت أنا حتى عن أن أجد من يستمع إلى خططي وأفكاري.... كل ذلك لأنني بلا سند ولكوني غريبًا عن «لشبونة»، فمن هذا الذي يستمع إلى غريب مثلي أو يهتم له!.

- أنا هنا لا أستمع إلا لك.

- ليت لك من الأمر شيء يا حبيبتي ولكن...

- ولكن ماذا؟

مُظهرًا بعض التردد قال «كولومبس»: «إن أردت إسعاد زوجك فتحدثي إلى أخيك عله يوصلني إلى الملك».

اقتربت «فيليبيا» أكثر من «كريستوفر» ووضعت رأسها على صدره وقالت: «أنا لا أتأخر عنك أبدًا، ولا أظن أن يتأخر أخي أيضًا عن مساعدتك....».

ابتسم «كريستوفر» وقبّل رأس «فيليبيا» وقال: «وهذا ظني بك».

ولم يمر الكثير من الوقت حتى اصطحب «كريستوفر» زوجته إلى بيت أخيها، وبعد الطعام عرض «كريستوفر» عليه خططه في ركوب البحر والوصول لآسيا عن طريق آخر غير طريق الحرير، فقال له: «تعلم يا سيدي أنني خبير بالبحار مُطلع على أحوالها خبير بطرقاتها، وتعلم يا سيدي حجم المكوس التي نضطر إلى دفعها للمسلمين عند مرور تجارتنا وتجارة أوروبا بطريق الحرير الذي يمر ببلاد المحمديين».

- أجل أعلم كل ذلك، وإنه ليحزنني أن تجارتنا تمر بهم، ولا أعلم ما الذي سيحدث مستقبلًا، وخصوصًا وقوة العثمانيين تزداد يومًا بعد يوم حتى صاروا ملوك البحار وسادتها، فلا سبيل أمامنا الآن إلا استرضائهم، وهذا بحر الروم قد صار بحيرة لهم يصلون ويجولون كما يشاؤون.

- فماذا يا سيدي لو كان ثمة طريق آخر إلى آسيا غير طريق الحرير ولا يمر ببلاد المحمديين!

- أتقصد ذلك الطريق المكتشف حديثًا؟

- بل طريق جديد وقصير سيوفر علينا الكثير من المال والوقت.

- طريق جديد وقصير؟!!

أمسك «كريستوفر» بخريطة كبيرة كانت معه وفتحها وقال: «لو أبحرنا غربًا سنصل إلى الشرق في طريق بحري لا يابسة فيه».

تعجب «لويس» وقال: «كيف تبحر إلى الغرب فتصل إلى الشرق!».

- لأن الأرض كروية يا سيدي ونهاية بحر الأوقيانوس سيكون بداية بلاد الهند واليابان والصين.

«لويس» ساخرًا بعض الشيء: «أتردد أقوال العرب يا «كريستوفر»؟».

- أرددها ولكن لا أقول إنها لهم! ولا أجد مشكلة أبدًا في الاستعانة بعلوم العرب إن كانت ستقدم لنا ما لن تقدمه علوم غيرها، ولقد علمت الكثير وتعلمت هنا في «لشبونة» يا مولاي الكثير وأخشى ما أخشى أن نتناقل عن المعرفة فيسبقنا العرب إليها فنصبح من النادمين، وقد علمت أن فتى منهم هو «خشخاش بن سعيد» وصل إلى آسيا عن طريق بحر الظلمات، ولكن ملوك «الأندلس» لم يهتموا بما فعله «خشخاش» هذا، فذهبت كل مغامراته أدراج الرياح، ولم يستفد منها أحد، فهل سنكرر أخطاءهم يا سيدي؟

استرخى «لويس» على أريكته وهز رأسه في إعجاب بكلمات «كريستوفر» ثم قال: «يجب أن يعلم الملك «جواو الثاني» بخطتك هذه، ولا أظن أنه سيتردد في تقديمك والأخذ بما تقول، وهو من هو في عداته للمسلمين».

تنفس «كريستوفر» الصعداء واستبشر خيرًا وظهرت عليه كل علامات الفرح وقد علم أنه قد وصل إلى مبتغاه أو أوشك، فقال: «هل ستخبره بأمرى إذا يا سيدي؟».

- بل سأصطحبك إليه لتخبره بنفسك.

ابتهج كريستوفر وكاد أن يطير من الفرح فهو ما كان يتخيل أن يلتقي الملك بكل هذه السهولة فقال بلهفة كبيرة وحماسة عظيمة ومتى ذلك يا سيدي: «متى ذلك؟».

- الأحد القادم عندما يعود «بارثولوميو دياز» للديار، فقد جهّز له الملك حفلًا ضخمًا لاستقباله ولن أجد مناسبة أفضل من هذه لتقدمك له.

\*\*\*

تجهز «كريستوفر» لحضور الحفل الملكي في صحبة صهره «لويس» الذي كان على صلة وثيقة بالملك، وفي اليوم الموعد كان القصر الملكي في لشبونة مملوءاً بأصناف الخمر والراقصات، كما حضر الحفل جموع كبيرة من القادة والجند والنبلاء، بينما تملأ الضحكات المكان.

جلس الملك وبالقرب منه «بارثولوميو دياز» الذي تحدث وقال: «بتوفيق من الرب ورعاية الملك «جواو العظيم» تمكنت مملكة البرتغال العظيمة من اكتشاف أول طريق بحري يوصل بين الشرق والغرب ولا يمر ببلاد المسلمين، إنه طريق «رأس الشيطان»، منذ اليوم يا سادة، لن ندفع لهم المكوس والضرائب نظير مرور قوافلنا في بلادهم، بل منذ اليوم تستطيع سفننا الوصول إلى الهند والصين بل وقلب بلاد المسلمين دون أن يمنعنا أحد»، ثم تحرك وأكمل يقول: «لقد ولّى عهد سيطرة المماليك والعثمانيين على تجارة الدنيا وصارت أوروبا تمتلك طرقها الخاصة...»، ثم انحنى أمام الملك وقال: «كل ذلك بفضل مولاي الملك «جواو»».

نظر «كريستوفر» إلى «بارثولوميو» والحقد يسيطر عليه وقال في نفسه: لولا العرب وابن ماجد ما عدت من هناك، وما استطعت أن تطوق الدنيا بسفنك وأن يصل خبرك الآفاق. وبينما هو يفكر في ذلك إذ رفع «جواو» كأس خمره وأشار بيده قائلاً: «نخب مكتشف طريق رأس الشيطان الذي سنحول اسمه منذ اليوم إلى طريق رأس الرجاء الصالح».

رفع «كريستوفر» الكأس وقال: «نخب «بارثولوميو»».

وردد الحضور كلام الملك وهم ينظرون إلى بعضهم بعضاً مرددين: «رأس الرجاء الصالح؟!».

«جواو»: «أجل يا سادة، فإنني أرجو أن يكون هذا الطريق صالحاً لوصول قواتي إلى مدينة «أورشليم» واستردادها من أيديهم، ومن يدري فلعل قواتنا تدخل قلب مدنها المقدسة، ووقتها نستطيع أن نقضي عليهم في عقر دارهم»، ثم رفع كأس خمره وقال: «نخب طريق رأس الرجاء الصالح».

شرب الملك كأسه وانخفضت الأصوات قليلاً فتحرك «لويس» صوب الملك واقترب منه وقال: «لو أذن لي سيدي الملك بالحديث».

- تحدث يا «لويس».

- هذا صهري «كريستوفر كولومبس» يريد أن يعرض أمرًا على جلالتكم بخصوص الطريق البحرية المؤدية إلى كنوز الشرق.

نظر «جواو» إلى «كريستوفر» وقال: «تحدث فهذا يوم لا أرد فيه أحدًا».

تقدم «كريستوفر» وهو مضطرب النفس حتى إذا وقف بين الحضور قال: «سيدي الملك، لقد عكفت سنوات وسنوات على هذه الدراسة وأفنيت الكثير من المال في جمع المعلومات التي قادتني أن المبحر من سواحل البرتغال غربًا يصل إلى آسيا شرقًا».

تعالّت الأصوات ما بين مستهجن ومتعجب، فتابع «كريستوفر» وقد رفع صوته أكثر وقال: «الأرض كروية يا سيدي وهذا هو السر، فلو أبحرنا غربًا سنصل إلى الشرق».

لم يتمالك كبير الكنيسة الكاثوليكية في «لشبونة» نفسه فتحرك صوب «كريستوفر» وقال: «على الإنسان ألا يغضب القدرة الإلهية بسعيه إلى سبر غور الأعماق المجهولة في المحيط».

ورغم تدينه الشديد لم يعبأ «كريستوفر» كثيرًا بحديث القس ولم يُعِره اهتمامًا، فقد كان يعلم جيدًا رغم تدينه جهل هؤلاء وقلة خبرتهم، أما الملك «جواو» فقد قال لـ «كريستوفر»: «وماذا تريد لتقوم بمشروعك هذا؟».

- أن يجهز لي الملك ثلاث سفن للقيام بحركة استكشافية لمدة عام عبر بحر الظلمات والعودة منه، على أن يعين «كريستوفر» أمير بحر أعظم للمحيط وحاكمًا دائمًا لكل الأراضي التي يمر بها، وأن يحصل على عُشر كل الإيراد والمعدن الثمين الذي تحصل عليه البرتغال من تلك الأراضي.

هزّ الملك رأسه وقال: «سنترؤى في الأمر بعد أن نحظى بموافقة كبير القساوسة، والآن عودوا لحفلتكم».

مكتبة  
t.me/soramnqraa

## الفصل الثالث

وأُيِّ حياةً تلك التي نعيشها ونتجرع فيها كأس الفراق  
ومراته كثيرًا فكأننا اجتمعنا لتتفرق وعشنا لنموت!

«لذريق الطرياني»

### (1)

تبدلت أيام «كريستوفر» وانقلب فرحه حزنًا وألمًا، وشعر بخيبة أمل كبيرة وبضياع كثيرٍ من وقته وماله فضاقت عليه «لشبونة» بما فيها، وبدأ يشعر أنها قد صارت سجنًا كبيرًا عليه بعد أن قضت على كثير من أحلامه وآماله، فقد رفض مستشارو الملك خططه في غزو البحر الأوقيانوس، فساءت أحواله وأهمل كلَّ شيء، وما عاد يذهب لداكانه ولا يهتم بشيء من الكتب والخرائط، وشعر أنه لم يعد هناك ما يستوجب أن ينافق أحدًا أو يسترضي أحدًا، فأظهر أقبح ما فيه وصار يعامل «فيليبا» معاملة سيئة قاسية وكأنها من أفسلت خططه ومشاريعه، ولم يراعٍ فيها حبها له أو خلاصها الشديد في محاولة استرضائه، وكثيرًا ما كان يندب زواجه منها ويوبخها بسبب وبلا سبب،

وكانت تقابل كل ذلك بصبر كبير وتلمس له الأعذار وكلما قعدت مع نفسها أَلقت اللوم على الملك وعدم استجابته لمطالب «كريستوفر».

أمَّا ابنه الرضيع فقد كان حظه ليس بأقل قسوة من حظ أمه، فقد كرهه وأخذَه بذنْب فشل مشاريعه، وهكذا صار يتعامل مع زوجته كأنها لعنة عليه، ويتعامل مع ابنه كأنه الخطيئة التي لا غفران لها، بل شعر أن ابنه هذا ربما يُعيق مشروعاته المستقبلية. وبينما يجلس وحيدًا مكفهرًا الوجه، إذ دخلت إليه «فيليبا» وبين يديها ابنها الرضيع وهي مبتسمة ابتسامة خفيفة وقلباها يدعو الرب أن يهدي قلب زوجها وحبيبها عليها حتى إذا اقتربت منه قالت بصوت خفيض حان: «هل أحضر لك طعامًا تأكله؟».

- لا شهية لي.

اقتربت «فيليبا» منه أكثر وقالت: «انظر إلى وليدنا، إنه يشبهك كثيرًا».

التفت «كريستوفر» إلى الرضيع وقال: «هذا القبيح؟!».

- إنه بضعة منك يا حبيبي انظر إليه، عيناه كعينيك، وأنفه كأنفك.

ثم حاولت أن تقدم الطفل له ليحمله فنهرها، وقال بصوت مرتفع: «أخرجني من هنا، لا أريد سماع صوتك».

حاولت «فيليبا» كثيرًا أن تتلطف معه، وتغاضت عن سوء معاملته لها، واختلقت له الكثير من الأعذار، وقابلت توبيخه بصبر كبير وقالت لنفسها إن اليأس هو من يفعل ذلك لا هو، وإنها فترة وستمر ويعود لما كان عليه... وكثيرًا ما يخدع الناس أنفسهم، ويغضون أبصارهم عن حقائق واضحة يوهمون أنفسهم بغير ما يرون ويحيدون عقولهم لتنعم قلوبهم بأمانى لن تتحقق وأوهام كاذبة، وكذا فعلت «فيليبا»، فخدعت نفسها وتناول صبرها فتركته حينًا وأيامًا تصنع له طعامه وتلاطفه وتلاينه، فإن لم يجبها تتركه حتى لا تثقل عليه، وتجلس وحيدة في غرفتها تتذكر خوالي أيامها معه، تتذكر أيامًا سعيدة مضت وكلمات غزل لم تعد تسمعها، ولكنها تستعيدها لتعيش أيامها الحاضرة فكانت تلك الكلمات والذكريات خير معين لها في هذه الوحدة الغريبة التي لا ذنب لها فيها، تصبرها كثيرًا وهي تُمني نفسها بأنه سيعود كما كان، وفي الوقت نفسه اجتهدت كثيرًا لتحقيق له حلمه، فكانت تختلف إلى



بيت أخيها تحاول فيه أن يراجع الملك، ولكن كان الأمر قد انقضى، ولا سبيل إلى تحويل كلام الملك.

أمّا «كريستوفر» المنعزل عن الناس في «لشبونة» فقد جلس كثيرًا يُعيد ترتيب أوراقه وأفكاره، ويرتب لما هو قادم، بعد أن علم أن «لشبونة» قد انتهت حظوظه منها، وبعد تفكير قرر السفر بعيدًا عنها، ولكن كيف ذلك يا «كريستوفر»؟ وماذا عن «فيليبيا» وابنها وماذا عن المال الذي خسرتَه هنا؟ ومن أين لي بنفقات جديدة وتكاليف الرحلة؟ كانت هذه الأسئلة تتردد في عقل وتفكير «كريستوفر» الذي راح يتحرك في الغرفة يمينًا يسارًا وهو يعيد تلك الأسئلة على نفسه: ماذا عن «فيليبيا» وابنها.... ممم إنها لعنة «لشبونة» التي لن تترك يومًا، آه يا «كريستوفر» لو أن الموت بيدك لأزقتَه لها ولابنها.... أجل، فأنا لا أشعر بأي عاطفة تجاه هذا الطفل إلا أنه سيكون عائقًا أمام تحقيق أحلامي...

وهكذا طغت عليه فكرة التخلص من «فيليبيا»، وتمنى موتها أو هلاكها، وكان كلما تذكر ملامح وجهها ازداد وجهه امتعاضًا وكرهًا لها، وكأنها هي من تعرّضت له يومًا وأوقعته في شباكها...

لقد نسي «كريستوفر» إنها كانت ضحيته، وأصبح يفكر فيها وكأنه ضحيتها، وهكذا هي زيجات المصالح والأهواء والأغراض اللئيمة تنتهي وتفشل عندما تحقق النتيجة أو الغاية منها أو لا تتحقق...

ثم جلس في أحد الأركان المظلمة في الغرفة وقال: لا يجب أن أبقى حبيس الدار هكذا، يجب أن أجد ما يكفي من المال لأتدبر حالي. ثم ارتدى ثيابه بعجل وخرج من المنزل، وقد قرر بيع ما في الدكان من أغراض وممتع، فعرج على «مانويل» فلم يجده في داره، فسأل عنه حتى عرف أنه يجلس في الحانة فتحرك حتى إذا وجده جلس بجواره وقال له: «لقد قررت بيع كل ما يحتويه الدكان، وكل ما لديّ هنا والخروج من «لشبونة» إلى الأبد».

اعتدل «مانويل» في جلسته وأظهر الاهتمام بالأمر، ثم قال: «ألا نتناقش قبل فعل أي شيء؟».

نظر «كريستوفر» يمينًا ويسارًا مستنكرًا وقال: «هنا؟».

- ولم لا؟

- تعلم أنني لا أرتاد تلك الحانات، ولا أحب أن أنفق مالي فيها.

ابتسم «مانويل» وقال: «لا عليك، فالحساب عندي وأنا من سيدفع لك».

أخذ «كريستوفر» نفساً عميقاً واسترخى قليلاً على كرسيه بجوار «مانويل» الذي كان يحتسي بعض الشراب، فقال «مانويل»: «ولكن تجارتك في «لشبونة» رائجة فلماذا وقد بلغت ما بلغت».

لفَّ «كريستوفر» رقبته إلى اليمين وقال: «أنا لم آتِ إلى هنا للتجارة والربح البسيط الذي يفكر فيه الناس، لم آتِ إلى هنا لآكل وأشرب».

ثم أعاد النظر للأمام وأكمل: «ولكن جئتُ إلى هنا لمشروع كبير أعددت له كثيرًا، وحلمت بتحقيقه كثيرًا، ومن أجله تركت «جنوة»، أمّا التجارة فلو أردتها ما خرجت من بلدي وهي من هي في التجارة وطرقها، أنا أريد مالا لا تحققه التجارة».

- كنت أظن أن رد الملك سيرجعك إلى عقلك وصوابك، فتنتبه إلى أعمالك وحياتك وتترك تلك الأحلام التي لن تتحقق.

- مَنْ يقول ذلك... أنت؟ وماذا عن «خشخاش بن سيعد» ورحلته والذهب الكثير الذي عاد به؟ أنسيت كل ذلك يا مانويل أم إنك تتناسى؟

- ممممم، ربما صدقت في هذه، ولكن ماذا ستفعل؟ وأنت لا تملك المال الكافي لرحلتك تلك.

- سأحاول الاتصال بالملك «فرناندو الخامس»، فهو مَنْ سيعينني على ذلك.

- إنَّ ملك قشتالة منشغل بأمور غرناطة والاستيلاء عليها، فلا أظن أبداً أنه سيبدل غايته وهدفه.

اقترب «كريستوفر» من «مانويل» وهمس قائلاً: «أنا لن أثنيه عن غزو «غرناطة» وطرد هؤلاء منها، ولكني سأذكره بمملكة البرتغال وسيطرتها على طرق التجارة الحديثة، وأنه لو بقي هكذا حبيس «إيبيرية» فستتزعم البرتغال العالم، وما لا يؤخذ هكذا يا «مانويل» يؤخذ بالتنافس والغيرة».

رفع «مانويل» قنينة الشراب، وصبها في كأس فارغة، ثم أعطاهما لـ «كريستوفر» وقال له: «نخب ملك قشتالة».

وتقارع الرجلان الكأسين وقد تبدّل حال «كريستوفر» بعض الشيء

- أريدك أن تبيع لي ما في الدكان من أدوات بأسرع وقت.

- لا عليك، فغداً يكون الثمن معك، ولكن ألا ترى أن ثمن تلك الأدوات لن يكفل رحلة كرحلتك من «لشبونة» إلى «إشبيلية»؟

- أعلم ذلك، وفي الوقت الذي ستبيع فيه أغراض الدكان سأكون أنا في مهمة أخرى لتحصيل الأموال.

- مهمة أخرى؟! وما هي تلك المهمة؟

- اسمع يا «مانويل»، لقد علمت من زوجتي أن والدها المتوفي قد ترك في تلك الدار التي تعيش فيها أم زوجتي صناديق كثيرة، وقد علمت أن لا أحد رأى تلك الصناديق أو عاينها.

- أيعقل هذا! وماذا عن «لويس»؟

- لقد أخذ «لويس» الكثير من مال أبيه، وأنت تعلم أين يسكن، بينما «فيليبا» وأمها تسكنان في دار قديمة فلم يهتم «لويس» بتلك الدار وما تحوي.

- أتعني أنك.....

- أجل سأستولي على تلك الصناديق وما فيها!

وكان «كريستوفر» يخرج من البيت في حال ويعود بغيرها، فإذا عاد للمنزل لا يتحدث أبداً وظل هكذا حتى ضجرت «فيليبا»، وانتهى صبرها، بعد أن تسرب الشك إلى قلبها وشعرت أن زوجها ربما يخونها مع غيرها، فتملكتها مشاعر غضب ممزوجة بحزن كبير، فدخلت عليه وقالت: «حتى ابنك لا تعرف عنه أي شيء فألى متى تظل هكذا؟».

نظر «كريستوفر» إلى ابنه وقال: «لا أريد رؤيته..... يكفي أنه يشبهك».

نزلت الكلمة كالصاعقة على قلب «فيليبا» التي قالت: «كنت أظن أنها أيام وتعود لرشدك، فإذا بك تزداد مع الوقت قسوةً وعنادًا فهل هو جن مسك؟».

- وأي شيطان فعل؟ إنه شيطانك.

ثم أمسك بشعرها وجذبها بعنف صوب المرأة وقال: «هل هذه ملامح أنتى؟ انظري إلى نفسك يا «فيليبا»... أنت لست امرأة ولكنك أخت للشيطان، دميمة لا جمال فيك».

سحبت «فيليبا» رأسها منه وتخلصت من قبضته وقالت: «إن كنتُ كما تقول فلم تزوجتني؟».

- لأصلَ إلى نفوذ أخيك وأستفيد منه، أمّا الآن، فو الرب لقد ذهب المنفعة وبقي الشيطان معي لا يحلني منه إلا الموت...

- نفوذ أخي فقط يا «كريستوفر»، أم صناديق أبي وأمواله؟

- أتفتشين خلفي يا «فيليبا»؟

- ما فعلتها من قبل، ولكنها أُمي من أرسلت إليّ وأخبرتني ما كان منك وهي تقسم إن لم ترد إليها ما أخذته لتخبرن أخي بفعلتك وأنت تعلم «لويس» جيّدًا، وتعرف ماذا سيفعل بك إن علم.

- أتهدّديني إذًا، فلتعلمي أن أموال الدنيا لا تحملني على البقاء معك، فكيف بعدة صناديق قديمة بالية لا شيء فيها إلا بعض أوراق وخرائط أخذها أبوك عن الأمير «هنري» الملاح.

ثم خرج من البيت ليترك «فيليبا» وقد انهارت من هول ما سمعت، فجثت على ركبته وراحت تنظر إلى المرأة ودموعها تنسال على وجهها وهي تتخيل نفسها بصورٍ غريبة وأشكالٍ مختلفة وحركاتٍ غريبة، ثم طغى عليها السكون قليلًا وهي تحدق إلى المرأة، وفجأة قامت فكسرت المرأة بقوة وسط صريخ ابنها الرضيع، الذي ذهب إليه تريد قتله ولكنها لم تفعل، وأمسكت بخنجر وطعنت نفسها لتمتزج دموعها بدمائها وتموت ضحية كذب ونفاق «كريستوفر».

\*\*\*

## (2)

حاول «لُذريق» النوم في هذه الليلة الشاتية فلم يستطع نومًا، وظل يتقلب يمينًا ويسارًا والحزن يسيطر عليه، إذ لم يعد له غير أحزانه يعيش عليها، وهذا السكون المرعب الذي يصاحبه حين دخوله البيت حتى خروجه منه.

وبعد محاولات يائسة انتصب على سريره، وانتعل حذاءه وتحرك خارجًا من غرفته، حتى دخل بهو المنزل وحقق النظر إلى تلك الأريكة التي كان والداه يجلسان عليها، فحُيِّل له أنه يراها وأنهما ما زالا هنا، ثم ابتسم ابتسامة حانية وقد جال بذاكرته إلى ذلك اليوم بعد أن أخبراه بحقيقتهما وحقيقة إسلامهما، حتى إذا تأخر في درسه قليلًا من الوقت لم يهدأ الأبوان وظلا منشغلين عليه، لا يهدأ لهما قرار، والأم تبكي بينما يحاول الأب أن يظهر التماسك والجَلَد، حتى إذا اقترب «لُذريق» من باب المنزل همس الأب وقال: «إنه «لُذريق»».

وهرول صوب الباب ليفتحه وما إن وجده حتى ابتدره قائلًا: «لما تأخرت علينا يا بني؟».

- لم أشعر إلا وقد تأخر الوقت يا أبت. ثم تقدم صوب والدته فجفف دموعها وقبَّل رأسها.

ترقرقت الدموع في عيني «لُذريق» وهو يقول: آه يا «لُذريق» من الذي سيسأل عنك إن تأخرت أو غبت؟ ومن سيهتم لك إن طعمت أو جعت؟ رحمك الله يا أبتِ ورحمك الله يا أمي.

ثم ارتدى ثيابه وقرر الخروج في مثل هذا الوقت من الليل بعد أن ضاقت عليه جدران المنزل، فخرج إلى شوارع «إشبيلية» المتعرجة الضيقة يسير في طرقات المدينة، لا يدري أين يذهب وإلى أين يتجه؟ فالمدينة الآن خالية من أهلها وخصوصًا وقد خرج معظم الرجال مع جيش «فرناندو» المتجه صوب «غرناطة».

تحرك «لُذريق» وهو يقطع الطريق على مهل، لا يدري أين يذهب رغم اتساع المدينة وترامي أطرافها، فقد ملَّ منها رغم جمالها بعد أن فقد فيها الأحبة والأهل، وأخيرًا وبعد تفكير، قرر الذهاب إلى مُدرسه وأستاذه

«المدوري» علّه يجد في حديثه ما ينسيه آلامه وأحزانه، وكيف لا يذهب إليه وهو الباقي من رائحة والده فهو أبوه بعد أبيه وناصره بعده.

تحرك «لُذريق» حتى وصل إلى بيت «المدوري» وما إن وصلَ حتى فكر في العودة فرجع خطوة للخلف، ثم تقدم مرة أخرى فطرق الباب طرقات خفيفة وهو متردد هل يكمل أم يعود أدراجه؟ فلما تأخر فتح الباب قرر العودة، إذ لا يُحسن أن يزورَ الرجل في مثل هذا الوقت من الليل، وما إن أدار للباب ظهره حتى سمع صوت فتح الباب ليخرج «المدوري» ويقول له: ««لُذريق»... أهلاً بك ومرحباً يا بني... تفضّل».

- خشيت أن أكون قد أزعجتك بزيارتي في مثل هذا الوقت يا سيدي.

- بل أنت مُرحّب بك في كل وقت وحين يا ولدي.

ثم أشار بيده فدخل «لُذريق» حتى جلس في مكان بعينه وجلس «المدوري» أمامه وقال: «ما الذي أرق نومك فأتيت الآن؟ ولم أعتد أن أراك في مثل هذا الوقت قط، وفي مثل هذا الطقس البارد».

- لم أعد أتحمّل وجودي في المنزل يا سيدي، فكل جنباته تذكرني بأيام قد مضت، وأحباب قد رحلوا.

ثم خفض رأسه لأسفل لتسيل دموعه غزيرة حارة وهو يقول: «لقد انكسر ظهري بوفاة أبي فلم يعد لي بعده سند، وانكسر قلبي بوفاة أمي فلم أعد أشعر بالطمأنينة بعدها... لقد رحل عني من كان يحنو عليّ ويريد الخير لي... وأي حياة تلك التي نعيشها ونتجرّع فيها كأس الفراق ومرارته كثيرًا فكأننا اجتمعنا لنتفرق وعشنا لنموت!».

- هدئي من روعك يا بني، فهي سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وعسى أن تلتقي بهما في الجنة إن شاء الله، فاصبر يا بني واحتسب، وليكن عزائك في أبيك وإحسانك له أن تعمل بوصيته وتلتزم بما أوصاك به، فاحفظ نفسك ولا تهلكها جزعاً عليه...

أوماً «لُذريق» رأسه مؤمناً على كلام أستاذه، وهدأت نفسه قليلاً قبل أن يقول: «أريد الخروج من «إشبيلية» يا عماه».

- إلى أين يا ولدي؟ فقد منع الملوك الكاثوليك الخروج من كل الأندلس.

- إلى الدنيا الواسعة يا سيدي، أو إلى عمل ينسيني ما أنا فيه.

هز «المدوري» رأسه ثم نظر إلى «لذريق» مبتسمًا، وقام واتجه إلى صندوق خشبي فاخرج منه أداةً وقلمًا، فسَطَّرَ بعض الكلمات وقال له: «انذهب إلى ميناء «إشبيلية» واسأل عن «مارتين آلونسو بينسون» وأعطه هذه الورقة، وإياك أن تقع في يد إنسان غيره!».

\*\*\*

### (3)

لم يكد «كريستوفر» يعود لمنزله حتى فزع مما رأى، وانقبضت روحه فالدماء كانت تغطي المكان وجثة «فيليبا» ملقاة على الأرض، والطفل قد لطح جسده بالدماء وهو يبكي ويصرخ وكأنه يحاول إيقاظ أمه أو تحريكها...

وقف «كريستوفر» عند باب الغرفة ينظر إلى ما حدث وهو لا يكاد يصدق ذلك، وبعد صمت قليل اقترب من الجثة ونظر إليها محدِّقًا فتعلق به الطفل فأخذه «كريستوفر» وحمله بين يديه وكأنه لم يتذكر أنه ابنه إلا بعد مقتل أمه بهذه الطريقة البشعة، وبسرعة كبيرة ذهب إلى الخزانة فأخرج ما كان يُخفي من مال وذهب، وقرر الفرار خوفًا من بطش «لويس»، حتى إذا وصل إلى باب المنزل تذكر الذهب في عنق «فيليبا»، فعاد سريعًا وقطع سلسلة الذهب في رقبتها والقرط في أذنيها وتركها وخرج حتى إذا وصل إلى بيت «مانويل» قص عليها ما حدث فقال له: «وماذا ستفعل الآن؟».

- لا بدُّ من الفرار سريعًا والخروج من «لشبونة» قبل أن يتفطن «لويس».

اعتدل «مانويل» في جلسته وقال: «اجلس هنا ولا تتحرك وسأخرج أنا لأتدبر».

ثم خرج «مانويل» من داره تاركًا «كريستوفر» وهو يفكر فيما حدث مذهولًا منه، حتى إذا مر بعض الوقت عاد وقال له: «عند مغيب الشمس سنخرج من هنا، وسأعد أنا الركائب وكل ما تحتاجه الرحلة، إذ يجب علينا

الخروج من «لشبونة» براءً إذ لا يسعنا تركها بحرًا فالميناء اليوم فارغ لا سفن فيه وإن تخلفنا للغد ربما يحدث ما لا يحمد عقباه».

- وهذا ما قد قررته آنفاً، فإني لن أعود إلى «جنوة»، بل سنتجه إلى «قشتالة» ومليكيها «فرناندو الأراجوني»، فلا أحد الآن سيساعدنا غيره، ولعلي أجد في «قشتالة» ما عجزت عنه في «لشبونة».

وفي المساء تسلل «كريستوفر» وصديقه «مانويل» بعد أن حملا كل أموالهما، وتحركا صوب الشرق حيث مملكة «قشتالة»، وما إن خرج من «لشبونة» حتى تنفس «كريستوفر» الصعداء، فنظر إليه «مانويل» وقال: «ألم تندم أو تحزن عليها؟ أقصد «فيليبا».

- هي مسكينة ظلمتها الطبيعة فولدت دميمة ولا ذنب لي في ذلك لأحزن عليها، ويكفي أنني نافقتها سنوات ما كان لها أن تجد فيها من يسعدها، أو حتى يتزوجها رغم ثراء أخيها، فإن كان لي أن أحزن فهو على أيام قضيتها معها!

- لم أكن أعلم أنك بكل هذه القسوة.

- ليست قسوة، ولكنه الطموح الذي يملكني والمستقبل الذي لا أريد لأحد أن يمنعني عنه.

- وماذا عن هذا الطفل الذي لا يكف عن البكاء؟

- إنه دميم مثلها لم يرث عني أي شيء، ولو استطعت لتركته في «لشبونة» ولكن...

- لا تقل إن قلبك لم يطاوعك.

- أجل هذا ما حدث، فعندما وجدته متعلقاً في قدمي لم أجد نفسي إلا حاملاً إيّاه، ولم أكن أفعل من قبل، أمّا «فيليبا» فلم أفعل بها شيئاً، إنما قتلت نفسها ولم أظعنها أو أقتلها.... ولماذا لا تقول أن أخاها قد ظلمها وقد علم دمامتها وقبحها، ولماذا لا تقول هي من ظلمت نفسها عندما تعلقت بي كل هذا وهي تعلم من هي، ألم تك تملك مرآة لتعرف نفسها؟ فهي يا صديقي كذبت على نفسها قبل أن أكذب عليها.



ومرّ الوقت وهما في الطريق حتى إذا اقتربا من «قرطبة» قرر «كريستوفر» دخول المدينة والتزود منها فأناخ راحلته بالقرب من إحدى الحانات ودخل وصديقه «مانويل» فطلبا بعض الطعام.

- لم تخبرني ماذا وجدت في الصناديق؟

- لم أجد غير بعض الخرائط المنسوبة إلى الأمير «هنري» الملاح، فقد كان والد «فيليبا» يعمل معه، ولكنها ليست ككل الخرائط يا صديقي، فهي خرائط ذات دقة عالية، وجميعها كان قد استولى عليها «هنري» من الجغرافيين العرب.

وبينما هما جالسان إذ بفتاة تقترب من «كريستوفر» وتجلس إزاءه وقد أخذها بمنظره الجميل فحدقت النظر إليه لا تخفضه عنه، ومع مرور الوقت لاحظ «كريستوفر» ذلك وشعر بنشوة غريبة تتملكه وزادت ضربات قلبه فبادلها النظر والابتسامات، حتى إذا قرر «مانويل» النهوض والخروج من الحانة أشار له «كريستوفر» وقال: «دعنا نجلس قليلاً....».

- منذ قليل كنت تريد الخروج والآن تريد البقاء؟! فأخبرني يا رجل ما الأمر؟

- لا شيء ولكن أريد الشراب فقط.

- الشراب؟

ثم التفت إلى حيث ينظر «كريستوفر»، فوجد فتاة جميلة تداعب بنظراتها الحادة «كريستوفر»، فارتد ببصره صوبه وابتسم وقال: «لا بأس إن كان الشراب جميلاً هكذا».

رفع «كريستوفر» كأسه وشربها ثم نهض من مكانه وتقدم صوب الفتاة وجلس بجرأة أمامها وقال: «هل لي أن أجلس مع الجميلة؟».

امتلاً وجه الفتاة فرحاً وقالت: «بكل سرور».

- هل لي أن أعرف اسمك؟

- اسمي «بياتريس إنريك دي إرانا».

- اسم جميل لا تحمله سوى الأميرات، فهل أنت من قرطبة؟

- أجل، منها.

- لم أكن أعلم أن قرطبة بها كل هذه المغريات، وإلا لزرتها منذ زمن.
- ألسنت منها؟
- لا، فأنا من «جنوة».
- وما الذي حملك على المجيء إلى هنا؟
- تلك قصة طويلة، فإن لي أحلامًا لن تكون لتتحقق في «جنوة»... أحلامًا أكبر من «جنوة» ذاتها، أحلامًا ستبدل وجه التاريخ حال تحققها.
- معجبة بحديثه وفرط طموحه قالت «بياتريس»: «هل لي أن أعرف تلك الأحلام؟».
- تجاذب «كريستوفر» و«بياتريس» أطراف الحديث، وأعجبت «بياتريس» به وبأفكاره وتطلعاته، ووقعت هي أيضًا في قلب «كريستوفر» وخصوصًا وقد علم أنها ذات مال وذهب، وسألته عن الرضيع بيده فأخبرها أنه ابنه من زوجته المتوفاة ولم يخبرها بأي شيء عن «فيليبا» إلا عن وفائه لها!
- ومثلما وقعت «بياتريس» في قلبه فقد وقع هو كذلك في قلبها، واتفقا على اللقاء في هذا المكان غير مرة ومن دون وجود «مانويل»، ولذا فقد مكث «كريستوفر» في قرطبة عدة أيام أخرى، وفي النهاية قررت «بياتريس» ترك قرطبة والسفر مع عشيقها فترك لها مهمة حمل الطفل وتربيته، وتحرك الثلاثة من قرطبة حتى إذا اقتربوا من «إشبيلية» وكان التعب قد بلغ منهم ما بلغ، نزل «كريستوفر» من على صهوة جواده وقال: «لنبيت هنا الليلة ونستكمل رحلتنا غدًا فجرًا فقد بلغ مني التعب مبلغه».

نزلت «بياتريس» وكذا «مانويل» وافترش الجميع الأرض، وما إن وضع «كريستوفر» رأسه على الأرض لينام ويستريح، حتى جال بخاطره ما كان منذ خروجه من «جنوة» حتى وصوله إلى «لشبونة» وما حدث له فيها، وما كان من أمر الملك «جواو الثاني»، فاستخلص أن الملك «جواو» كان يبحث عن المال والتجارة، وأن طريق رأس الرجاء الصالح قد وُفي له بغرضه مما جعله يرفض عرض «كريستوفر»، ثم اعتدل من رقدته وقال: لهذا يجب أن أوضح للملكين الكاثوليكين أن وجود طريق للمشرق عبر الإبحار غربًا سيضيف لإنجازاتهم إنجازًا جديدًا، فمن جهة فهم لن يستخدموا طريق رأس الرجاء

الصالح المنتسب اكتشافه لمملكة البرتغال، ومن جهة أخرى سينافسون مملكة البرتغال في نشر الكاثوليكية بعيدًا عن أوروبا... أجل يا «كريستوفر» يجب أن نخاطب كل ملك حسب اهتماماته وتوجهاته، فإن أراد «فرناندو» منافسة البرتغال، فسوف أقدم له دليل المنافسة والسبق فيها.

ثم رفع «كريستوفر» رأسه إلى أعلى ونظر إلى السماء قبل أن يسترخي مرة أخرى وينام قليلاً، وقبيل الفجر استيقظ وأيقظ عشيقته و«مانويل»، وتحرك الثلاثة صوب «إشبيلية» حتى إذا اقترب منها علموا أن الملوك الكاثوليك قد دخلوا «غرناطة»، وأنهم هناك يحتفلون بسقوطها بين أيديهم، فخرجوا صوب «غرناطة»، وما إن اقتربوا منها حتى سمعوا دقات الأجراس في كل مكان على الرغم من أنه ليس يوم الأحد!

فمرة تأتي الأجراس من اليمين ومرات من الشمال، ومجموعات كبيرة من القشتاليين يرددون نشيد الحمد والنصر على المسلمين وهو يتسابقون هنا وهناك ويحتفلون ويرددون الأغاني ويشربون الخمر.

وعلى أبواب غرناطة نظر «كريستوفر» إلى الفضاء حوله وإلى قصور الحمراء فوق التل وقال: «يجب أن نرتب أوراقنا قبل الدخول إلى الملوك الكاثوليك لهذا سننزل في تلك المدينة الجديدة (سانتافي)، خاصة وأنها فرغت من سكانها تقريباً بعد سقوط غرناطة، ولن نعجز عن إيجاد موضع قدم وسكن فيها».

«مانويل»: «لم لا نلتقيهم فوراً؟».

«بياتريس»: «لا غرو إنهم منشغلون الآن بتسلم قصور المدينة وخزائنها».

«كريستوفر»: «وأيضاً لا أريد أن ندخل «غرناطة» قبل أن يحل السلم كاملاً فيها، فلا ندري هل ينتفض المسلمون فيها أم يركنوا إلى الدعة فلنترث قليلاً قبل أن نلتقيهم».

\*\*\*

## (4)

حاول «لُذريق» أن يتغلب على أحزانه ولكن دون جدوى، فقد كان الألم أكبر من التغلب عليه وصرخات والده تطارده في كل مكان، تلك الصرخات التي كانت تحت لهيب النيران المشتعلة..... لكم قاسى المظلومون من هول ما رأوا، ومن ذلك الجحيم الذي أُرغموا على دخوله لا لشيء إلا لأنهم اعتنقوا ديناً غير دين الكاثوليك، وبينما هو في أحزانه إذ طرق عليه الباب طارق، تحرك «لُذريق» وكان وجهه شاحباً وجسده قد نحل من أثر ما مرَّ به، حتى إذا فتح الباب وجد أستاذه «المدوري» أمامه.. مرت لحظات صمت بينهما، فلا «المدوري» ألقى السلام ولا «لُذريق» أشار مرحباً، وبعد تلك اللحظات انهار «لُذريق» واحتضن أستاذه بقوة والدموع تنسال من عينيه.

ربت «المدوري» على كتف «لُذريق» وقال: «حنانك يا بني... رحم الله أباك فقد مات شهيداً».

كفكف «لُذريق» دموعه كطفل صغير ثم قال: «تفضل يا عمي».

دخل الاثنان إلى الدار وجلسا على الأريكة بعد أن أغلق «لُذريق» الباب.

نظر «المدوري» إلى «لُذريق» وقال: «لماذا لم تأتِ اليوم إلى الكنيسة يا ولدي؟».

بأعين باكية قال «لُذريق»: «كيف لي أن آتي وأنظر إلى هؤلاء الذين أحرقوا أبي لأسمعهم يقولون الله محبة؟! كيف لي أن أصدق زيفهم هذا، أو حتى أطيق النظر إليهم، أيُّ هراء هذا وأيُّ عذاب أنا فيه».

- لا تأتي كي تسمعهم أو تنظر إليهم، ولكن لتقي نفسك من مصير قد يلاحقك، فما زال هؤلاء يا بني يبحثون عمَّن يتخلف عن موعد الكنيسة يقتلونه لعدم زهابه.

وقف «لُذريق» وتحرك قليلاً للأمام، وقال: «لو أنني رجلٌ حقاً لأشهرت السيف وقتلت منهم مقتلة عظيمة فما الحياة وقد اندثرت أحلامنا وكُبتت حرياتنا وأزهقت أرواح من نحب.....».

- لا تنس وصية أبيك يا بني.

باكيًا: «رحم الله أبي، فقد كان حريصًا عليَّ حيًّا وميتًا، فلولا تلك الوصية التي قيدتني لما نمت عن ثأره وقتل من قتله.

- وفي ذهابك إلى الكنيسة حفظًا لنفسك ومالك وتنفيذًا لوصية أبيك.
- لا أطيق ذلك يا سيدي.

وقف «المدوري» واقترب من «لذريق» ووضع يده على كتفه وقال: «بل ستفعل، وتذكّر أنني أبوك بعد أبيك... تذكّر يا ولدي أن حياتك التي تراها بلا قيمة هي أغلى ما أوصاك أبوك رحمة الله عليه، فلا تيأس ولا تُلِقْ بنفسك في التهلكة، ولا تجعل لهؤلاء المجرمين عليك سبيلًا، بل يكفي أن تعيش مسلمًا رغمًا عنهم، سواء أكتب الله لك الخروج من هنا فتعيش مسلمًا في الظاهر والباطن أم تبقى فتحيا مسلمًا وإن أظهرت العكس، وإيّاك يا ولدي أن تعطي لعدوك ما يريد فتنهزم مرتين وينتصروا...».

قال ذلك وتحرك صوب الباب، وما إن وضع يده على المفتاح يديره حتى قال «لذريق»: «لماذا يفعلون ذلك؟».

نظر المدوري إلى الخلف وقال: «يفعلون ماذا؟».

- لماذا يقتلوننا بغير ذنب اقترفناه؟

- من أجل الأموال يا بني، فمن يقتلونه يصادرون أمواله وهم عبيد للأموال. ثم فتح الباب وخرج لتبدل كلماته قليلًا من «لذريق» الذي علم أن لحياته ثمنًا، ولوجوده في هذه الدنيا هدفًا يجب أن يصل إليه، فليس من الطبيعي أن يحيا بيأس ويعيش ليموت، بل يجب أن يكون لحياته غاية يصل لها وأي غاية هذه إلا تنفيذ وصية الأب والحياة كمسلم بكل حرية بعيدًا عن تعصب الكاثوليك وظلمهم وقهرهم.

وفي اليوم التالي خرج «لذريق» من بيته منحرفًا عن هذا الميدان الذي أحرق فيه أبوه، واتجه مباشرة صوب نهر الوادي الكبير، وما إن وصل حتى راح ينظر هنا وهناك وكأنه يبحث عن شيء بعينه أو شخص ما، فكانت عيناه تراقب كل شيء في النهر، كل سفينة وكل ربّان عليها وكل سارية ترفرف فوقها، وبعد وقت قصير تحرك صوب بعض من ربان السفن، وراح يسأل الواحد تلو الآخر: أين أجد «مارتين آلونسو بينسون»؟ حتى قال له أحدهم:

هو ذاك مَنْ تبحث عنه، وأشار له إلى شاب طويل القامة قوي البنية مفتول العضلات ذي شارب عظيم وملامح قاسية، فما إن رآه «لُذريق» حتى انقبض قلبه، إذ إن هناك بعضَ البشر لا نشعر بالراحة للنظرة الأولى لهم، ثم بعدها إمَّا أن نعرف أننا أخطأنا في حقهم، وإمَّا يتأكد الأمر لنا ويكونون بالفعل غير مطمئنين لنا، وبعد تردد تقدم «لُذريق» صوب مارتين وما إن وصل إليه حتى رمقه الأخير بنظرات قوية وقال: «لماذا تنظر إليَّ هكذا، هل تريد شيئاً مني؟».

- اسمي «لُذريق الطرياني».

ثم أخرج رسالة من طيات ثيابه وأعطاهما لمارتين الذي ما إن قرأ الرسالة حتى تبدلت ملامحه وذهبت غلظته وابتسم بعد تجهم وقال: «أهلاً بك ومرحباً، فسفينتي رهن أمرك»، ثم أشار إلى السفينة الرابضة في الميناء.

نظر «لُذريق» إلى السفينة بشغف ورهبة في آنٍ واحد وقال: «كم هي عظيمة وقوية!».

- ليس في «قشالة» كلها سفينة بقوتها ومتانتها، إنها بطول عشرين مترًا ويصل عرضها إلى سبعة أمتار ونصف المتر، وتحتاج إلى تسييرها إلى خمسة وستين بحارًا غيري أنا، فهي قادرة على تحدي البحار والخوض في غمارها، أنا لم أئبها للوادي الكبير فقط يا «لُذريق»، ولكن لتجوب العالم وتصل إلى طريق رأس العواصف هذا الذي اكتشفه ملك البرتغال.

تنهد «لُذريق» وتخيل نفسه وهو يطوف العالم على متن تلك السفينة العظيمة وقال: «يا له من حلم جميل ورائع! ولكن لماذا لا تقول كما يقولون «رأس الرجاء الصالح»».

وضع «مارتين» يده على كتف «لُذريق» وتحرك صوب السفينة فركبها الاثنان، وكانت خالية إلا منهما، فقعدا على مقاعد موجودة فيها، ثم نظر «مارتين» إلى صاحبه وقال: «لقد علمت أنك مسلم وأنت من أسرة مسلمة مثلي، فكيف تقول ما يقول هؤلاء؟».

ارتبك «لُذريق» وقال: «أي كلام تقصد؟».

- أن تقول رأس الرجاء الصالح.

- أليس هذا هو اسم الطريق الجديد الذي اختاره ملك البرتغال؟
- أن يختاره ملك البرتغال هذا لا يعني أن نقول قوله، أو نقله أو نسير على خطاه، إذ يجب عليك دومًا ألا تتبع أعداءك في أي أمر، فهم إنما يقودونك إلى مجدهم وسقوطك إلى عزهم وذلك، فهذا الاسم تحديدًا إنما يعني أن الطريق صالح لتطويق العالم الإسلامي، والوصول إلى قلبه في مكة المكرمة، أما نحن يا صديقي فيجب علينا أن نرفض هذا ونقول رأس الشيطان أو العواصف التي ستعصف بهم إن شاء الله، ولكن هذا بيني وبينك وتذكر إن أحدًا علم بإسلامك لن تبقى يومًا، فديوان محاكم التحقيق لن يتركك تحيا بعدها، فحذارٍ وانتبه، فالموت هنا يتخطف من لا يحفظ لسانه.
- هزَّ «لذريق» رأسه مؤمنًا على كلام «مارتين»، ثم قال: «والآن هل ستصطحبني معك في رحلتك القادمة، فقد مللت «إشبيلية»».

- ربما بعد القادمة يا صديقي، فهذه إنما أبحر بها تجاه «بنبلونة» في أقصى الشمال، ولا أريد أن تكون أولى رحلاتك معي إلى أقاصي بلادهم أو بلادنا التي سلبونا إياها، فانتظر حتى أعود وأعدك أن تكون معي في جميع رحلاتي القادمة، ومن يدري! فلعلها تكون رحلة للخروج من هذا الجحيم المطبق.

\*\*\*

## (5)

انقضت الأيام بطيئة في «سنتافي» و«كريستوفر» يتابع من كتب ما يجري حوله، فكان يخرج من داره المتواضعة التي استأجرها ليتابع ما يجري حوله، حتى علم بخروج معظم المسلمين من المدينة أو استسلامهم وسيطرة القشتاليين عليهم، ونزول الملوك الكاثوليك في قصر الحمراء العظيم في حراسة مشددة وانتشار رائع للجيش القشتالي، وقتها قرر «كريستوفر» التواصل مع الملكين الكاثوليكين، فدخل على «بياتريس» وكانت منشغلة

بتحضير الطعام، بينما الطفل «دييجو» يبكي فتجاهل «كريستوفر» بكاء الطفل، وتحول إلى «بياتريس» فأخذ منها برتقالة كانت بيدها وقال لها: «لقد آن الموعد فقد علمت وتأكدت من سيطرة الملوك الكاثوليك على المدينة، فلا خوف علينا من المسلمين وقد خبت ثورتهم وانتهت دولتهم».

- فماذا أنت فاعل؟

أمسك «كريستوفر» بسكينة كانت موجودة وقطع ثمرة البرتقال ثم أكلها، وقال: «سأخرج اليوم وأتجه إلى الحمراء وأطلب لقاء الملكين».

- بهذه السهولة...! وتظن أنهم سيلقونك؟

- لقد علمت أن الوفود ما زالت تترى عليهم تقدم لهم التبريكات ولا يمنعون أحداً، فأردت أن أنتهز تلك الفرصة وأعرض عليهم مطلبى.

- لا بأس بالمحاولة يا حبيبي، ومن يدري فلعلك تلقاهم ويتم لك ما تريد.

هز «كريستوفر» رأسه وجمع خرائطه وأوراقه وخرج من بيته معرجاً على صديقه «مانويل» وتحرك الاثنان بخيلهما، حتى وصلا إلى أسوار الحمراء وكانت الصلبان ترتفع فوق أبراجه والحراس يلفونه من كل جهة وصوب.

سحب «كريستوفر» رسن جواده وتوقف على مقربة من أحد أبواب قصر الحمراء وهو مشدوهاً مما يرى فنظر إليه «مانويل» وقال: «ما بك يا رجل؟».

- بل ما هذا! إنها قلعة حصينة وروضة جميلة لم يفلح أهلها في الدفاع عنها.

- إني لأعجب كيف لقوم شيدوا تلك الصروح أن يتركوها!؟

- لم يتركوها رغبة بل رهبةً وخوفاً.

- كان الأجدر بهم أن يموتوا تحت أسوارها.

- صدقت، والآن ترى كيف هي تلك القصور من الداخل؟

- يعجز الخيال عن التصور، ولكن لن يمر وقت قصير حتى نعاينها.

ثم نزل الاثنان من على صهوة جواديهما وربطاهما في حجر وتقدما

صوب الحراس الذين ابتدروهما قائلين: «ماذا تريدان؟».



- أنا «كريستوفر كولومبس» بحّار من «جنوة»، وهذا صديقي «مانويل» نريد عرض أمر على جلالة الملكين الكاثوليكين.  
نظر الحارس إلى «كريستوفر» فاستحقره ونهره قائلاً: «وهل كل من أراد لقاء الملكين يلتقيهما؟! اذهبا من هنا لا وقت لدي أضيعة معكما».

- لكن....

- إن لم تذهبا سألقي بكما في السجن.

انسحب «كريستوفر» وصديقه «مانويل» وعادا خائبين إلى «سانتافي»، وما إن دخل «كريستوفر» حتى ابتدرته «بياتريس» قائلة: «ماذا حدث هل التقيت الملك؟».

جلس «كريستوفر» على أريكته وقال: «لم يسمح لنا بالدخول معللين أن الوفود ما زالت تترى عليهما تبايعهما بالملك، وأن كثيرًا من نبلاء المسلمين قد دخلوا في خدمة الملك أو تنصروا وهو مهتم لذلك».

- إن كنت لن تستطيع لقاءهم فلم لا تكتب لهما كتابًا تشرح لهما فيه مآربك؟

- وتظنينهم يهتمان لذلك أقصد لرسالتي؟

- لن تخسر شيئًا على كل حال، فهذا أفضل من انتظارك أيام أخرى، ولعل الرسالة تكون أسرع في الوصول إليهما.

فكر «كريستوفر» في الأمر قليلاً ثم حزم أمره، وكتب إلى الملكين يقول: (أعلم أن جلالتم تحابون المحمديين منذ قرون حتى استطعتم بفضل الرب في طردهم من غرناطة وكل إيبيرية وكان هذا نصرًا عليهم عظيمًا، ولكن تظل التجارة مرتبطة ببلادهم يا سيدي، كما أعلم أنكم ستأنفون استخدام الطريق المكتشف حديثاً «طريق رأس الرجاء الصالح» وذلك لأنه اكتشف برتغالي، وحيث إن مملكة قشتالة متحدة مع أراجون هي أعظم ممالك الأرض، فحق لها أن يكون لها طرقها الخاصة، وقد توصلت إلى طريق جديد يصل الشرق بالغرب لم يمر به أحد من قبل، إذ يمكن للمُبحر غربًا أن يصل الشرق، عملاً بكروية الأرض... أنا أعرف أن وجود مثل هذا الطريق هو برهان حقيقي على كروية الأرض ولسهولة برهان هذه النظرية، قررت افتتاح هذا الطريق البحري

الجديد، وسأرسل إلى جلالتك الخريطة من اكتشافي الخاص، سيكون موجود عليها ميناءكم وجزركم، موضعًا عليها وجهة الإبحار نحو الغرب، والأماكن التي سأكتشفها في أثناء الرحلة، وأيضًا أبعد نقطة يمكن الوصول إليها سواء من القطب أم من خط الاستواء، والمسافات التي ستعبرونها للوصول إلى البلدان التي قد تحصدون منها الكنوز والذهب، لا تتفاجؤوا إذا قلت إن بلاد الغرب بلاد الكنوز كما أنهم وكالعادة يسموننا الشرق، حيث إن من أبحر باستمرار اتجاه الغرب قد وصل إلى بلاد الشرق عبر المحيط إلى النصف الثاني من الكرة الأرضية، ولكن إذا أرسلتم مكتشفين عبر اليابسة انطلاقًا من نصف الكرة الأرضية التي أنتم فيها فإننا نجد أن تلك البلاد التي تم الوصول إليها ما هي إلا الشرق...).

كانت أحوال «غرناطة» قد استقرت وقتها تحت حكم الملوك الكاثوليك، ولأن غرناطة لم تكن آخر المطاف ولأنهم كانوا ينافسون البرتغال التي تجاوزت أوروبا وأخذت «سبته» منذ عقود، فقد جال بخاطر الملكين الكاثوليكين أن يمد نفوذهما خارج شبه الجزيرة، لهذا رحبا برسالة «كريستوفر» وقررا لقاءه، فكاد «كريستوفر» أن يطير فرحًا بهذا واجتمع مع «بياتريس» التي كانت علامات الحمل قد ظهرت عليها فزاد وزنها وضعفت حركتها وتباطأت خطواتها ومساعدته «مانويل» ليقرروا ماذا سيحدث، فقدم له «مانويل» كل الخرائط اللازمة للرحلة وقال له: «حاول أن تستفيد من منافسة «قشتالة» للبرتغال في هذا الأمر وعلى كراهية الملوك الكاثوليك للمسلمين».

ارتدى «كريستوفر» أفضل ما لديه، ووضع صليبيًا كبيرًا على صدره، وتحرك حاملًا خرائطه واتجه بها صوب الحمراء وهو يرتب أفكاره ويستجمع معلوماته، حتى إذا وصل إلى باب القصر أوقفه الحراس فترجّل عن فرسه وقال لهم: «لي موعد مع جلالة الملك».

أوقفه الحراس داخل أحد أفنية القصر حتى يستأذنوا له، فوقف مشدوهمًا يشاهد قصور الحمراء وهو لا يكاد يصدق حتى ظن نفسه أنه مات ودخل الجنة، وهو يقول هل لإنسان كان أن يشيد مثل هذا البناء! فاستغرق في النظر وأخذ المشهد فلم يدر بالوقت حتى عاد له الحارس وهو يقول: «لقد أذنت لك جلالة الملكة بالمثل بين يديها ويد الملك».

ثم تقدم الحارس وخلفه «كريستوفر» الذي كاد أن يتعثّر وهو ينظر إلى الجدران من حوله حتى إذا وصل قاعة العرش انحنى بقوة ثم رفع رأسه وقال: «الشكر للرب على نعمائه، والشكر للملكين الكاثوليكين على استعادة تلك الأرض الطاهرة وعلى طرد هؤلاء الكفرة من هنا».

ابتسم الملكان الكاثوليكيان ثم أشار «فرناندو» له وقال: «أعرض علينا خطتك».

فتح «كريستوفر» خريطة معه وقال: «هذه الخريطة يا سيدي توضح كل شيء».

ثم وضعها على مائدة أمامه وقال: «هناك نظرية تقول إن المُبجر من شواطئ إسبانيا غربًا سيصل إلى الشرق، وهناك نظرية أخرى تتحدث عن كروية الأرض، ما يعني إننا إن أبحرنا غربًا سنصل قطعًا إلى الشرق».

- تريد الإبحار في بحر الظلمات؟

- أجل يا سيدي.

- وماذا عن القول المقدس الذي يقول: «على الإنسان ألا يُغضب القدرة الإلهية بسعيه إلى سبر غور الأعماق المجهولة في المحيط».

- سيدي لو سمعها «دياز» ما اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح، ولو سمعها «خشخاش بن سعيد» ما عاد من هناك! وإني لأقسم لكما يا سيدي أن أضمّ كل الأراضي التي سأدخلها إلى تاجكم ومملكتم المقدسة، وإني لأخشى يا سيدي إن تأخرتم في إرسالتي إلى هناك أن يكمل «دياز» رحلته ويقود سفنه مخترقًا بحر الظلمات فلا نكون قد فعلنا شيئًا، وأنتم يا سيدي أقوى ملوك الأرض الآن، فمن غيركم يستطيع قهر الأقبانوس إن لم تفعلوها؟

هز «فرناندو» رأسه طربًا، بينما التزمت «إيزابيلا» الصمت هنيهة من الوقت، وكأنها تتدبر الأمر ثم قالت: «وماذا تريد لتقوم بتلك الرحلة وماذا سيعود علينا من خلفها؟».

انفجرت أسارير «كريستوفر» وقال في حماسة واضحة: «أما العائد عليكم يا سيدتي فكثير، إذ ستنافس مملكتي «أراجون» و«قشتالة» مملكة البرتغال

في عالم البحار، ناهيك بتحويل تجارتنا بعيدًا عن بلاد المحمديين، هذا غير نشر الكاثوليكية في تلك الأنحاء من الأرض، وتوسيع ملك الملوك الكاثوليك إذ سنضم تلك الأراضي إلى كنف المملكة، أما ما أحججه فهو أن تمدوني بمستلزمات الرحلة، وأكون أميرًا على الأراضي التي سأضمها للملكة، ويضاف إلى ذلك أنه سيكون لي 10% من الذهب والبضائع التي سأحضرها معي من دون أي ضرائب».

«فرناندو»: «ذهب وبضائع؟! أنت لا تضمن العودة سالمًا فكيف تتحدث عن بضائع وذهب؟».

- ثِقُ بي سيدي.

- للثقة أدلتها فكيف وثقت أنت من نجاحك هذا؟

- إن كان أميرًا عربيًا واحدًا هو «خشخاش بن سعيد» قد نجح في العودة من هناك سالمًا وببضائع هائلة، فكيف لا تنجح سفينة عليها أعلام الملوك الكاثوليك يا سيدي؟ على أن رحلة «خشخاش بن سعيد» هذا كانت غير رسمية، فلم يكلفه بها بلاط «قرطبة» وقتها ولهذا ذهبت هباءً وأدراج الرياح فلم يستفد منها أحد، ولم يستغل نجاحها أحد، أما رحلتي فمختلفة ونتائجها كذلك، بل ستمحو رحلتي كل رحلة قبلها وسيخلد التاريخ ذلك للملوك الكاثوليك أعظم ملوك الأرض، وهذا كتاب المسعودي يا مولاي وبه ما كان من أمر «خشخاش بن سعيد» هذا. ثم تقدّم ووضع الكتاب بين يدي «فرناندو».

«فرناندو»: «دعنا نترؤى في الأمر»

قالها ثم أشاح بوجهه عنه، فانحنى «كريستوفر» محيياً الملكين الكاثوليكين، وخرج وهو لا يدري هل سيوافق الملكان أم لا؟

عاد «كريستوفر» لبيته في «سانتافي» بوجه غير الذي خرج به، فقد غلبت عليه الحيرة والصمت فتراه مرة حزيناً وأخرى سعيداً. وشرد ذهنه وما عاد يعلم ماذا يقول، وفور دخوله بيته أخرج خرائطه وراح يتفحصها بلهفة كبيرة وكأنه يريد أن يتأكد من حقيقة معلوماته، وتخيل كيف سينظر إليها الملوك الكاثوليك، وكيف سيعلقون على تلك المعلومات التي قالها لهم، وهل سيحققون له حلمه «أن يكون ذا مال وجاه وأن يجد طريقاً بحرياً غير

طريق الحرير، طريقًا لا يمر ببلاد المحمديين»، وبينما هو كذلك إذ أقبلت عليه «بياتريس» وقالت: «هل وافقا على خططك؟».

قالتها ثم جلست بجواره فنظر إليها وقال متنهّدًا: «لا أدري، ولكن لا بدّ أنهما سيفعلان فقد قرأت هذا في أعين الملكة، أما الملك فقد أثر التريث والتفكير قليلًا».

- هذا يعني أنهما أقرب إلى القبول من الرفض.

حك «كريستوفر» في رأسه وقال: «أظن ذلك، بل ربما أُجزم به، فلولا أن الأمر قد لاقى قبولًا لديهما ما طلبا بعض الوقت».

- هل ذكرت لهما منافع الطريق التي تنتوي السير فيه؟

- لقد أخذت بنصيحتك واستغللت كراهيتهما للمسلمين وصراعهما مع مملكة البرتغال، فكان ما كان فإن هما لم يوافقا لصحة رأيي فأعتقد أنهما سيفعلان كراهية للمسلمين ومناقسة لملوك البرتغال في هذا الشأن.

\*\*\*

## (6)

كان «لذريق» يجلس على ضفة نهر الوادي الكبير في إشبيلية، وقد عقد ذراعيه حول ركبتيه وهو ينظر إلى صفحة النهر الخالد، وإلى السفن المحملة بالبضائع المارة فيه، وهو يقول في نفسه: متى أركب تلك المياه وأخرج من هنا، ثم نظر إلى قرص الشمس الظاهر في الأفق فإذا بأجراس كنيسة إشبيلية العظمى تدق بقوة فنظر إلى المنارة وتنهد قائلاً: «منارات تتحول إلى أبراج للأجراس، ومسلمون متخفون يخشون ظهور إسلامهم، وملوك لا شغل لهم غير قتل المسلمين ومطاردتهم فأبي حياة تلك!».

ثم أمسك بحجر صغير وقذفه إلى النهر بقوة وقال: «لقد ضقت ذرعًا بإشبيلية ومن فيها بل ربما بكل الأندلس، وما الفرق بين إشبيلية وقرطبة وغرناطة وكلها غدت للكاثوليكية عنوانًا ومقصدًا وللمسلمين مقبرة؟»

ثم جال ببصره صوب برج الذهب وقال: «أه يا جارة الوادي! لم أك أتخيل أن يأتي يومٌ أشعر فيه أنك سجن كبير ضيق الجدران!». ثم وضع رأسه بين يديه ودخل في سكون وصمت كبير، ومرَّ الوقت وهو على حاله حتى إذا قاربت الشمس على الغروب لاحظ دخول سفينة «مارتين» الميناء فنظر إليها فإذا بصديقه «مارتين» ينزل منها إلى الشاطئ فنهض «لذريق» وتحرك صوب صاحبه وفتح ذراعيه وقال: «مارتين ألونسو بينسون»، ثم احتضنه بقوة وتبادل الاثنان المصافحة.

نظر «ألونسو» إلى الفضاء الممتد حول النهر وقال: «أنا هنا من أجلك يا صديقي»، ثم تحرك الاثنان حتى استندا إلى جذع نخلة فقال «مارتين» مستطردًا: «لم تعد تلك الديار ديارنا منذ أن خلت من الإسلام، وصار لزامًا علينا أن نخفي كل ما نؤمن به، وكيف الحياة عندما يفقد الرجل منّا حريته ويصير ظاهره غير باطنه؟!

أرسل «لذريق» زفرة حارة وقال: «صدقت يا «مارتين» فما قيمة الحياة إن لم نحياها كما نحب! وما قيمة الفضاء الممتد إن صار سجنًا لنا يكبت حريتنا أو تحرق فيه أنفسنا، والآن أخبرني كيف كانت رحلتك؟ لقد انقضت عدة أسابيع وأنت غائب عن «إشبيلية» حتى ظننت أنك لن تعود فكنت أقول في نفسي هل اتخذته صديقًا ليخرج ولا يعود! فكأن شيئًا لم يحدث وأين هي وصية «المدوري» لك بأن تجعلني أعمل معك؟».

- «المدوري»! كم أفتقد هذا الرجل!

- هل ستذهب إلى زيارته؟

- لا وقت لديّ، إذ يجب عليّ الإبحار اليوم، ولولاك ما أتيت إلى هنا. ثم تحرك خطوات للأمام، وقال: «ستخرج معي هذه المرة».

- لقد تبدّل الحال يا «مارتين» فلن أترك «إشبيلية» إلا لأخرج من كل الأندلس، فلا فرق عندي بين «قرطبة» و«إشبيلية» و«غرناطة» و«طليطلة»، فأينما ذهب ستجد نيرانًا تحرق المسلمين ومحاكم تحقيق تتلقفهم.

- ولهذا أنا هنا فهذه المرة سنخرج من كل الأندلس.

- وهل ستستطيع؟
- أجل، فهذه المرة ستكون رحلتنا بإرادة الملوك الكاثوليك وأمرهم، ثم نظر إلى الشمس الغاربة وقال: «سنبحر صوب غروب الشمس في مغامرة لن أقوم بها وحدي».
- بحر الظلمات؟
- أجل مغامرة في بحر الظلمات ننتهي منها إلى بلاد الهند وهناك سنعيش كما ولدنا مسلمين يا صاحبي.
- بلاد الهند!
- أجل يا «لُذريق»، فهل أنت مستعد للمغامرة؟
- أنا دائماً مستعد للرحيل إلى بلاد أعيش فيها كما أشاء، بلاد لا يكون فيها لمحاكم التفتيش مكان، بلاد لا أرى فيها رهبان مجرمين يحرقون الناس على إيمانهم ويتقربون إلى الله بقتلهم.
- إذًا لتجهز وأنتظر هنا عند الفجر.

\*\*\*

## (7)

- لم يكد نور الشمس يسطع من خلف الجبال العالية ليبيد ظلام ليل طويل من ليالي أكتوبر الثقيلة حتى كان «لُذريق الطرياني» وصديقه «مارتين ألونسو بينسون» يتفقدان الميناء المطل على «بحر الظلمات» ونفوسهم تتوق إلى الوصول إلى الشاطئ الآخر منه.
- نظر «لُذريق» إلى صاحبه وقال: «تُرى ماذا يكمن خلف هذه الأمواج المتلاطمة والمياه التي لا نهاية لها؟».
- سنصل حتمًا إلى اليابسة، فلا شيء في هذه الدنيا يدوم إلى ما لا نهاية، فكل أول وله آخر حتى هذه المياه المخيفة أمامنا.

- إنها ظلمات بعضها فوق بعض، ثم تنهد وأخذ نفسًا عميقًا وقال: «ولكنها لن تكون أظلم من حياة الأندلسيين بعد سقوط دولتهم».
- حتى يأسك هذا يا صديقي له نهاية، ثم ضحك وفي تلك الأثناء سُمعت أصوات الأجراس تدق من كل صوب وحذب ففزع «لذريق» وقال: «لم يتركوا فيها مسجدًا واحدًا، فلم تمضِ عشرة أشهر إلا وحولت كل المساجد إلى كنائس، وقبلها مساجد «إشبيلية» و«طليطلة» و«قرطبة»، فكأن الدنيا ضاقت عليهم فلم يجدوا لكنائسهم إلا أحجار مساجدنا!
- صه، لا يسمعك أحد تقول مثل هذا، فما زلنا في بلاد الأندلس وتحت حكم ملوكها وحتى بعد أن نقلع من هنا سيكونون معنا فلا تتعجل منيتك يا رجل.
- لم يعد أمامنا إلا الصمت أو الموت؟
- فلتصمت إذًا.

وبالقرب من مارتين و«لذريق» كان «كريستوفر كولومبس» يتابع من كذب تجهيز السفن الثلاث ومعه مساعده «مانويل» وهو يعطي النصائح وقد ارتدى ثيابًا جميلة، وبدأ يتصرف كأmir على القوم، فقال: «أكثروا من الحبوب الجافة، والتمور الجافة، وكذا الماء العذب والخبز المجفف والشعير».

«مانويل»: «لقد حملت السفن بكثير من الطعام والشراب ما يكفي لأيام طويلة».

بصوت خافض قال «كريستوفر»: «لا ندري كم يوم سنمكث في هذا البحر المظلم».

«مانويل»: «ألم تقل إننا سنصل خلال بضع أيام؟!».

- هذه حسابات الورق وهي تختلف عن حسابات الأرض والبحر وعوامل الطبيعة، لذا يجب أن نحمل ما يزيد على حاجتنا وتقديرنا، ثم رفع بصره فإذا بعشيقته «بياتريس» تقترب من الميناء وهي تتحرك بخطوات بطيئة... خفض «كريستوفر» حاجبه ودقق النظر وقال: «بياتريس!».



التفت «مانويل» وقال: «أجل هي، فكيف استطاعت أن تسير كل هذه المسافة وهي بحالتها التي أعرف؟».

تحرك «كريستوفر» صوب «بياتريس» فأمسك بيدها ثم احتضنها وكانت قد أثقلها الحمل فقال لها: «لماذا تعينتي القدوم إلى هنا وأنت في شهرك الأخير؟».

- ما استطعت وما كان الأمر بيدي، وقد كان لزامًا عليّ أن أودعك في آخر نقطة من نقاط الأرض هنا.

- لولا حملك وخشيتي عليك لاصطحبتك معي كما اصطحبتك من قبل من «قرطبة» إلى «غرناطة»، ولكنه الخوف عليك وعلى جنينك.

- يكفي أنني على يقين بأنك لن تنساني في سفرك وغربتك عني.

- بل سأبحر وأترك قلبي معك فاحفظيه لي، واحفظي نفسك فأنتِ نفسي، ثم قبّل يدها.

وضعت «بياتريس» يدها على بطنها وقالت: «وماذا عن صغيرنا؟».

- إن كان ولد فأسميه «فرناندو»، ليكون على اسم صاحب «قشتالة».

- وإن كانت فتاة؟!

- سيكون اسمها «بياتريس» فهو أحب الأسماء إلى قلبي.

ثم أمسك بيديها الاثنتين وتبادلا النظرات، ومن ثم قال لها: «والآن عودي من حيث أتيت، فأنا لا أطيق ألم الفراق والوداع».

تحركت «بياتريس» خارجة من الميناء بينما التزم «كريستوفر» الصمت للحظات بعد أن شعر بغصة ألم الفراق في حلقه، وكان «مانويل» يتابع ذلك فاقتراب منه وربت على كتفه وقال: «لا تخشّ عليها، فإنما هي جزء منك، وهي بعد تعيش في مكان آمن ولن تستطيع حملها وهي في هذه الحالة، فالأفضل لها البقاء في غرناطة حتى عودتك».

هز «كريستوفر» رأسه ثم تحرك ليتابع سير عملية التجهيز وكانت قاربت على الانتهاء، فجهزت ثلاث سفن مختلفة الأحجام هي:

السفينة الأولى: سفينة القيادة «سانتا ماريا» وهي من نوع كارافيل، الجزء الغاطس من السفينة: 2.8 م، الإزاحة الكلية: 227 طنًا، عدد الطاقم: 84 بحارًا، كانت هذه السفينة بقيادة الأدميرال «كريستوفر».

السفينة الثانية: «بينتا» وهي من نوع كارافيل. الطول- 20.1 م، العرض: 7.3 م، الغاطس: 2.0 م، الإزاحة: 168.4 طن، الطاقم: 65. القبطان والمالك «مارتين ألونسو بينسون»، وعلى هذه السفينة كان «لذريق الطرياني» الذي فضل أن يبقى بجوار صاحبه.

السفينة الثالثة: «سانتا كلارا» الطول: 17.3 م، العرض: 5.6 م، الغاطس: 1.9 م، الإزاحة: 101.2 طن، الطاقم: 40 بحارًا. القبطان «فيسنتي يانيس بينسون» ومالك السفينة «خوان نينيه».

اكتملت التجهيزات، ووقف «كريستوفر» على شاطئ بحر الظلمات ينظر إلى الغرب، بينما صوت الأمواج يضرب هنا وهناك فتتطاير المياه المالحة لترسم مع أشعة الشمس لوحةً لقوس قزح جميلة نظر إليها «كريستوفر» وأخذ نفسًا عميقًا وهو مبتهج النفس، فقد كان يعلم أن نجاحه سيكسبه الثروة والشهرة ونفوذًا ظل كثيرًا يحلم به، ثم تذكر آخر كلمات قالتها له «إيزابيلا» بعد أن وافقت على رحلته: «عد لنا بمفاتيح الشرق وطريق جديد يغنينا عن طريق الحرير الذي يسيطر عليه العثمانيون، وطريق رأس الرجاء الصالح الذي اكتشفه البرتغاليون».

فردد في نفسه وقال: حتمًا سيحدث أيتها الملكة العظيمة وسيكون «كريستوفر» هو مفتاح التاريخ ومبدد ظلام هذا البحر المحيط.

وقبيل مغرب الشمس انطلق «كريستوفر» وسفنه الثلاث وهو يفكر في حلمه، حتى إذا أرخت السفن أشرعتها وبدأت تصارع الموج كان «كريستوفر» ينظر إلى مغرب الشمس وهو يشعر أن أحلامه بدت حقيقة وواقعا يسير نحوه، أما بحارته فقد ظهر الاستبشار على وجوههم خصوصًا هؤلاء الحالمون بالثراء السريع وذهب الشرق الكثير.

وعلى ظهر السفينة «بينتا» وفي أحد جوانبها كان «لذريق» يراقب أمواج البحر وهو ينظر إلى الخلف، حيث «الأندلس الغاربة» عن وجهه، وكأنه يودعها ويودع فيها طفولته وذكرياته حتى إذا اختفت اليابسة عن ناظره قال

في نفسه: غربت الأندلس عن ناظري وكانت قد غربت منذ شهور عن الدنيا عندما تحولت إلى «قشتالة» فما هي تختفى من أمامي وكانت من قبل عاصمة الدنيا وجنة الأرض، ثم التزم الصمت والهدوء حتى إذا مرَّ الوقت اقترب منه صديقه ربَّان السفينة «مارتين» وقال وهو يتنفس عباب المحيط: «لقد اختفت اليابسة يا «لذريق» فألى ماذا تنظر؟! لقد تشابه الفأث مع القادم فما عدنا نبصر غير الماء!».

- إلى «إشبيلية» ونهرها وسمائها وترابها، إلى أزقتها وحواريها، إلى أيام الصبا وما كان فيها.

- انس كل هذا وتذكر ما أنت مقبل عليه.

- مهما حاولنا النسيان فإن الذكريات تبقى محفورة داخلنا، تُدبُّ بنا لعالم جميل نتذكَّر فيه أجمل اللحظات، حتى وإن كانت مؤلمة يبقى لها رونق خاص بالقلب، فقد تجمعنا الدنيا بأشخاص وقد نمر بأماكن لم نعتبرها في بداية الأمر مهمَّة، ولكن البعد يكسوها قيمة في شعورنا، فنحس بمدى تأثيرها، فنعيش بذكريات، وأمل أن تعود من جديد!

\*\*\*

## (8)

على جانب السفينة «بينتا» وقف «لذريق» يراقب أمواج البحر وحركاته فقد اختفت اليابسة تمامًا وتوحَّد كل شيء حول السفينة فلا شيء إلا الماء والسماء، بينما البحَّارة لا يتوقفون عن التجديف أبدًا، وجميعهم تراودهم الأمانى والأحلام والذهب ونساء الشرق سوداوات الأعين.

أما «مارتين» فقد انشغل بقيادة السفينة وحساب خطوط العرض والطول ومراقبة الرياح، وكان يمسك ببوصلة لا يفتأ ينظر إليها بين الفينة والأخرى، ومتابعة تعليمات «كريستوفر» الذي أمسك هو الآخر ببوصلته ينظر إليها، وفجأة قرر «كريستوفر» أن يتجه جنوبًا نحو جزر كناري ينشد الرياح من الشرق قبل أن يواجه الغرب، ثم أقدم على السير في خط موازٍ لخط عرض

ثمانية وعشرين في مكان لا يبعد جنوبًا بدرجة تكفي لينعم بالرياح وكان الطقس لطيفًا لدرجة أن «كريستوفر» كتب في سجل سير السفينة «مثل جو أبريل في الأندلس والشيء الوحيد الذي ينقصنا هو سماع صوت البلابل».

كانت أسئلة كثيرة تزدهم في عقل «لُدريق» الذي بدأ مع دخول المساء يشعر بالبرد يتسرب إلى أطرافه فتدثّر بثياب خفيفة وضعها على رقبته، ثم تحرك حتى وصل إلى مقدمة السفينة وكان يقف «مارتين» الذي نظر إليه مبتسمًا وقال: «تُرى متى نصل إلى اليابسة؟».

- حسب كلام «كريستوفر» لن نراها قبل بضعة أيام أخرى.

- إنني أريد أن أسابق الزمن لأصل إلى هناك.

- ربان البحر يحب اليابسة!

- بل أحب ثروات اليابسة، فالمحيط حياة الأسماك والحيتان ليس به غير ماء مالح لا يصلح حتى للشراب، نركبه لنصل إلى أماكن أخرى وبلاد لا نعرفها ولكن لا نستقر فيه إلا بالموت.

- جميع البحّارة يبحثون عن الثراء!

- وأنت ألسنت منهم؟ ألا تبحث عن الثراء والنساء؟!

- أنا أبحث عن الحرية قبل الثراء، وإلا فما قيمة الذهب الآن ونحن في عرض البحر؟ وما قيمة الأموال ونحن عبيد لغيرنا لا نملك أن نقطع في أمرنا أو نعيش كما نشاء؟

ربت «مارتين» على كتف «لُدريق» وقال: «لم أك أعلم أنك بكل هذا المنطق، ولكنه ليس منطقي، فأنا عكسك تمامًا، أجد أن المال هو الوسيلة لتحصيل كل شيء، فهو من يهب لك كل ما تريد، وهو من يذل لك الصعاب ويذل لك الرقاب، والمال هو الحرية، وإلا فما قيمة الحرية لإنسان لا يملك قوت يومه! فيحيا ليبحث عنها فيكون أسير بحثه وعبدًا لها فإن وجده وجدها غير كافية، وما قيمة الحرية لإنسان لا يستطيع فعل أي شيء يحبه، فتراه حرًا برأيك، ولكنه في الحقيقة مكتوف الأيدي، عاجز الحركة عن تقديم أي شيء لنفسه وذويه، فالمال يا «لُدريق» هو عصب تلك الحياة التي نحياها وهو زينة الدنيا.

هز «لُذريق» رأسه ونظر إلى صاحبه قائلاً: «لكل منّا منطقه ولكل منا رأيه، والآن سأصعد إلى هذا البرج لأتابع عملي»، ثم صعد إلى أعلى نقطة في السفينة يراقب القادم في البحر، بينما تحرك «مارتين» إلى حيث قيادة السفينة...

انقضت أيام لا جديد فيها، فكان البحّارة يقضون نهارهم في الحديث عن أحلامهم والتجديف وحديث حول الأموال والنساء، وماذا سيفعل كل فرد منهم بالمال والذهب الذي سيحصل عليه، والليل ينامون فيه خشية أن تصطدم السفن ليلاً باليابسة أو الصخور لانعدام الرؤية.

وبينما السفن تمخر عباب المحيط، والشمس مشرقة، والجميع سعداء هادئو الأنفس والآمال تترفف فوقهم والكون حول السفينة لون واحد وهو اللون الأزرق في السماء والبحر، والضحكات تعلو وتعلو وقد وزّع الطباخون الخبز المجفف والشعير وبعض التمرات على البحّارة مع توزيع الماء عليهم، إذ تغيرت الدنيا فجأة وأربد البحر وزمجر، وتكاثرت السحب في السماء وأسود لونها لتحجب الشمس، وهبت الريح عاصفة، وهدرت الأمواج غاضبة، وإذا السفن الثلاث تقاذفها أمواج عملاقة، وإذا البحّارة يصيحون ويعملون بجدّ طلباً للنجاة، وكانوا منذ لحظات يبحثون عن الأمان والذهب، فصار الآن أملهم وحلمهم هو النجاة وحدها!

بينما «كريستوفر» يحاول السيطرة على الجميع، وربّان السفن يطلقون الصيحات والتنبيهات ويتابعون أعمالهم بحرفية شديدة، وبعد وقت عصيب هدأ البحر، وأشرقت الشمس مرة أخرى فهدأت القلوب والنفوس، وعاد البحّارة لإصلاح ما فسد من السفن وتنفس «كريستوفر» الصعداء، وأظهر عكس ما يبطن فظهر أمامهم كمن كان يعرف أن سفنه ستكسر الأمواج وأن لا شيء يمكنه إيقافه عن المضي صوب هدفه وغايته.

\*\*\*

كانت السماء ملبدة بالغيوم السوداء، والظلام قد غطى ربوع المدينة حتى ظن أهل القرية أن الليل لم ينته بعد، وأن الملائكة قد غضبت عليهم فحجبت ضوء الشمس عنهم، فلم يجرؤ أحد على الخروج من كوخه إلا «بوردوم» الذي كان يعرف أحوال الطقس جيدًا وكان خبيرًا بذلك، فخرج من كوخه وقد لبس قرون الماعز وذهب متكئًا إلى عصاه إلى معبد «كيتزاكواتل» وأشعل النيران التي تصاعدت ألسنتها فأضاءت ظلمة المعبد، وصرخ «بوردوم» بكلمات غريبة ومعه خدم المعبد، ثم سجد أمام النار وبدأ في ترديد كلام عجيب.

أما في جزيرة جمرة فقد كان «مالك» ينظر إلى السماء وغيومها وهو يفكر في «هيدا» وأهلها، فقد كان يعرف أن جُل بيوت «ماجوانا» مبنية من القش والطين ما يعني أن أمطارًا غزيرة قد تفعل بهم الأفاعيل، وتسبب لهم الكثير من الأضرار، ولم يمض وقتٌ كثير على أفكاره تلك حتى أرعدت السماء وانهمرت الأمطار شديدة على غير عاداتها في مثل هذا الوقت من العام.

أما في «ماجوانا» فقد انسالت المياه وأغرقت الأكواخ وأهلكت الخبز والطعام، وخرج الناس من أكواخهم المهدومة إلى الشوارع المملتئة بالطين والوحل وهم يبكون، ولجأ الكثير منهم إلى المعبد لارتفاعه عن الأرض، ووقوعه على تبة عالية وكونه مبنياً من الصخر، وحاولت «هيدا» مع حراس الملكة «أناكاونا» مساعدة الناس ولكن بلا جدوى وبلا فائدة، فقد كان الخطر كبيرًا والمياه تجرف في طريقها كل شيء، وبينما السماء تمطر إذ ب «بوردوم» يصرخ وهو يرفع عصاه إلى السماء ويقول: «إن الآلهة غضبي ولهذا أغرقت المحاصيل والأطعمة»، ثم بدأ يحض الناس على وضع الذهب في المعبد اتقاءً لنشر الآلهة، وممرت ساعات طويلة، وأخيرًا أمسكت السماء، ولكن الأرض لم تبتلع المياه رغم أن الكثير منه قد ذهب إلى النهر، فاستمر الحال عدة ساعات أخرى والناس لا يتحركون إلا بصعوبة شديدة والأطفال تبكي وبدأ الجوع يضرب في الناس بعد هلاك الأطعمة وفسادها ونفوق الماشية وموتها.

نفذت «هيدا» إلى خزائن الطعام فوجدتها قد فسدت وغمرتها المياه ولم تفلح كل المحاولات لإنقاذ أي شيء، وظل أهل «ماجوانا» ينتظرون جفاف الأرض حتى يتحركوا ويعيدوا بناء أكواخهم فلا ينامون في العراء.

ووسط حزن الناس في «ماجوانا» وخوفهم والجوع المنتشر فيهم، إذ سمعوا أصواتًا قادمة فنظروا فإذا «مالك» وصاحبه «بوبا» وبعض من أهل جمرة قد أتوا محملين بالأطعمة، إذ إن جمرة مبنية بالحجارة ما يجعلها تقاوم الأمطار ولا تتأثر بها كثيرًا.

وما إن دخل «مالك» إلى «ماجوانا» حتى ذهب إلى الملكة «أناكاونا» التي نظرت إلى «هيدا» وقالت: «هل اتفقتما بينكما على أمر لا أعرفه؟».

- وهل هذا وقت وظروف مناسبة لأن نتحدث في غير ما يحدث في القرية، ولا أظن أن «مالك» قد أتى لمثل ما تتخيلين.

«كاونابو»: «سنعرف الآن مقاصده، فلو سمحت الملكة له بالدخول».

أشارت «أناكاونا» لحراسها فأدخلوا «مالك» و«بوبا» فقالا: «السلام عليكم...».

لم ترد «أناكاونا» السلام، بينما ابتسمت «هيدا» ونظرات أمها تلاحقها وتراقبها فقالت «أناكاونا»: «فيمَ قدومكما؟».

«مالك»: «علمنا ما نزل بالقبيلة وأهلها من مِحْنٍ، فجمعنا ما يمكن جمعه وقدمنا به إليكم، إذ لا خير فينا إن أكلنا وأنتم جوعى فالناس للناس».

باستعلاء نظرت «أناكاونا» له وقالت: «ومن طلب منك مساعدات كهذه؟!».

وقبل أن يرد «مالك» أردفت «أناكاونا» وهي تنظر إلى «هيدا» بجوارها وقالت: «لا تظن أن أموالك وماشيتك ستعني أو ستجعلني أوافق على زواجك من ابنتي، فلن يغير هذا من الأمر شيئًا».

«مالك»: «ومن قال لكِ إنني أقدم هذه الأموال لأنال هذا، فوالله ليست الأموال من تقيم الرجال، ولكنها الأفعال والمواقف، ولربما رجل رديء يمتلك ما لا يمتلك غيره من الرجال الشجعان، فالمال لا يغير الرديء ولا يعلو بالوضيح، والمال رخيص عند الكريم غالٍ على البخيل، فالأموال يا سيدتي لا تبدل من قيمة الإنسان، فنحن أسياد للمال لا المال سيد لنا، ونحن من يجمعه لننفقه

لا لنكنزه... إننا أيتها الملكة نفعل ذلك من أجل كونكم جيرانَ قريتنا، ولدينا الكثير من فائض الخبز والطعام فهل نأكل وتهلكون جوعى؟».

لم ترد «أناكاونا» فقال «كاونابو» وقد نال «مالك» إعجابه: «مقبول ما تقدمه أيها الأمير الشاب وشكرًا للآلهة على ما أنعمت».

«مالك»: «الشكر لله يا سيدي، والآن نرجو أن تكون هذه الأطعمة عونًا لكم في قادم أيامكم ولتأذن لنا الملكة لنعود لديارنا».

\*\*\*

## (10)

من أعلى نقطة من نقاط المراقبة في السفينة «بينتا» وقف «لُذريق» وهو يراقب الغرب ويحاول أن يجد جبلًا، أو أي شيء يدل على اقتراب اليابسة، ولكنه لم يرَ شيئًا رغم سكون الأمواج وهدوء البحر الشديد، فحتى الأمواج قد هدأت ولم يعد لها أي حركة أو ارتفاع، وصاحب هدوء الأمواج وسكون المحيط خوفًا في نفوس البحّارة وهم ينظرون في كل اتجاه فلا يرون إلا مياه لا نهاية لها، وكان سكون الرياح عاملاً مؤثرًا أيضًا فقد أبطأت سرعة السفن، إذ إنها تعتمد على التجديف وسرعة الرياح، فظهرت كأنها قد توقفت، وكانت كلما قطعت مسافة لا يتغير الوضع، فالمياه هي هي، والفراغ يزيد اتساعًا و«كريستوفر» لا ينفك ينظر في البوصلة كي لا ينحرف عن الاتجاه المطلوب.

ومع مرور الوقت بدأ الضجر والخوف يتسربان إلى نفوس البحّارة وهم يرون أنفسهم في بحر لا نهاية له، ومع انتشار الخوف زاد الصمت، فالجميع يفكرون فيما هو قادم ولا يجرؤ أحدهم على الحديث، وفي وقت الغداء نزل «لُذريق» إلى سطح السفينة ليتناول حصته من الطعام، فاقترب منه «مارتين» وقال وهو ينظر هنا وهناك: «لقد بدأ الضجر واضحًا على بعض البحّارة، وأخشى أن يتسرب إلى الجميع».



- انظر حولك يا صديقي، فكل شيء يدعو للضجر، فالرياح ساكنة وحركة السفن بطيئة ولا شيء ينذر بخير.... عالم أزرق يطل علينا فلا يبشر بأي خير.

- أنت أيضًا يا «لذريق»؟!

- أنا أتحدث عنهم، ولكن ذلك لا يعني أن شعوري مثلهم، فلكل منا هدفه في هذه الحياة ومقصد، هم هنا يرون السفن والبحر سجنًا لهم، أمّا أنا فلم أشعر بطعم الحرية إلا منذ غادرت الأندلس.

- هل هذه ثقة بـ«كريستوفر» أم يأس من الحياة؟

- لا هذه ولا تلك.

- فماذا إذًا؟

- أنا لا أثق أبدًا بـ«كريستوفر»، وكيف أثق برجل لا يرى في هذه الدنيا إلا مآربه؟! كيف أثق برجل يُسخر كل من حوله لخدمته وهدفه، كيف أثق برجل يحاول خداعنا ويدّعي كذبًا أن الخريطة التي يمشي على خطاها خطأ بيده، إنه مجرد لص يا صديقي.

- صه، لا يسمعك أحد ولا تجعل يأسك يوقعك في الخطأ.... فهو اليأس إذًا.

قهقهه «لذريق» وقال: «يأس.... أما والله ما بلغ اليأس مني يومًا وأنا وأنت نعلم جيدًا نهاية الطريق!». .

- لقد حان وقت الغداء فهل نأكل معًا؟

- هذا أمر يسعدني.

وكان أحد الطباخين يوزّع الخبز الجاف والتمر عليهم فأكلوا وشربوا جميعًا، ثم نظر «مارتين» إلى «لذريق» وقال: «أتعلم أن هبوب الرياح منذ يومين خير من سكونها اليوم؟».

- كيف تقول ذلك وكدنا أن نهلك؟

- إن سفننا شرعية تعتمد على الرياح، ولو اعتمدنا فقط على التجديف لن نصل ولن نقطع مسافة تذكر، وبالسفن بحّارة لن يصمتوا كثيرًا،

وقد سمعت من يقول منهم إننا ضللنا الطريق خصوصًا بعدما بدل «كريستوفر» وجهتنا مع اتجاه الريح.

- كنت أظنك ستتدخل في قرارات «كريستوفر» ولن تدعه يبدل وجهته.

- لو فعلت لذلك لكأنني كنت أتعجل ضجر البحارة واختلافهم.

- لكن تبديل «كريستوفر» لوجهته سيؤخرنا كثيرًا.

- ولكننا سنصل في النهاية وأن نصل متأخرين خيرًا من أن يختلف

البحارة بيني وبينه فلا نصل إلى شيء.

وبرغم صمت «مارتين» و«لذريق» فقد علت الأصوات مع مرور الوقت،

وضاق البحارة وهم يرون بحرًا لا نهاية له فقال بعضهم: «كيف لنا الآن أن

نتيقن أنه يسير بنا في الاتجاه الصحيح؟».

صوت آخر: «بل قل كيف لنا أن نتيقن أنه لا يسير بنا إلى طول البحر لا

عرضه؟!».

الأول: «يجب أن نعود لـ«قشتالة» قبل أن نموت هنا ونصير طعامًا

للأسماك».

وفي خلال وقت قصير تحول الهمس بينهما إلى صوت عالٍ يطالب بالعودة

لـ«قشتالة»، ووصل الصوت إلى «كريستوفر» الذي اجتهد في تهدئتهم فقال:

«لقد قطعنا الشوط الأكبر في طريق المجد والمال وصناعة التاريخ، فكيف

تريدون مني أن أعود لنقطة البداية؟ تحلُّوا بالصبر واليقين».

الثاني: «إنك تسير على غير هدى يا «كريستوفر»، وإلا ما بدلت وجهتك

فأين المجد من ذلك إن هلكنا؟».

«كريستوفر»: «مَن قال ذلك؟ إنما بدلت وجهتي لأستفيد من اتجاه

الرياح..... لقد حددت لهذه الرحلة أيامًا تعرفونها، ولما تمضي تلك الأيام بعد

فاصبروا ولنتحدث فقط عند انتهاء تلك المهلة».

\*\*\*

خرجت صراخات الطفل للوجود، فأخيرًا ولدت «بياتريس» مولودها من السَّفَاح، وما إن أفأقت من تعبها حتى عملت بكلام عشيقها «كريستوفر»، فقررت أن تطلق على مولودها اسم «فرناندو» وهي تعلم أن في اختيار هذا الاسم نفاقًا لا نظير له، إذ قال لها «كريستوفر»: «إن كان المولود ذكرًا فهو «فرناندو» وإن كان غير ذلك فهي «بياتريس»».

وبينما تقبّل «بياتريس» الطفل وتنتظر بشغف عودة «كريستوفر» ليراه، كان «كريستوفر» يواجه الصعاب والمتاعب في رحلة لا يعلم نهايتها، وخاصة وقد استيقظ من نومه فوجد الكثير من البَحَّارة قد أصابهم مرض غريب، إذ أصابهم الإرهاق الشديد وبقع غريبة اللون قد انتشرت في جلودهم، وورم في اللثة حتى أصبحت اللثة للكثيرين منهم إسفنجية متورمة، وأصاب بعضهم نزيف حاد في الفم والأنف والأغشية المخاطية وكثرت البقع في منطقة الفخذين والساقين، وسيطر الشحوب مع الشعور بالإحباط على بعض البَحَّارة، كما فقد بعضهم الحركة بشكل جزئي والتزم الكثير منهم الفراش (مرض الأسقربوط).

ومع تقدم المرض ظهرت الجروح المفتوحة المتقيحة وبدأ بعضهم يفقد أسنانه، مع اصفرار الجلد والحمى، واعتلال عصبي وقد حاول «لُذريق» ومعه بعض البَحَّارة إسعاف المصابين، ولكن دون جدوى، فلا أحد يعلم ما هذا ولماذا ظهر، ولكن «لُذريق» الذي كان خبيرًا بالأمراض همس في إذن صاحبه «مارتين» وقال: «هذه الأمراض نتيجة لتوحد الطعام وخلوه من الأعشاب، وإني لأخشى أن يصيبنا جميعًا، فمن لا يموت من البحر يموت من المرض».

- لا تتحدث بهذا أمام «كريستوفر» فيغضب عليه البَحَّارة فيصب جام غضبه بعد ذلك عليك.

وما هو إلا وقت قصير حتى صرخ أحد البَحَّارة باكيًا صديقه الذي مات، فاجتمع حوله من في السفينة من الأصحاء وفيهم «لُذريق» و«كريستوفر» الذي انتقل إلى السفينة ليتابع من كتب ويقرر ماذا سيفعل في جثة الميت.

وبينما الدموع في أعين الجميع والخوف بادٍ عليهم، تحدث «كريستوفر» بثقة وقال: «المجد لشهيد الرب، لقد مات في سبيل نشر المسيحية في هذا العالم». ثم رسم التالوث على صدره.  
مارتين: «وماذا عن جثته الآن؟».

تصنّع «كريستوفر» التآثر وقال: «لا مناص من إلقاء الجثة إلى البحر، فهذا أفضل من تعفنها هنا».

وما إن قال هذا حتى أمسك أحد البحّارة بالجثة رافضاً طرحها في البحر وهو يبكي ويولول، فاقترب منه «كريستوفر» وقال: «أتريد أن نقتلنا جميعاً! لقد مات على كل حال وأعدك أن تنال المال الكثير حتى تفي بصدقتك معه، وتشتري له ما تشاء من صكوك الغفران».

جفف البحار دموعه وقال: «وأي مال هذا الذي يعوض خروج الروح من الجسد؟».

«كريستوفر»: «يعوضه المال الوفير الذي ستحصل أنت عليه وتعطيه لأولاده وزوجته وتشتري له الملكوت الأعلى».

نظر البحّار في عين «كريستوفر» والدموع ما زالت تترقرق في عينيه فأشار إليه «كريستوفر» بإشارة من رأسه، وانحنى «مانويل» فأمسك بذراع البحار وقال له: «اترك الجثة يا رجل فما حدث قد حدث وحياتنا الآن مرهونة بتعاوننا».

وقف البحار تاركًا الجثة، فأشار «كريستوفر» إلى بحّارين آخرين فحملا الجثة وطرحها في مياه المحيط، وسط زعر من الجميع حتى قال قائلهم: «على من سيأتي الدور؟».

ساد اليأس والرعب السفن الثلاث ومات عدد كبير من البحّارة بالسبب نفسه والمرض نفسه، وشعر من بقي من البحّارة بشؤم طالعهم، وأن لا نجاة لهم مما هم فيه، وراح بعضهم يجاهر ويقول: «على الإنسان ألا يغضب القدرة الإلهية بسعيه إلى سبر غور الأعماق في البحر المجهول».

وشعر الكثير من البحّارة أنهم ارتكبوا الخطيئة الفادحة عندما اتبعوا «كريستوفر» فراحوا يعلنون توبتهم، وكأنهم ينتظرون الموت، ومع ازدياد

اليأس خرج «كريستوفر» يبث فيهم الأمل من جديد ومعه مساعدة «مانويل» يؤمن على كلامه ويوهم الآخرين أنه مصدقه...

ولأن سفينته كانت تسير وسط السفينتين فقد قال لهم: «إننا لم نعص الرب بخروجنا، بل إننا لم نخرج إلا من أجله».

ارتفعت بعض الأصوات تستهجن قول «كريستوفر»، فرد وقال: «بلى، لم نخرج إلا من أجله، من أجل نشر المسيحية على أرجاء الأرض كافة، من أجل إيصال الكاثوليكية إلى الهند، ومن أجل إيجاد طريق لا يمر ببلاد المحمديين، لا تياسوا، أما من مات فقد ذهب شهيدًا وأما من بقي منكم، فسينال المجد والشهرة، ورغم ذلك فما زال أمامنا الكثير من الوقت.....».

«مانويل»: «أجل الوقت لم ينفد بعد وما زال هناك ما يكفي من الطعام والشراب، وأما من مات منا فسيزيد من حصتنا من الذهب».

مبتسمًا قال «كريستوفر» وهو ينظر إلى «مانويل»: «هذا هو، نعم الوقت لم ينفد بعد، وكنت قد حددت لهذه الرحلة أيامًا تعرفونها وما انتهت تلك الأيام بعد، فلماذا الخوف؟ انظروا إلى هذا الجدول والتقويم لن تجدوا أن الأيام بعد قد انتهت».

همس «لذريق» في أذن صديقه «مارتين» وقال: «يزيف التقويم ليوهم الآخرين بأن الوقت لم يمض بعد».

- صه.

- يعتمد على جهلهم القراءة والكتابة، وجهلهم بالفلك، وعدم حسابهم لعدد شروق الشمس علينا.

- أتريد أن تهلكنا يا رجل!.... أعلم أنه كاذب، ولكن يجب أن نكون مثلهم، وإلا فسيتنبه لنا، فليس من الجيد أن تخبر عدوك بمكامن القوة والضعف فيك فاصمت ولا تتحدث.

أصوات متفرقة من البحّارة: «يجب علينا العودة لإسبانيا».

ربان السفينة «سانتا كلارا»: «أجل صدق البحّارة في كلامهم وحديثهم فقد كادت المؤن أن تنفد، فإن لم نمت بالمرض متنا من الجوع والعطش، يجب العودة فورًا لإسبانيا».

رمق «كريستوفر» ربان «سانتا كلارا» بعينيه، وشعر أنه أسقط من يده فصمت قليلاً، وقال بعد ذلك بعد أن رفع يده ليرسمه الجميع: «أعدكم أن نعود أدراجنا إن لم نَرَ الأرض خلال ثلاثة أيام من الآن، أنا على يقين أنه لن تمر أيام ثلاثة حتى تظهر اليابسة حسب تلك الخريطة التي بيدي، وأنا على يقين بحساباتي، واعلموا أن أول بحار منكم يرى اليابسة سيكون له كيسًا كبيرًا من الذهب فاجتهدوا ذلك».

نظر البحّارة بعضهم إلى بعض وبدأت نفوسهم تهبط قليلاً، ثم تحدث «مانويل» وقال: «لا بأس أن ننتظر ثلاثة أيام، فإن رأينا اليابسة وإلا فلنعد إلى «قشتالة»، ولكن ليس من الحكمة أن نعود بعد كل هذا الوقت، فنخسر كل ما قد نجنيه من المجد والمال».

بحار آخر: «لننتظر ولكن لن ننتظر ساعة واحدة بعد اليوم الثالث».  
رفع «كريستوفر» يده وقال: «ليكن، فعودوا لأعمالكم».

وبهذه الكلمات بدّل «كريستوفر» أفكار من حوله، وجعلهم بدلاً من انتظار الموت أن يبحثوا عن الذهب في كلماته ووعدوه.

وتحركت السفن الثلاث صوب الغرب، ومر اليوم الأول ولم تظهر اليابسة و«كريستوفر» مترقب، لا يكاد يعرف للنوم سبيلاً، فقد انعقدت كلُّ آماله وأحلامه على ظهور اليابسة، وكذا لم يعد اللعب في التقويم بالشيء الهين، فجميع البحّارة يحصون عدد مرات شروق الشمس، فما كان منه إلا أن صعد إلى أعلى نقطة في السفينة ينظر علّه يجد اليابسة، وظل هكذا يراقب حتى أشرقت شمس اليوم الثاني، ومع كل إشراقة يزداد توتر «كريستوفر» ويفقد إيمانه وثقته بنفسه، فلجأ إلى الصمت، وجلس في أحد أركان السفينة وقد تملّكه اليأس وغربت شمس اليوم الثاني لتغرب معه بعض من أحلام «كريستوفر» الباحث عن الشهرة والمال، لتشرق شمس اليوم الثالث وقد بدأ الحديث يعود عن وجوب العودة لإسبانيا، وقد بدأ البحّارة في التجديف الضعيف وبلا قوة.

وعند الظهر وبينما الشمس في قلب السماء، إذ نظر أحد البحّارة فوجد غصناً أخضرَ يحمل بعض الأزهار، صاح البحّار وقال: «انظروا». فتحرك

البَحَّارة إلى حافة السفينة «بينتا»، فأنحنى واحد من البَحَّارة وأمسك الغصن وهو لا يكاد يصدق ذلك!

فإذا بـ «كريستوفر» ينظر إليهم وقد عادت له الثقة بنفسه، فصاح بصوت المنتصر العائد من هزيمته: «ألم أخبركم أننا سنجد الأرض خلال ثلاثة أيام؟ وما هو اليوم الثالث لم ينقض بعد، وقد ظهرت بشائر اليابسة تطل علينا، استمروا في التجديف صوب الغرب، فالذهب والنساء والأموال في انتظاركم ولا تنسوا المكافأة، فأول مَنْ يرى اليابسة سيكون له كيس كبير من الذهب الخالص».

وبهذه الإشارة استمروا في السير صوب الغرب.

وفي الساعة الثانية من صباح اليوم التالي والقمر بدر تقريباً صاح «لذريق» القائم بالحراسة قائلاً: «الأرض! الأرض! أخيراً، ها هي الأرض...».

هَبَّ «كريستوفر» من نومه وكذا كل البَحَّارة فرحين وهم يصرخون ويحتضنون بعضهم بعضاً ويقولون الأرض الأرض، وتنفس على إثر هذا «كريستوفر» الصعداء، وبدا حديثه مع البَحَّارة يختلف، وتبدل ما كان مبنياً على الكذب إلى واقع وحقيقة، وراح يحدثهم كمن كان يعلم كل شيء ويعلم نهاية الطريق.

\*\*\*





## الفصل الرابع

انهزم المسلمون وطردوا من ديارهم، وجعلتم الأندلس «قشتالة»!  
وأنكم تريدون تبديل التاريخ وتزييفه، فلا يأتي بعد ذلك  
من يطالب بها، وكيف يطالب بشيء لم يعد له وجود؟  
تريدون تبديل هوية بلد ومحو آثار أمة قائمة!

### (1)

- أوقد «بوردوم» شعلة صغيرة من نار، فظهرت ملامح وجهه وسط عتمة الليل، وهو ينظر إلى أحد الأشخاص ويقول: «هل أبلغتم الملكة؟».
- أجابه الحارس: «لم نفعل، فما إن شاهدنا الأغراب، حتى سارعت في إبلاغك».
- حسناً فعلت، فهل وصلوا إلى الشاطىء؟
- لن تبزغ الشمس إلا وقد دخلوا علينا القرية، فما زالوا هناك في عرض البحر، ولولا أن القمر بدرٌ والغرباء قد أشعلوا بعض النيران ما استطعنا رؤيتهم، ما يدل على أنهم ما زالوا بعيدين عن الشاطىء.

هز «بوردم» رأسه وقال: «الآن عد لأدراجك، ولا تخبر أحدًا ما رأيت».  
هزَّ الحارس رأسه وخرج من الكوخ، بينما اتجه «بوردم» إلى خزائنه،  
وفتح بعض الأوراق فيها وهدق النظر إليها وقال: «ها قد عادوا يا «بوردم»..  
عادوا بما يملكون من علم وتقدم، أجل سأكون في طاعتهم، ومن يدري فلربما  
أرحل معهم إلى الشرق لأرى عجائب لم أسمع عنها من قبل؟  
ثم أغلق خزائنه، ونمّق ثيابه، وفتح باب كوخه، وتحرك وسط الحشائش  
وأصوات الضفادع متجهًا صوب الملكة «أناكاونا»، حتى إذا وصل إلى باب  
القصر خف إليه بعض الخدم فقال «بوردم»: «أريد رؤية الملكة الآن».

- أفي مثل هذا الوقت من الليل؟

أظهر «بوردم» صرامة شديدة: «ولن أنتظر لحظة واحدة، فالأمر خطير».  
دخل الحارس إلى الداخل وخرج بعد قليل ليصطحبه إلى حيث الملكة  
التي ما إن رأته، حتى قالت متوجسة والنوم يداعب جفونها: «ما هو الأمر  
الخطير الذي لا ينتظر حتى الصباح؟».

- كنت نائمًا في المعبد فرأيت الآلهة تخبرني بقرب وصول الملائكة،  
فنهضت من نومي وذهبت إلى الشاطئ لأرى نارًا قادمة من الشرق  
تضيء السماء، وينعكس نورها على الماء، فما أردت العودة لبيتي قبل  
أن أخبر الملكة لتستعد لاستقبالهم، فما كان نبوءة قد أضحي حقيقة  
وواقعا، وما كان لمثل هذا الأمر أن ينتظر إلى الصباح.

هبت «أناكاونا» واقفة وكان النوم قد ذهب من عينيها، ونظرت إلى  
«كاونابو» وكان قد دخل للحال عليها وقالت: «الملائكة يا «كاونابو».

قبل أن تدخل إلى والدتها قالت «هيدا» مستنكرة: «ملائكة!».

بنبرة منتصر أجابها «بوردم»: «كنتم تظنون أنني أخدعكم وأمنيكم، فما  
هم الآن يصلون وتعلمون أن الآلهة لا تكذب».

انفعلت «أناكاونا» وحاولت التمالك: «إذا كيف لهؤلاء الحمقى ألا يخبرونني  
بذلك وقد أوكلتهم حراسة البحر؟».

- الآلهة التي أخبرتني لم تخبرهم يا سيدتي، فلعلهم لأن لم يروا شيئاً مما رأيت، فلتهب الملكة لاستقبالهم، فلا يجب أن ينزل الملائكة قريتنا ونحن غافلون عن استقبالهم.

هزّت «أناكاونا» رأسها وضربت الأرض بعصاتها ووقفت وقالت: «صدقت يا «بوردوم»».

ثم أشارت إلى «كاونابو»، و«هيدا» فخرج الجميع إلى جهة البحر، بينما لا تصدق «هيدا» أيّاً من تلك المزاعم، فخرجت وهي على يقين بكذب «بوردوم»، وأمرت الملكة رجالها وحراسها بحمل الذهب والفضة والزينة والطعام ليكونوا في استقبال الغرباء.

\*\*\*

## (2)

كانت السعادة هي المسيطرة على أهل السفن الثلاث، وهم يرون اقترابهم من تحقيق حلمهم ونجاتهم من موت كان قريباً منهم، وبخاصة «كريستوفر» الذي وقف على رأس سفينته التي تقدمت السفن، وهو يطالع اقتراب الأرض من كثب، وذلك المجد الذي ينتظره، وحلم قد تحقق وقد كان من قبل يبدو مستحيلًا، ثم نظر إلى البحّارة وقال: «رويدًا رويدًا حتى لا تعلق السفن بالوحد».

صاح أحد البحّارة: «انظروا إنهم ينتظروننا هناك».

- لقد خرجوا إلى الشاطئ من أجلنا.

- إنهم شبه عُراة، ويحملون الريش يلوحون به إلينا.

صاح «كريستوفر» مبتهجًا: «بادلوهم التحية».

بدأ البحّارة يلوحون للعرّاة على الشاطئ، ويصيحون مبتهجين حتى اقتربوا أكثر من الشاطئ، وعند نقطة معينة توقفت السفن، وبدأ البحّارة في النزول يتقدمهم «كريستوفر» ومعه القباطنة الآخرين، وما إن نزل على

الشاطيء، حتى انحنى مقبلاً الأرض وهو يلتفت هنا وهناك، وقد انتعشت نفسه وامتلاً وجهه بالسعادة والثقة، ووسط تهليل أهل التاينو واستغراب «كريستوفر» وبحارته من لباسهم وأشكالهم، وقرون الماعز والجاموس تزين رؤوسهم.

وبين تعجب البحارة تقدمت الملكة «أناكاونا» صوب «كريستوفر» وقد عرفت من هيئته وتقدمه على الباقيين أنه سيدهم أو قائدهم، وكان برفقتها «هيدا» والحكيم «بوردوم» فانحنوا جميعاً لـ«كريستوفر» الذي انحنى بدوره لهم، وتحدث الجميع بلغة الإشارة بعدما فشلت الكلمات في توصيل المعاني، وكيف لا، وهؤلاء يتحدثون لغتهم الخاصة التي لا يفقهها سواهم.

ووسط فرحة غامرة من الطرفين؛ البحارة لنجاتهم، وأهل التاينو لتحقيق اللحم ونزول الملائكة بلادهم، نظر «كريستوفر» حوله إلى تلك البلاد الجميلة وقال: «سنطلق عليها اسم (القديس المخلص) ونجعلها تحت سيادة الملوك الكاثوليك». مكتبة سُر من قرأ

ابتسم «لذريق» بشيء من السخرية، وقال: «نسيطر عليهم بمثل هذا العدد الصغير؟».

أوماً «كريستوفر» برأسه بينما صدره منتفشاً: «انظر إليهم كم هم سُذَّج، وانظر إلى ثيابهم كم هي بدائية، أكاد أجزم بأني أستطيع السيطرة عليهم عن طريق بعض الهدايا وإلا، فبقليل من السلاح».

هزَّ «لذريق» رأسه، بينما راح «كريستوفر» يوزع بنفسه الهدايا على شعب التاينو، وكانت تلك الهدايا عبارة عن قلانس حمراء وبعض الخرز، أما باقي البحارة، فتقدم بعضهم صوب الأشجار العالية، وبدوا يقتطفون الثمار الطازجة التي تاقت نفوسهم لها، حتى إنهم أكلوا ثماراً غريبة عنهم لا يعرفونها طماطم، جوافة، جوز الهند، وتلك الثمار إضافة إلى الذرة والبطاطا لم تكن معروفة عند المشرقيين، ولكن جوعهم جعلهم يلتهمون كل ما هو مثمر.

ولأن أهل التاينو كانوا يعتقدون أن هؤلاء مبعوثو العناية الإلهية وأنهم الملائكة المنقذون، فقد فرحوا أيمًا فرح بهذه القلانس والهدايا، وانكبَّ بعضهم على يد «كريستوفر» يقبلها، عندها نظر «كريستوفر» إلى «لذريق» وقال: «ما نستطيع كسبه بالحب والعقل لن نجهد أنفسنا لأخذه بالسيف والقهر».

- صدقت أيها الأمير.

وأكمل «كريستوفر» توزيع هداياه الرخيصة، وبعد أن فرغ من ذلك تقدم صوب الملكة «أناكاونا» وكان قد عرفها من هيئتها وبقدسيته عندهم، فأنحى أمامها وقدم لها بعض الهدايا، ففرحت بهذا أيما فرح، وشعرت أنها أمام ملائكة الدنيا وبادلت «كريستوفر» هداياه بالذهب، وأما «هيدا» فقد وقفت لا تعلم ماذا تصنع فهل تشارك أهلها فرحتهم، أم تكذب عينيها وتصدق كلام «مالك» الذي أخبرها كثيرًا أن لا ملائكة تظهر على الأرض! فكانت تنظر إلى وجوه الأغراب تبحث عن إجابة لسؤالها، فكانت الوحيدة بين الحضور التي لم ترقص ولم تهلل لما يحدث، ولم تفرح كثيرًا بالهدايا، وقد لاحظ «بوردوم» ذلك كما لاحظت الملكة فقال «بوردوم» في نفسه: من اليوم لا يحق لأحد في هذه المدينة أن يكذب «بوردوم» أو يخرج عن إرادته، حتى أنت يا «هيدا».

\*\*\*

### (3)

انتصف النهار وافتрشت الشمس كبد السماء، فلجأ الجميع إلى الأكواخ، وظلال الشجر يحتمون بها من لفق الشمس، وخصصت الملكة للأغراب أكواخًا بالقرب منها، أما «هيدا» فقد دخلت إلى غرفتها البسيطة المتواضعة وجلست على كرسي مصنوع من أخشاب الشجر، وأخرجت الخرز المهدى لها، وأخذت تقلب فيه وتدقق النظر إليه، وقد غلبتها الحيرة وكثرت برأسها الأسئلة، وهي تقارن ما رآته بحديث «مالك» عن أجداده بالشرق فلم تجد أي وجه للشبه بين حديثه وهؤلاء، فلا هم مسلمون ولا هم يصلون صلاته، ولا يتحدثون لغته العربية التي قال لها إنها لغة قومه، ثم تحركت لتخرج من الغرفة إلى الشارع أمام بيتها فنظرت، فإذا بعض الغرباء يأكل من ثمرات الشجر، وإذا بالعجوز «بوردوم» يتابع صراخه ينذر أهل القرية ويعددهم بالوقت نفسه، هل تصدق حبيبها أم تصدق ما رآته عيناها؟

ومع اقتراب الشمس صوب الغروب تسلمت «هيدا» وانطلقت بزورقها صوب هذا المكان بين جزيرة «جمرة» و«ماجوانا»، وكانت قد اعتادت أن ترى «مالك» فيه، وكان دائماً ما يخرج هو لهذا المكان يرعى فيه ماشيته ويتربح فيه حبيبته بعيداً عن الأنظار، حتى إذا اقتربت منه، وكان يجلس على عين الماء، هبَّ لها واقفاً مبتسماً ولكنها لم تبادله الابتسامة نفسها فقد غلبتها الحيرة، فظلت صامتة، ثم جلست على عين الماء، فجلس «مالك» بالقرب منها وراح ينظر إليها ويقول: «ما الأمر، هل حدث مكروه للملكة؟».

نظرت «هيدا» إليه وقالت متنهدة: «لقد جاء الغرباء، ونزلوا إلى الشاطئ». رفع «مالك» حاجبيه وقال وهو مذهول: «حقاً؟!».

- ولم أجد هذا الشبه الذي ذكرته لي، فلا هم مسلمون مثلكم ولا هم سود البشرة، ولا يتحدثون العربية، فلا أي شيء بينكم وبينهم.. وقد تركت القبيلة والجميع يهتفون ويحتفلون بهم، «وبوردوم» ما فتى يتحدث وكأنه لا يكذب أبداً، وصار الجميع يرددون أن كلامه مصدق وأنه على الغيب مُطَّع.

ثم نظرت إليه وأردفت: «والجميع الآن وفي مقدمتهم الملكة يسخرون مني، ويمقتون على رفضي لحديث «بوردوم» من قبل، لقد انقلبت الأمور وما عاد لي حجة أقولها.. لم يعد أمامي إلا الصمت أو تصديقهم».

زادت حيرة «مالك» فهو يعلم من أبيه وجده أن الشاطئ كله مسلمون وعرب، فبلاد المغرب والأندلس وهما الأقرب إلى تلك البلاد جميع أهلها مسلمون، فمن أين جاء هؤلاء وكيف لا يتحدثون العربية؟ وكيف لا يكونون مسلمين بالأساس؟ والمسلمون هم سادة البحار؟

- لماذا لا تتحدث يا «مالك» أم ترى أن «بوردوم» قد صدق؟ فإن هو صدق فقد...

- أكلمي.. فإن هو صدق فقد كذبت أنا، أليس هذا ما تريدان قوله؟ لا يا «هيدا»، أنا لم أكذب يوماً، ولا يوجد في هذا الكون ملائكة تمشي على الأرض، ولكن في الأمر شيئاً لا أعرفه، فلتهدأ نفسك وما خفي علينا اليوم سيظهر غداً وإن غداً لناظره قريب.

بعد صمت من «هيدا» وترقّب من «مالك» وقفت «هيدا» وقالت: «أنا لا أكذبك، ولكن يجب أن يكون هناك تفسير لكل ما يحدث، يجب أن أتحدث عن بيّنة، وأواجه «بوردوم» بما يدحض حجته وكلامه، وإن أكثر ما يؤرقني الآن أن نزول هؤلاء وقدمهم بهذه الصفة سيجعل الملكة تُصرُّ على ما هي عليه، وتزداد يقيناً بصدق «بوردوم» وهذا يعني استحالة زواجنا».

اكفهرَّ وجه «مالك» ولكنه تحدث بنبرة مطمئنة: «لا بدَّ أن في الأمر حيلة وخدعة، فارتقبي وكوني على يقين بصدق ما أقول».

\*\*\*

## (4)

انتهى اليوم، وغربت الشمس ونزل جميع البحّارة في أكواخ من الجريد والقش، فناموا ليلتهم الأولى في هذا العالم الجديد عليهم، وانشغل كلُّ بحار بحلم يفكر فيه، فمنهم من انشغل بالمال، ومنهم من انشغل بالمجد، ومنهم من راح يفكر في النساء، وبالأخص بعدما شاهدوا نساء «ماجوانا».

أما «كريستوفر» فقد بات ليلته يكتب بيده كل ما شاهده، وهو يحاول دراسة طبيعة هذه الشعوب، فلم يَنَمْ، بل اتكأ وكتب في مذكراته: (ما دمت قد عرفت أنهم قوم يمكن تحريرهم وهدايتهم إلى أبينا المقدس عن طريق الحب لا القهر، فلكي نكسب صداقتهم أعطيت لبعضهم قلانس حمراء وللبعض الآخر خرزًا وأشياء أخرى كثيرة تافهة القيمة سرّتهم كثيرًا)، ثم وضع القلم والدواة، واسترخى على سرير من القش وراح يفكر في كيفية السيطرة على تلك الشعوب البدائية، والاستفادة منها حتى غلبه النوم.

عند الفجر استيقظ «لُذريق» وخرج من كوخه الطيني الصغير ليتفقد تلك المدينة الصغيرة، علَّه يجد فيها ما يغنيه عن العودة للأندلس، وهو مذهول مما يرى، فتحرك وسط الأشجار والزرورع، وكأنه في بلاد غير تلك البلاد، فلا قصور ضخمة ولا قلاع تحميهم من هجوم الغرباء، ولا كنائس ككنيسة

«إشبيلية»، بل ولا يوجد أيُّ شبه بين تلك البلاد و«قشتالة»، ثم تحرك وهو يقول في نفسه: ما هذه البلاد؟ وما هذه الثمار والأشجار؟

ثم جثا على ركبته، واقتطف ثمرة حمراء لا يعرفها، وفكر في أكلها ولكنه تردد قليلاً، فنهض من فوره وتحرك للأمام فوجد زروعاً غريبة أخرى لا يعرفها، ولا تعرفها أوروبا أو حتى إفريقيا وكل العالم القديم: طماطم، ذرة، جوز هند، تبغ، جوافة... وغيرها من الثمار، ثم نظر بعيداً بعض الشيء، فإذا بأحد أهل التاينو يركب البقر، ويتحرك للأمام فتعجب وقال: أين الخيول هنا؟ هل يعقل أن لا خيول لديهم؟!

ثم نظر، فوجد دخاناً يخرج من خلف أحد الأحجار الكبيرة فتحرك صوبه، فإذا بشابين من أهل «ماجوانا» يدخانان أعشاباً غريبة ملفوفة داخل ورق، وهما يخرجان الأدخنة من الأنف والفم، وكلما تنفسا هذا الدخان زادت بهجتهم وسعادتهما، وهو لا يكاد يصدق ما يرى وظن أنه في حلم عجيب، بل تخيل أنه غرق وهو الآن في العالم الآخر فتركهما وتحرك أكثر، وكلما وجد شيئاً غريباً بحث عن غيره، فإذا بأحد الناس يحمل ريشَ الطيور على أحد الأبقار، وهو يتعجب لم يفعل هذا؟ كانت هذه أسئلة تراود «لذريق» وهو لا يجد لها إجابة شافية، حتى إذا أشرقت الشمس شاهد «لذريق» الأميرة «هيدا»، وهي تطعم بعض الحيوانات الأليفة لديها، فقرر أن يتحدث إليها فتحرك صوبها، وحاول محادثتها بالقشتالية، لكنها لم تُجبه ولم تفهم ماذا يقول، وكانت تنظر إليه بتعجب، وتفعل حركات تدل على عدم فهمها له، وكذلك هو لم يفهمها، غير أنها كانت تُكِنُّ له ولكل رفاقه قداسة خاصة رغم حديث «مالك» لها، لهذا فقد بدت مبتسمة طوال الوقت!

فقد «لذريق» الأمل في أن يجد من يفسر له ماذا يحدث، وفشل في إيجاد لغة تواصل بينه وبين «هيدا» أيضاً فقرر العودة لكوخه، علَّه يجد عند صديقه «مارتين» إجابة لكل هذه الأسئلة الحائرة، وكيف لا و«مارتين» قبطان وربان سفينة، ولا بُدَّ أنه قد مر بمثل هذا من قبل؟ ثم تنبه وحك في رأسه بينما «هيدا» ترقبه، وقال: «إن كنا قد وصلنا حقاً للهند، فلا بُدَّ أن هنا مسلمين يتقنون العربية، فلم لا أتحدث إليها بها؟».



فقال لـ «هيدا» التي كانت ما تزال تطعم حيواناتها الأليفة: «هل تتحدثين العربية؟ هل يوجد هنا كاثوليك أو محاكم تفتيش؟».

توقفت «هيدا» عن إطعام حيواناتها، ورفعت حاجبها عجبًا وقالت: «هل تتحدث مثل «مالك»؟».

كاد «لُذريق» أن يطير فرحًا وهو يقول: «تتحدثين العربية! لا بُدَّ أنكم مسلمون».

- أجل، فقد تعلمتها على يد أحد المقربين، ولكن ليس في «ماجوانا» مَنْ يتقنها غيري وأيضًا لسنا مسلمين.

- تقولين «ماجوانا»؟

- هذا اسم هذه المدينة التي أنت فيها، والآن أخبرني هل أنتم ملائكة الرحمة التي أنبأ بهم «بوروم» الكاهن حقًا؟ هل أنتم ملائكة السماء الذين تحملون الخير للناس؟ وكيف قطعتم هذا البحر المظلم؟  
تعجَّب «لُذريق» أيما عجب وصمت لحظات قال بعدها: «الآن فقط عرفت سر تقديسكم لنا، تظنون أننا ملائكة!».

- حسب النبوءة، نعم. فقد أخبرنا «بوروم» أن ملائكة ستأتي عبر هذا البحر المظلم تنقذنا مما نحن فيه، فلمَ قَدِمتم علمًا أنكم هم؟  
ضحك «لُذريق» وقال: «بل نحن بشر عاديون قدمنا من خلف هذا البحر، من الشرق وحملتنا سفن أبحرنا بها، ولو كنا ملائكة ما احتجنا إلى طعام أو شراب أو حتى سفن تنقلنا!».

انعقد حاجبا «هيدا» ثم راحت تتذكر حديث «مالك بن عبد الله بن أبي بكر» حينما أخبرها بأن قومه كانوا ملوكًا على الشاطئ الآخر لهذا البحر، وقتها لم تقتنع «هيدا» بحديثه، ثم عادت من صمتها وقالت: «إِذَا أنت من قوم مالك؟».

- مالك؟

- أجل فمالك هو حفيد «منسا موسى»، ما فتئ يخبرني أن قومه ملوك على الساحل الشرقي لهذا البحر المظلم.

صمت لُذريق هنيهة من الزمن، ثم قال: «ربما مالك هذا من بلد أخرى غير الأندلس، فالشرق يا سيدتي به ممالك عظيمة كثيرة البشر، متعددة الأعراق والألسنة، مختلفة اللون والطباع والدين...».

ثم أراد أن يقول لها عن اسمه، ويسألها عن دينها ودين باقي المدينة، لكنه خشي أن يعرف أحدهم أو تخبر أحدًا بما سيروح لها به، فصمت ولم يتحدث، فلاحظت «هيدا» ذلك فابتدرته تقول: «لَمْ الصمت يا سيدي؟».

- لا شيء لا شيء..

ثم صمت هُنيهة أخرى و«هيدا» تنظر إليه في استفهام، حتى نطق مرة أخرى وهو يضع يده على رقبة إحدى الأبقار وقال: «لم لا أرى خيلًا هنا؟».

- خيل!

- أجل خيل يركبه الفارس في الحرب والسلم.

زاد تعجب «هيدا» وفاقه تعجب «لُذريق» الذي نظر هنا وهناك في الفضاء الواسع حوله الأشجار والزرع، ثم ارتدَّ ببصره صوب «هيدا» وقال: «أيعقل ألا تعرفين الخيل؟».

- لا نركب إلا الأبقار، ولا نعرف هذا الخيل الذي نتحدث عنه.

- فكيف تقطعون المسافات البعيدة؟ وكيف لجندكم أن يحاربوا؟ وما هذه الزروع العجيبة التي لا أعرفها؟! ولم أرَ مثلها في «إشبيلية» أو «الأندلس».

- نحن قوم مسالمون لا يعتدي بعضنا على بعض، أما المسافات الطويلة فلمَ نقطعها ونحن راضون وسعداء بتلك الأرض التي نعيش عليها؟ وما هذه الثمار التي تراها إلا أعشابًا ولدنا فوجدناها وهي شهية الطعم، طيبة المذاق، ولم أكن أعلم أنها فريدة حتى لفتت انتباهك لهذه الدرجة. متنهّدًا قال «لُذريق»: «أنتم قوم طيبون، والآن أستأذنك سيدتي».

- ألن تزيدني حديثًا عن الشرق؟

- لاحقًا لاحقًا سيدتي.

- لا بأس.

ثم أشارت له وهي تبتسم، فتحرك «لُذريق» بضع خطوات عائدًا للكوخ، ولكنه وقف وكأنه تذكر شيئًا ما، فعاد لها وهي تنظر إليه فقال لها: «هل لي أن أطلب منك أمرًا؟».

- تفضل.

- ألا تخبري أحدًا بحديثنا، ولا يعلم أحد أنني أتحدث العربية.  
«هيدا»، وهي متعجبة: «على الرحب والسعة».

\*\*\*

## (5)

استمرت الحياة عادية في «ماجوانا» وأكثر الناس من زيارة معبد «كيتزالكواتل»، أما «بور دوم» فقد داوم على الوجود مع «كريستوفر»، بينما اجتهدت «أناكاونا» في تقديم الهدايا للمشرقيين طمعًا في اكتساب رضاهم، وانشغل «كريستوفر» في تلك الأيام القليلة التي قضاها في «ماجوانا» في تسجيل كل ما يرى من معلومات في تلك القرية، وكذا كلف البحارة بمعرفة أحوالها وخزائن الذهب فيها، وكتب كل المعلومات في مذكراته الخاصة، وبعد أيام قضاها في الجزيرة، وبعد أن استعاد وبجارته قواهم، واستزادوا من طعام القرية وكرم أهلها، قرّر «كريستوفر» أن يبحر حول ساحل تلك البلاد الجديدة بعدما علم أنهم لا يملكون وسائل تنقل برية، فلا هم يملكون خيلًا ولا حتى إبلًا، فاتجه برجاله إلى الشاطئ حيث السفن وكانت قد شحنت بالطعام والشراب والفاكهة الطازجة والفواكه العجيبة الغريبة، وعند الشاطئ كانت الملكة «أناكاونا» ومن حولها يلتفون لتوديع الملائكة حسب ما يرون، وتقص عليهم الأسطورة وأخرج أهل التاينو الكثير من الذهب وأعطوه لـ «كريستوفر» ورجاله، وكذا أعطوه الكثير من الببغاوات الجميلة، والفضة، والكثير من الطعام، ثم حملوه ورجاله على قواربهم المنحوتة من الأشجار حتى أركبهم السفن، ثم تبادل البحارة التحية مع أهل التاينو.

ووقف «كريستوفر» على مؤخرة السفينة يودع الأهالي، وهم يهتفون بلغتهم غير المفهومة ويرقصون رقصاتهم المعهودة، بينما يلوح لهم «كريستوفر» بيديه وما زال على ذلك حتى اختفى عن أنظارهم، وما إن ابتعد عن الجزيرة حتى تحدث إلى بحارته وقال بلهجة جادة: «عليكم جميعاً جمع ما لديكم من ذهب ووضعه هنا أمامي».

تذمّر البحّارة، إذ كيف يسلبهم أموالهم، فتحدثوا فيما بينهم وعلت أصواتهم منكرين ما يقوله، فرفع يده وقال بصوت مرتفع: «يجب حفظ هذه الأموال، ومن ثمّ نوزعها حال عودتنا للوطن، لا نريد لأحدنا أن ينشغل بما لديه من مال عمّا هو قادم، يجب على الجميع النظر فقط إلى المصلحة العامة».

رد «مانويل»: «صدقت أيها القبطان، وها هو ذهبي أضعه بين يديك».

بينما تقدم «لذريق» وقال: «وماذا عن جائزتي أيها القبطان؟ جائزة رؤيتي للأرض.. تلك الجائزة التي وعدتني بها».

نظر «كريستوفر» إلى «لذريق» وقال مستنكراً: «كنت قد قلت من رأى اليابسة أولاً ولم تكُ أول من فعل».

نظر البحّارة بعضهم إلى بعض متعجبين ومنكرين فقال قائلهم: «فمن إذا؟».

- أنا من فعل ورأى، لذا لا حق لأحد في تلك الجائزة غيري.

صاح «مارتين»: «بل هو «لذريق»».

وردد البحّارة: «أجل هو «لذريق»».

جزّ «كريستوفر» على أسنانه وبدا كمن سيزمجر وهو يصيح بهم: «بل أنا من رأيت ذلك وتوقعته عندما قلت لكم خلال ثلاثة أيام وقد صدقت».

ثم رفع يده وقال: «والآن اجمعوا الذهب، فلا يحمله أحد منكم، واجعلوه في هذه السفينة».

غضب «لذريق» من كذب «كريستوفر» وتقدم للأمام، فهمس له «مارتين» وقال: «لا داعي للحديث معه، فجميعنا يعرف كذبه، ولكن هو القاضي والخصم في الوقت ذاته.. أما نصيبك من الذهب فلن نعجز حيلة لأخذه، فلا

تظهر الآن ما قد تندم عليه غداً، ودعه يمرح قليلاً بهذا الإفك والكذب وتأكد أنني لن أسكت على ما يفعل».

وبهذه الكلمات صمت «لُذريق» ولم يتحدث، وقد علم أن لا قيمة لحديثه إن فعل، وجمع البحارة الذهب ووضعوه في سفينة «القديسة مريم» حتى إذا اطمأن «كريستوفر» لذلك، وضع حراسة مشددة على الذهب، وأكمل وباقي السفن الرحلة.

وفي السفينة جلس «مانويل» جوار «كريستوفر» وهو يقول: «لقد كانت أياماً عصيبة كدنا أن نهلك فيها بعدما تفتشى المرض فينا ونفد الطعام في البحر.. آه يا سيدي من كان يظن أن نصل إلى هذه الأرض! وتلقى تلك المعاملة الطيبة من سكانها، فقد عاملونا كأجمل ما يكون، ولو أنهم فعلوا بنا ما نفعله بالنازليين شواطئنا، لقتلونا جميعاً».

اعتدل «كريستوفر» وقال: «أنا.. أنا فقط كنت على يقين بذلك، كنت على يقين بأنني سأبلغ تلك الأرض، أنا فقط صاحب هذا العمل العظيم، فلولا يلمات الجميع يأساً أو غرقاً، نعم أنا من قرأ عن هؤلاء وعرفهم قبل أن يلقاهم».

ثم نظر إلى «مانويل» فوجده متعجباً فقال له: «من أعطى «خشخاش بن سعيد» ذلك الذهب وهو في قلة من أمره؟ ولا يملك غير سفينة واحدة، قطعاً هم قوم مسالمون لا يقتلون الغرباء».

\*\*\*

## (6)

وسط أصوات الأمواج المتلاطمة استمرت السفن الثلاث في الإبحار حول القارة الجديدة، ولكن بمسافة معينة لا تسمح للسفن بالبعد كثيراً عن الشاطئ! والبحارة جميعاً فرحون بما فعلوا، وقد عادت لهم البسمة والفرحة، وعادت الآمال تراودهم والخيالات تمنيههم وهم لا يصدقون كمية الذهب التي حصلوا عليها من قرية صغيرة واحدة، فكيف لو دخلوا مدينة كبيرة أو عدة

قري! حتى جلس أحد البحّارة إلى رفيقه بعد أن رآه شارداً الذهن وقال: «فيم تفكر يا صديقي؟».

- في نصيبي من هذا الذهب، ماذا أصنع به؟ وفي تلك البلاد الغريبة العجيبة، وأهلها الطيبين السذج ونسائها الجميلة؟!

- مم وهل هذا الأمر يحتاج إلى تفكير؟ أمّا الذهب فأنصحك بالاحتفاظ به، وأمّا النساء، فلا أظن أنهن يستحقن بذل الأموال من أجلهن، فهؤلاء القوم لا طاقة لهم بالدفاع عن أنفسهم، فماذا عن نسائهم؟!

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن النساء سننالهن من دون أن ننفق ديناراً ذهبياً واحداً، فلتوفر أموالك لما هو أهم من النساء.

- كيف ذلك؟

- ألم تلاحظ خلو تلك البلاد من السلاح والخيول؟

- بلى.

- تأكد إذاً أننا قريباً سنحوز تلك البلاد برجالها ونسائها، فيكون الرجال خدماً والنساء جوارى لنا.

هزّ الرجل رأسه طرباً مما سمع، ولم يتحدث بل التزم الصمت، ثم استرخى مكانه وراح يتخيل نفسه أميراً في تلك البلاد، يأكل ما تشتهيهِ النفس والنساء يرقصن من حوله والخدم والحشم بين يديه يتلقفون أوامره، وظل في أحلامه لم يفقه منها سوى صوت «كريستوفر» وهو يصيح بفزع ويقول: «يا إلهي! حتى اليابان فيها مساجد!».

التفت الجميع إلى حيث يشير «كريستوفر»، بينما تحرك «لُذريق» إلى مقدمة السفينة، وفغر فاه وهو يشاهد المسجد أعلى التلة مجتهداً في إخفاء مشاعره وسعادته، وقد انتعشت روحة كثيراً، وغمرت الفرحة قلبه وعقله، ولولا خوفه لكبر وسجد من الفرحة والسعادة، فاقترب منه صديقه «مارتين» وقال له بحزم: «انتبه لما تصنع، ولا تظهريّ الفرح والسعادة، فيلاحظك البحّارة وما زلنا في قبضتهم، ولا ندري ماذا سيكون في قادم الأيام؟ فاحفظ لسانك ونفسك».

تَنهَّد «لُذْرِيْق» وقال: «حَسَنًا حَسَنًا».

«مارتين» بصوت عالٍ: «إي والله إنه لمسجد».

بدا التآفف والضجر واضحين على وجه «كريستوفر» فإذا الصمت يرفرف على السفن الثلاث، وهم ينظرون إلى الهلال فوق المسجد، حتى إذا مرت بضع دقائق والجميع ينظرون، إذ بالمؤذن وبصوتٍ عربي يقول: «الله أكبر الله أكبر...».

ففزع «كريستوفر» وانتابه الخوف والرهبة، فإذا بصوت «مارتين» يقول: «هل نكمل رحلتنا حتى نبتعد عن هذه القرية يا سيدي؟».

تمالك «كريستوفر» نفسه وابتلع ريقه قبل أن يقول: «بل ننزل فيها حتى نعرف من هؤلاء، ولا أظنهم يغدرون بنا أو يقتلوننا أو يحاربوننا».

حاول «لُذْرِيْق» ثنيه عن الوصول إليهم: «إن كنت تخشاهم فلم لا نبتعد عنهم؟».

- هذه رحلة استكشافية، لذا يجب علينا التعرف على كل تفاصيل تلك البلاد وجغرافيتها وأهلها، وإلا فلن نسيطر عليها يومًا، فمن أراد السيطرة على مكان وجب عليه معرفته ودراسته جيدًا، ولا تنسوا أننا سنقدم للملوك الكاثوليك تقريرًا كاملًا عن رحلتنا، فماذا لو سألونا عن تلك البلاد؟ انتظروا قليلًا ثم لترسو السفن على الشاطئ، وليأخذ كلُّ منكم حذره، فلا ينظر إلى نساء هؤلاء أو يتحدث عمَّا حدث في الأندلس أمامهم!

طأطأ البحَّارة رؤوسهم، وقد انتابهم الرهبة والخوف، أمَّا «كريستوفر» فقد انحبست أنفاسه، وهو يتجه بسفنه صوب الشاطئ، حتى إذا رست السفن الثلاث، ونزل البحَّارة شاهدوا جنسًا من البشر بيض اللون، خشن الشعر، كانوا مزارعين، وصيادين في البحر، وكانوا شعبًا موحدًا ومسالماً، يكرهون التعدي والعنف، وكان دينهم الإسلام، ولغتهم العربية! وبينهم أناس سود الشعر سود البشرة والجميع يعيشون في سلام ووثام.

تحرك البحّارة وسط الناس بين استغراب شديد من أهل المدينة، فقال «كريستوفر» لـ«لُذريق»: «انظر إليهم، إنهم يلبسون لباسًا قطنيًا شبيهًا باللباس الذي تلبسه النساء الغرناطيات المسلمات».

- أجل.. وأظن أيضًا أنهم يتحدثون العربية.

- رداء من القطن، وأغطية للرأس والله إنهم محمديون.

- أخفض صوتك يا سيدي، لا يسمعك أحدهم ونحن بينهم فالحذر الحذر.

- أو تراهم يعرفون القشتالية.

- مَنْ يدري؟!

- صدقت.

وبينما هم يتحركون إذ يبعث الجند يتقدمون صوبهم، فارتعد «كريستوفر» كقط في ليلة شتاء باردة وتوجس خيفة، وكذا معظم البحّارة أما «لُذريق» و«مارتين» وقائد السفينة الثالثة فلم يهتزوا أو يخشوا شيئًا، بل إن «لُذريق» شعر براحة كبيرة وشماتة عظيمة وهو ينظر إلى «كريستوفر» وقد بدا كفأر في مصيدة... ووسط «جمرة» تحدث قائد الجند وقال: «من أنتم؟».

نظر البحّارة بعضهم إلى بعض ولم يعرفوا ماذا يقولون! فهم لم يفهموا اللغة العربية، وكذا أفزعهم صوت الجندي المرتفع بخشونة صوته، حتى إذا أعاد الجندي السؤال مرة أخرى ما كان من «كريستوفر» إلا أن نظر إلى «مارتين» وقال: «ماذا يقول هذا؟».

ولم يكد «مارتين» يجيب حتى أشهر الحراس حربونهم فقال «مارتين» بلغة عربية: «نحن غرباء، دفعتنا الأمواج إلى هنا يا سيدي».

أشار الجندي إلى رجاله فأنزلوا الحربون، بينما قال «كريستوفر» لـ«لُذريق»: «الأشرار يحملون السلاح، فهم غير أهل التاينو».

- هؤلاء مثلنا نحن الإسبان.

- يجب أن يراكم الملك الآن، فلا يحق لغرباء أن ينزلوا المدينة، ولا يتقدموا للقاء الملك إلا ويأخذون الإذن منه.

- لا بأس أيها الجندي الطيب.



تحرك الجندي وخلفه البحّارة وهم ينظرون إلى هنا وهناك، فقال «كريستوفر» لرفيقه «مانويل» بصوت خافت: «وكأننا في غرناطة وبلاد المحمديين، أوف لهم لو أن لي قوة لذبحتهم عن بكرّة أبيهم، فلا يحق لهؤلاء الحياة في سلام أبداً».

- لا يسمعك أحدهم فتهلكنا يا سيدي.

هز «كريستوفر» رأسه وتابع السير، حتى وصل الجميع إلى قلب جزيرة جمرة بجوار قصر المدينة، ومسجدها الجامع، حيث أنزل «كريستوفر» ورفاقه وقد قدم لهم بعض القائمين على المكان الطعام والشراب، فأكلوا وشربوا، وقال «كريستوفر»: «ما كنت أعرف أنك تجيد اللغة العربية يا «مارتين»!».

- تعلمتها من بعض الموريسكيين يا سيدي.

- لا بأس إن كان في تعلمها معرفة لما قد يضمه لنا هؤلاء.

وما إن أتم الجميع طعامهم، حتى تقدم إليهم بعض الحراس، وأخذوهم إلى حيث الملك «عبد الله بن أبي بكر» الذي كان يجلس وبالقرب منه ابنه «مالك».. اصطف البحّارة جميعاً وترتبوا حسب منازلهم، فكان «كريستوفر» في الصدارة يليه «مارتين بينسون، ولذريق الطرياني» ثم باقي البحّارة.

«لذريق» هامساً لـ«مارتين»: «انظر، إنه أسود اللون».

- نعم. على عكس معظم أهل تلك القرية.

- صه.

«كريستوفر» مشدوهاً: «ملك أسود! كيف لهؤلاء أن يسودهم أسود؟».

أجابه «مانويل»: «هؤلاء هم المسلمون يا سيدي، لا يرون بأساً في ذلك ولا نقيصة».

تحدث الملك «عبد الله» وهو على كرسيه: «علمنا من جنودنا بنزول أغراب بيننا، فمن أين أتيتم؟».

نظر البحّارة بعضهم إلى بعض ولم يتفوه أحدهم بكلمة، فمعظمهم لا يعرفون اللغة العربية، لذا نظروا جميعاً إلى «مارتين» الذي تقدم وقال: «أتينا يا سيدي من خلف البحر المظلم، من بلاد «قشتالة» و«أراجون» حيث دفعتنا الأمواج إلى هنا بعد أن ضللنا الطريق وكدنا نهلك لولا عناية الرب».

الملك مستغربًا: «قشتالة؟!».

- أجل يا سيدي، بلاد الإسبان.

- هل عندكم نبأ عن بلاد غانا؟

- لا يا سيدي.

- فأين «قشتالة» تلك؟ فلم أعرفها من قبل.

- إنها مملكة عظيمة يا سيدي يحكمها الملوك الكاثوليك.

- لم أسمع عنها، ولم يحدثني أبي أو جدي عنها، فأين هي تلك البلاد التي

تتحدث عنها؟

هزَّ «مارتين» رأسه وتحدث قائلاً: «كانت يا سيدي تسمى بلاد الأندلس،

وذلك عندما كان يحكمها المسلمون، وهي كائنة بجوار مملكة الفرنج و...».

وقف «عبد الله» وقد تبدلت وتغيرت ملامح وجهه وقطع كلام مارتين

وقال: «تقول الأندلس».

- أجل يا سيدي.

- إنها مملكة عظيمة حكمها رجال أبطال مسلمون، وهي نهاية بلاد

المسلمين من الشمال والغرب، فمن يحكمها اليوم وكيف صارت الأندلس

قشتالة؟ كيف تحولت وتبدلت وضلت حتى حكمها غير المسلمين؟

- لقد استطاع الملوك الكاثوليك بعد قرون من الحروب والقتال، أن يهزموا

المسلمين ويطردونهم منها يا سيدي، وبعد سقوط حكم المسلمين قرر

الملك «فرناندو» تبديل اسم الأندلس إلى «قشتالة» و«أراجون».

ظهر الحزن في وجه «عبد الله» وأصابه الوجوم، وابنه مالك ينظر إليه

وقد اعتلاه الحزن أيضًا، فعاد لكرسيه وقال: «انهزم المسلمون وطردوا من

ديارهم، وجعلتم الأندلس قشتالة! وكأنكم تريدون تبديل التاريخ وتزييفه، فلا

يأتي بعد ذلك من يطالب بها، وكيف يطالب بشيء لم يعد له وجود؟ تريدون

تبديل هوية بلد ومحو آثار أمة قائمة!».

أحنى «مارتين» رأسه خجلًا ولم يتحدث، بينما ظهر التأثر على وجه

«لذريق» أما «كريستوفر» فكان قد بلغ به الخوف مبلغه وكذا باقي البحارة،

وتابع الملك يقول: «وأين باقي المسلمين مما يفعل هؤلاء الكاثوليك؟! بل أين هم الأندلسيون؟ وكيف لم يتصدوا لهؤلاء، ولم يموتوا دفاعاً عن بلادهم؟!».

- لقد سالم بعضهم ملوك قشتالة، وسد الباقون أذانهم رغم الاستغاثات المتكررة من عدوة الأندلس، أما أهل الأندلس أنفسهم، فقد انقسموا قبيل السقوط، وحارب بعضهم بعضاً، ثم انقضَّ القشتاليون عليهم، فأفنوا ما تبقى منهم وأرغموا من عاش على التنصر، وحولوا المساجد إلى كنائس، وأزالوا راية الإسلام من تلك البلاد.

بكى «عبد الله» حتى ابتلت لحيته، بينما نظر البحَّارة بعضهم إلى بعض وهم يتهامسون عن سر بقاء الملك الذي رفع عينه وقال لهم: «وهل أنتم تتبعون ملوك قشتالة؟».

ارتبك «مارتين» وقال: «بلى يا سيدي».

- لولا أنكم أتيتم مسالمين لقتلناكم جزاء بما فعلتم في الأندلس، ولكن لن نسمح لكم بالمكوث هَا هُنَا فتزودوا من الطعام والشراب ما شئتم، واخرجوا من ديارى لا تفسدوها بمكوثكم فيها، ثم أشاح عنهم وأكمل: «لا أريد أن أراكم ثانية، اغربوا عن وجهي».

\*\*\*

## (7)

كان معظم البحَّارة يخشون المقام بجزيرة «جمرة» خوفاً من بطش الملك الغاضب لسقوط الأندلس، وكان «مارتين» قد نبأهم بما دار بينه وبين الملك، لذا تنفسوا الصعداء لمجرد خروجهم منها، وتحرك الجميع صوب الشاطئ، وبدأ البحَّارة في صعود السفن، وهم يشعرون أنهم قد نجوا من موت محقق، أما «لُدريق» فقد اقترب من «مارتين» وقال له: «أريد البقاء هنا والعيش معهم.. لا أريد العودة معكم».

رمقه بنظرة حادة وقال: «لا تفعل، فهؤلاء قوم لن يستطيعوا حمايتك ولا حتى حماية أنفسهم، وهذا الثعلب معنا سيعود لهم، ففكر جيدًا ولا تتعجل موتك وهلاكك».

- كيف تقول ذلك ولو أرادوا قتلنا الآن لفعلوا؟

- لن يفعلوا، ولن يغفرها لهم «كريستوفر».

- ماذا تقصد؟

- لا تكن غيبياً، فرحلتنا هذه إنما هي مقدمة لما سيفعله الملوك الكاثوليك بعد ذلك، والآن اركب السفينة ولا تحدث أحدًا بذلك.

صمت «لُدرِيق»، وركب السفينة وكذا باقي البحّارة، ليكتمل صعودهم ويتابعوا إبحارهم عبر بحر الظلمات بحثًا عن أرض جديدة وذهب جديد، وكانت كل خطوة يخطونها يسجلها «كريستوفر» في مذكراته، وبعد أيام رسوا على كوبا والبحّارة متوجسون، هل يعاملهم أهل تلك المدينة كما أهل التاينو؟ أم كأهل جزيرة جمرة؟ وما زالوا متوجسين حتى نزلوا، وكانت كوبا تشبه كثيرًا «ماجوانا»، وكان أهلها أيضًا يرتدون جلود الحيوانات وريش النعام على رؤوسهم، وفي كوبا أحسن الأهالي بدورهم التصرف، وتنفس «كريستوفر» الصعداء، وقد كان يظن أنه لن يجد إلا المسلمين بعد ذلك، فلما رأى الوثنيين فرح وراح وبحارته ينشدون (آفي ماريا) التي تعتبر من أشهر وأقدم الصلوات باللغة اللاتينية، وتعني «السلام عليك يا مريم»، وقد حاول أهالي كوبا أن ينضموا لضيوفهم في إنشاد الترنيمة، وبذلوا جهودهم في رسم علامة الصليب.

ووسط الاحتفالات أخرج «كريستوفر» من جيبه بعضًا من الذهب، واقترب من بعض أهل القرية وأشار به إليهم، ففهموا مراده وأرادوا مساعدته، فأشاروا عليه بإشارات غريبة، فنظر إلى «مانويل» الذي قال له: «أظنهم يقولون إن الذهب يوجد عند الخان الأعظم».

«كريستوفر» وهو ينظر إليهم: «أي خان يقصدون؟».

- لا بدّ أنهم يقصدون خان الصين الأعظم أم أن لـ «لُدرِيق» رأيًا آخر؟

وكان «لُذريق» غارقًا في أفكاره عن «جمرة» وأهلها، فلم يهتم بالنقاش معهم بل إنه لم يسمعهم، وكان مرتين يلاحظ ذلك، فأراد تنبيهه وإشراكه في هذا الحديث، فلكره بيده فقال لُذريق: «لا، لا أعلم شيئًا من لغتهم ولا حتى ماذا يقصدون؟».

- ما الذي شغلك لهذا الحد يا «لُذريق»؟

- لا شيء، ولكنني متوَعك بعض الشيء، بعض الشيء يا سيدي.

ضاقَت نفس «لُذريق» فنهض من مكانه وقال: «ربما من الأفضل أن أخلد إلى النوم».

وتحرَّك حتى ابتعد قليلًا عن الصخب، فوضع رأسه على بعض الحشائش وحاول النوم، أما «كريستوفر» فقد حاول أن يفهم مقاصد أهل كوبا فلوح لهم بالذهب مرة أخرى.

- لا بُدَّ أنهم بالفعل يقصدون الخان الأعظم.

- وأنا أرى ذلك أيضًا.

متنهدًا قال «كريستوفر»: «إذن يجب أن نرسل له سفارة تعبر عن المحبة والود، إذ لا يجب أن ننزل أرضه ولا نرسل له، فيظن أننا أعداء له معتدين على بلاده، وهذا لن يفعل كما فعل أهل جزيرة جمرة بل لن يتردد عن قتلنا».

ردد «مارتين» مستفهمًا: «سفارة!».

- أجل سفارة أم نسيت أننا مبعوثو الملوك الكاثوليك إلى هنا؟

- لا لم أنس ولكن...

- دع هذا الأمر لي.

ثم أخرج من طيات ثيابه أوراقًا وختمها بخاتمه، وانتخب اثنين من رجاله قائلاً لهما: «قدموها إلى الخان الأعظم وأخبروه أننا أصدقاء لا أعداء».

- أمرك سيدي.

انتهت الاحتفالات وتحرك الرجلان، ليلتقيا الخان الأعظم وقلوبهما وجلة، فهما يعلمان أنهما يكذبان بخصوص السفارة، ويخشيان سطوة الخان فتحركا متوجسين خيفة، أما «كريستوفر» ورجاله، فقد خلدوا إلى الراحة والترقب

بعدما علموا أن الذهب جميعه موجود لدى الخان فقط، ولن يستطيع إنسان أن يحصل على شيء إلا بإذنه وبالتالي لن يستطيعوا تحصيله، فانتظروا ماذا سيقول لهم الخان، وهل سيسمح لهم بالبحث عن الذهب والمقام في بلاده أم سيطردهم منها؟

وانطلق الرسولان يتحركان في أرض غريبة لا يعرفانها ولا يعرفان لغة أهلها، فكانا كلما تقدما صوب قرية صغيرة أو حتى كوخ، خرج أهلها بحفاوة كبيرة يستقبلونهما ويقدمون لهما الطعام وريش النعام وهما يستعجبان ذلك، وأهل البلاد يلوحون لهما بأيديهم وينظرون إليهما نظرات استعجاب واستغراب، خصوصًا وأنهما من ذوي البشرة البيضاء والأعين الزرقاء التي لم يرها أحد هنا من قبل، وظل الرجلان ينتقلان من مكان إلى مكان لا يهتديان إلى شيء حتى أجهدهما التعب وكادا أن يهلكا...

وبعد رحلة ظلت يومين قررا العودة لـ «كريستوفر» الذي ما إن التقاهما حتى شعر بخيبة أمل كبيرة، وعلم أن لا وجود للذهب هنا ولا فائدة من البقاء في هذا المكان، ولكن هل يخرج من كوبا بلا مكاسب؟ كان هذا هو سؤال «كريستوفر» الذي لم يحيره كثيرًا، فقد قرر الحصول على أي مقابل من هؤلاء البسطاء، الذين احتفلوا معه وقدموا له الطعام ورحبوا به، فوضع خطة مع رفيقه «مانويل» إذ اجتمع به وقال: «في منتصف الليل خذ مجموعة من البحّارة واقتحم بهم أكواخ هؤلاء الهنود، وخذ من استطعت من نسائهم إلى السفن الثلاثة ومن قاومك منهم اقتله، ولكن لا تثر ضجة فيجتمع الجميع حولنا ويقضون علينا».

ثم أمسك بكوب ماء شرب منه قليلاً وقال: «لقد ضجر البحّارة وزاد غيابهم عن نسائهم، فإن أردنا البقاء في هذه الرحلة فعلينا أن نعطيهم المال أو النساء، والنساء هنا أقل كلفة من الأموال».

هز «مانويل» رأسه ووافق حديث «كريستوفر» أمنية في نفسه، فأخذ «مانويل» نفسًا عميقًا وقال: «أما أنا فأريد الآن النساء، فقد اشتقت لهن وكنت أظنك لن تفعل».

- يجب أن يكون لنا هدف في كل مكان ننزله وتطأه أقدامنا، فإن نلنا غرضنا وإلا كانت رحلتنا تلك بلا قيمة ولا فائدة.

وفي منتصف الليل تسلل «مانويل» خارجًا من كوخه ومعه خمسة عشر بحارًا جميعهم يحملون السيوف فانقضوا على أكواخ الغرباء، وحملوا منهم سبع نساء، وقتلوا من دافع عنهن من الرجال والأطفال وأبحروا على جناح السرعة خوفًا من بطش الأهالي ونقمتهم.

وتحركت السفن الثلاث بسرعة كبيرة، حتى إذا أشرقت الشمس كانت قد ابتعدت بمسافة كافية عن الشاطئ ووضع «كريستوفر» سيدتين من النساء على كل سفينة، واختص نفسه بالسابعة، وأثار هذا التصرف نقمة باقي البحارة الذين رأوا أنه يميز نفسه عنهم في كل شيء، أما «لُذريق» فقد نقم هو الآخر هذا التصرف ليس طمعًا في النساء، ولكنه كان يقول: «كيف نقابل إحسانهم إلينا بسبي نساءهم والاعتداء عليهم»، حتى إنه لم يستطع كتمًا، فذهب إلى صديقه «مارتين» وقال وهو غاضب: «لم يزل «كريستوفر» يفعل ما يندى له الجبين، أفعال اللصوص وشيم الجبناء والخبثاء».

- إن قصدت النساء، فهو يعتبرهن أموالًا ومَتَاعًا.

- تَبًّا له ولمآربه الوضيعة.

- أما أنا، فأنقم عليه جمعه الذهب كله في سفينته دون السفينتين الأخرين وكأنه من جمعه وحده، أو كأنه لم يهد إلينا مثله، أكاد أُجزم أنه يريد أخذ الشرف له وحده، يريد أن ينسب كل شيء إلى نفسه وكأنه أبحر وحده أو كأننا لم نَرِد المهالك معه.

- فماذا أنت فاعل؟

- سأريه أنه لا شيء من دوني!

- كيف ذلك؟

ربت «مارتين» على كتف «لُذريق» وقال له: «قريبًا ستعرف كل شيء، والآن عد لعملك ولا تلتفت أنظار الآخرين».

تحرك «لُذريق» وصعد أعلى السفينة «البينتا»، أما «مارتين» فوقف يراقب «كريستوفر» وهو يقول في نفسه: تظن أنك القائد، وأنتك تستطيع عمل كل شيء بنفسك، وترانا فقط تابعين لك.. ستعلم يا «كريستوفر» أنك لا شيء من دوني، وسنرى كيف ستبحر عبر هذا البحر وحدك؟

تحركت السفن ببطء شديد، وكانت الرياح هادئةً والجو صَفْوًا، ودخل الليل وذهب «كريستوفر» لينام بعد أن أعطى تعليماته لمن معه بحفظ الذهب والمتاع، وأخذ أحد السبايا ودخل إلى مكان معين وهي تبكي، ولكن دون رحمة منه.

أما «مارتين» فلم يَنَمْ هذه الليلة، وما إن انتصف الليل، حتى أمر بحارته ومساعديه بسرعة التجديف والابتعاد عن «كريستوفر» إذ قال لهم: «سنكمل رحلتنا بعيدًا عن هذا الجنوبي الذي ظن نفسه ملكًا علينا، سنريه أنه لا شيء، ولن يصنع أي شيء من دوننا، ولقد عرضنا عليه أن يوزع علينا الذهب فأبى، فالآن نتركه ليعلم أننا أيضًا نستطيع جني الذهب والبحث عنه».

وتحركت السفينة وما إن أصبح الصباح حتى وجد «كريستوفر» نفسه من دون سفينة «البيتنا»، فكاد أن يستشيط غضبًا ولكن «مانويل» قال له: «يجب أن نهون من شأن «مارتين» حتى يطمئن البحارة، ويعلموا أنك القائد دونه، وإلا فقدوا ثقتهم بك واتجهوا للبحث عن مارتين وتنصيبه قائدًا عليهم».

حاول «كريستوفر» أن يكظم غيظه وقال: «حسنًا...».

ثم صاح في البحارة وقال: «هذا الخائن «مارتين» يظن أنكم لا شيء من دونه، يريد أن يبحث عن مجده الشخصي بينما تبحثون أنتم عن مجد إسبانيا كلها، فليرَ هذا الخائن من سيصل للمجد أولًا؟ أما الذهب فسوف نوزعه على من بقي منا وأما من ذهب مع «مارتين» فقد حظوظه، وفقد ذهبه».

وبهذه الكلمات استطاع «كريستوفر» امتصاص خوف باقي البحارة، وأطمعهم في ذهب «مارتين» ورفاقه فزادهم الطمع ثقة بـ«كريستوفر»، وتبدل خوفهم فرحًا، حتى إذا أمرهم بالتحرك بحثًا عن ذهب جديد، جَدَّفُوا بقوة وسعادة كبيرة، ولكن لقلّة كفاءة القبطان معه فقد تحطمت سفينته المعقود لها لواء القيادة، حيث اصطدمت بسلسلة من الصخور وحطمتها الأمواج والصخور عشية يوم عيد الميلاد، الذي كان «كريستوفر» ينتوي الاحتفال به كأسعد يوم في حياته، وكاد «كريستوفر» وبحارته أن يغرقوا وتحدث بعضهم عن «مارتين»، وأنه كان القائد الفعلي لهم، وأنهم دونه سيواجهون موتًا مؤكدًا...



لكن ومن حسن الحظ أن سفينة «النونية» كانت على مقربة منهم فأنقذت البحّارة، واقتحم الأهالي الطيبون أمواج البحر في قواربهم للمعاونة في إنقاذ معظم شحنة الذهب قبل أن تغرق السفينة، وواسى زعيمهم «كريستوفر» فعرض عليه ضيافته وقدم له المزيد من الذهب، وأكد له أن هناك كمية وفيرة من هذا المعدن القاتل في هايتي، فحمد أمير البحر الله على الذهب وسامحه على تحطيمه لسفينته وكتب في يومياته أن «فرناندو وإيزابيلا» سيكون عندهما الآن من الأموال ما يكفي لغزو الأرض المقدسة.

نزل «كريستوفر» وبحارته على الشاطئ وهو يتحسر على سفينته الكبرى التي تحطمت وهو ينظر إلى بعض أخشابها الطافية، فاقترب منه مساعده «مانويل» وقال: «كيف سنعود الآن لقشتالة؟».

نظر «كريستوفر» إلى البحّارة حوله فرأى بعضهم ما زال غارقاً في الوحل، وبعضهم مصاب بنزف فقال: «ما زلنا نملك سفينة تستطيع حملنا جميعاً».

- لكنك تعلم حجم المخاطرة وأيضاً ثقل وزن الذهب!

- فماذا أصنع الآن وقد تركنا الخائن «مارتين» وانسحب بسفينته؟

ثم نهض، وضرب بقدمه الأرض وقال بصوت مرتفع: «ماذا أصنع ولا سبيل إلى ترك الذهب وقد جئنا من أجله؟».

فنظر البحّارة إليه، بينما اقترب منه «مانويل» وقال: «عندي خطة لو قبلت بها».

- قل.

- هؤلاء قوم بله فماذا لو تركتني وبعض البحّارة هنا، وعدت أنت لقشتالة على أن تعود وتأخذنا وتعيدنا للوطن في أقرب فرصة ووقت، وسنبحث نحن في تلك الفترة عن الذهب، وبهذا نكون قد جنينا المزيد منه، وأنقذنا الرحلة من فشل قد يتحقق، وأيضاً لا خوف على من بقي منا في هذا المكان.

حك «كريستوفر» رأسه وفكر قليلاً قبل أن يقول: «لا حل أمامي إلا هذا، فليكن ما قلت على أن تكتب لي كل ما حدث في فترة غيابي».

هزَّ «مانويل» رأسه بالموافقة ونام القوم جميعًا ليلتهم تلك في تضييد جراحهم والاستعداد للعودة للوطن، وقد استخدموا الأراجيح الشبكية للنوم التي تعلموها من الهنود الحمر، عند الفجر استيقظ «كريستوفر» على وقع أقدام تتجه إليه، وكان ينام وبخَّارته بالقرب من الشاطئ وفي العراء، فنهض «كريستوفر» فإذا بـ«مارتين» يتقدم صوبه، نهض «كريستوفر» من مرقده وفتح عينيه بصعوبة بالغة وقال: ««مارتين» أيها الخائن».

جلس «مارتين» جوار «كريستوفر» وقال: «أجل «مارتين»».

- ما الذي عاد بك بعد الذي فعلت؟

- لقد فكرت في الأمر وعلمت أنني أخطأت خطأً جسيمًا عندما قررت الانفصال عنكم، وهأنذا أعود مقرًا بخطئي.

- بهذه البساطة؟ لو كنت في مجال الحرب وتركت قائدك أو عصيت أمري لقتلتك ولا أبالي.

- أعلم حجم ما فعلت، وأرجو صفحك وكرمك.

فكر «كريستوفر» قليلاً، وكان يتمنى لو أن لديه المزيد من السفن إذًا لم قبل عودة «مارتين»، ولكنه نظر إلى المستقبل وعودته لإسبانيا بسفينة واحدة وكيف سيكون استقباله بها، فعاد لرشده وقرر قبول عذر «مارتين» ليستفيد منه.

\*\*\*

## (8)

قرر «كريستوفر» العودة للوطن ومعه كل ما استطاع جنيته من ذهب وغرائب من هذا العالم البدائي البسيط، في الوقت الذي كان فيه أهل «ماجوانا» وأمثالهم من البسطاء ينتظرون عودته مرة أخرى ليحقق لهم أحلامهم حسب زعم «بورردوم»، أما «هيدا» فقد كانت تعلم أنهم ليسوا ملائكة، وأنهم بشر عاديون من الشرق، وقد حاولت إيضاح الأمر لوالدتها ولكن دون جدوى، فقد كانت «أناكاونا» لا تسمع إلا لعقلها البسيط ولكلام «بورردوم» المبني على الغش والوهم، ففشلت كل محاولات «هيدا» في تغيير أي شيء، واستمر الحال

كما هو عليه وزادت عند أهل «ماجوانا» قيمة «بورديوم» وأصبحوا لا يردون له كلمة.

أبحر «كريستوفر» عبر بحر الظلمات صوب شروق الشمس حاملاً حلم العودة مرة أخرى لجني المزيد من الذهب والمال، وضم تلك البلاد وأهلها إلى حوزة الملوك الكاثوليك، وذلك بعد أن وضع خطته ودون كل ما رأى، وعلم ما قد يحتاجه من أدوات وقوة للسيطرة على تلك الأرض الكبيرة.

وعلى سطح السفينة وقف «كريستوفر» ينظر إلى الشرق وإلى تلك اللحظة التي سيلتقي فيها الملوك الكاثوليك وكيف سيكون اللقاء؟ وكم ستكون المكافأة؟ ثم تذكر «بياتريس» وكيف ستستقبله وهل أنجبت ذكراً أم أنثى؟ ثم اتجه إلى خزائن الذهب في أسفل السفينة وكانت ممتلئة عن آخرها، فراح يلهو ويحديق النظر إليه، ثم اختار عقداً جميلاً وقرر تقديمه هدية لـ «بياتريس».

وفي الوقت ذاته الذي كان فيه «كريستوفر» يحديق إلى الذهب ويقرر مصير الرحلة القادمة، كان «مارتين» يشعر بمهانة كبيرة، فتحرك صوب مقدمة السفينة ورنا ببصره إلى تلك الأمواج الهائلة، ثم نظر إلى سفينة كريستوفر وقال في نفسه: سيذهب «كريستوفر» بكل المجد والذهب ولن يتذكر أحد القبطان «مارتين آلونسو» ولا أحد من رفقاته رغم ما قدمنا.

ثم أدار وجهه للخلف ووضع يده على ذقنه وقال متنهداً: «لولانا ما وصل هذا الجنوبي إلى شيء، ولا تحرك قيد أنملة، ومن يدري فلربما ابتلعه هذا البحر وغرق في مجاهله؟».

وظل «مارتين» يفكر في تلك الأمور لم يخرجها منها سوى «لذريق» الذي أمسك ببعض الحبال، وتعلق بها وهو ينظر إلى الشرق، فاقترب منه «مارتين» وقال: «إلى ماذا تنظر؟».

- لم أكن أعلم أن هواء الشرق عليل كما اليوم، فقد اشتاقت نفسي لإشبيلية وما فيها، وإني لأتعجب لذلك رغم ما حدث لي ولأهلي فيها.
- ثم زفر بشدة وقد ذرفت عيناه بالدمع وهو يقول: «رحمك الله يا أبي، فقد حرموني حتى من قبرك بعد أن أحرقوا جسدك الطاهر».
- هون عليك يا صديقي، وجفف تلك الدموع.

- ليت العين وحدها التي تبكي يا «مارتين» ولكن دموع القلب لا دواء لها ولا شفاء.

ثم كفكف دموعه، ورفع بصره فإذا مارتين متجهم الوجه فقال له «لُذريق»: «أما أنا فحزين على ما حدث لأهلي فماذا عنك؟».

- ألا تنظر إلى ما يحدث؟ ألا ترى هذا الجنوي قد جمع المال وحده لا يريد لأحدنا أن يشاركه في شيء، وكأنه خرج وحده من الأندلس، فصال وجال وعاد بكل هذا المجد والمال.

- أخفض صوتك يا «مارتين».

- ألا تنظر إلى «كريستوفر» كيف يتعامل معي... إنه لم يكتفِ بجمع الذهب في خزائن لا يقترب منها أحد غيره، بل أصبح يعاملنا كخدم وعبيد عنده، إنه حتى لا يقدرني كأقل بحار عنده، وأنا من أنا، والجميع هنا يعلمون فضلي، وأنه لولاي ما عاد من هناك، ولا وصل إلى أي شيء فمن يظن نفسه هذا الجنوي الحقير؟

- هو قائد هذه الرحلة ونائب الملك، وهو بعد يتوجس منك خيفة بعد الذي كان، وبعد علمه أنك تبحث عن مجد لنفسك وتفكر في مزاحمتة القيادة، فلا غرو أن يتخوف منك.

اعتدل «مارتين» وكان متكئاً على أحد سوارى السفينة وقال: «لن يستمر هذا الوضع طويلاً أقسم إنه لن يستمر».

- لقد جربت وحاولت ولم تصل إلى شيء، فتريث حتى تنجلي الأمور ونصل إلى الأندلس، وإلا فلن تملك أن تصنع الآن أي شيء.

- لم يحالفني الحظ هذا كل شيء، أما الآن فلن أضيع الفرصة أبداً... وسأفسد عليه أمره.

- ماذا؟

- سأترك «كريستوفر» بمفرده، وأرحل وأنا على يقين أنه لن يصل بسهولة، وربما يضل طريقه وتبتلعه الأمواج فهو ليس خبيراً بالبحار وأحوالها ولا حتى طرقها، وإن كان قد وصل إلى آسيا فهذا بفضلتي وبفضلك وباقي البحارة هنا.

- تتركه ثانية؟

- أجل وأريدك معي لتكتمل الخطة، فلا يجد مَنْ ينقذه مما هو فيه فلا تخذلني هذه المرة أيضًا!

- لا.. سأبقى معه.. لا أريد مغامرة غير محسوبة يا صديقي، وأنا لا أسعى إلى مال أو شهرة مثلك فطريقي غير طريقك، ولو أنك اخترت البقاء في جزيرة جمرية لبقيت معك، وتوحدت طرقنا وأهدافنا، أما وإنك قد عدت وعدتُ معك، فدعني أكمل كما أرى ومن جهتي أرجو لك كل التوفيق.

- إذاً لا تخبر أحدًا بحديثنا.

- لك هذا، واسمح لي بالانتقال إلى السفينة الأخرى.

- ليس الآن.

- فمتى؟

- عندما تحين ساعة التنفيذ.

لم يكد «مارتين» يتم كلامه حتى هبت ريح عاصفة صفعت السفينتين وكادت السفن أن تغرق لولا مهارة «مارتين» وبحارته الذين نجحوا في تسيير السفن، وتنفس «كريستوفر» الصعداء وشعر بأن عناية الرب ترافقه، وممرت بضعة أيام أخرى والأمور كما هي حتى إذا اقتربوا من الشرق وفي منتصف الليل تخلى عنه «مارتين» مرة أخرى مؤملاً أن يكون أول من يصل إلى إسبانيا بالأنباء العظيمة عن اكتشاف آسيا.

وما كاد «كريستوفر» يعلم بانفصال «مارتين» عنه مرة أخرى حتى كاد يتميَّز غضبًا وشعر بعجزه الشديد، وهو لا يملك أن يجاري «مارتين» في الإبحار، ولا حتى يتتبعه فقد بزغ الفجر واختفى معه «مارتين» بسفينته.

خرج «كريستوفر» على بحارته وقال: «يظن «مارتين» أننا سنعجز من دونه، فأروه أنكم لا تقلون مهارة عنه».

وما إن علم البحارة بذلك حتى هاجوا ووقعوا في يأس شديد، فقد كانوا على يقين بأن «مارتين» هو الوحيد القادر على العودة بهم سالمين، ولكن ومع ذلك ورغم خشيتهم من البحر المظلم حولهم، وفقدانهم الثقة بـ«كريستوفر» فقد اجتهدوا التجديف بقوة عساهم أن يصلوا إلى الشاطئ في أمان وسرعة.

وعند منتصف الليل شاهد «لُذريق» الشاطيء من بعيد، فبشر البحّارة بذلك وعاد للسفينة الفرح والسرور، ولم تمر ساعات حتى أُلقت السفينة مراسيها على الشاطيء، بعيدًا عن «سانتا ماريا» أليس هي ما تحطمت بـكولومبس في شاطيء الأزور...

علت أصوات البحّارة وراحوا يرسمون علامة الصليب ويشكرون الرب على نجاتهم، وقد نذر بعضهم الحج إلى مزار العذراء بالمدينة ابتهاجًا بنجاتهم، فصاح بهم «كريستوفر» الذي علم أنهم ليسوا في أراضي قشتالة، وإنما في البرتغال وقال لهم: «لا تفعلوا وابقوا على متن السفينة».

ولكن لم يسمع له أحد، وانطلق نصف البحّارة إلى الشاطيء، وهم يثيرون القلاقل في الطرقات، فاعتقلتهم السلطات البرتغالية، وأُلقت بهم في السجن لمدة أربعة أيام، بينما كان «كريستوفر» يتميز غيظًا وقد فقد نصف بحاربه مما جعل حركة السفينة مستحيلة.

ووسط أمواج البحر وأصوات الرياح جلس «كريستوفر» على سفينته لا يعلم ماذا يصنع؟ فاقترب منه «لُذريق»، وكان يرتدي ثيابًا غليظة فقال وهو يفرك يده من شدة البرد: «ماذا سنصنع الآن؟».

- لن نستطيع الحركة بهذا العدد من البحّارة.
- لقد مرت أربعة أيام ونحن هنا، وإن لم يتدخل أحد للإفراج عن البحّارة فلن يطلقوا سراحهم.
- اسمع يا «لُذريق» خذ بعض الذهب واهب إلى صاحب الشرطة وافتيدهم بالمال، فإنني لا أستطيع ترك السفينة وأنا قائدها ولا أثق بأحد هنا غيرك.

فكر لُذريق قليلًا ثم قال: «لا بأس... فأين المال؟».

فتح «كريستوفر» صندوقًا من الذهب وأخرج منه بعض القطع، وأعطاهما لـ «لُذريق» الذي خبأها في ثيابه، ونزل من السفينة واخترق شوارع المدينة، حتى وصل إلى صاحب الشرطة، فافتدى البحّارة بالمال، وعاد للسفينة وفرح البحّارة و«كريستوفر» أيّما فرح بهذا العمل.

وأقلعت سفينة «النونية» مرة أخرى، ولكن عاصفة أخرى دفعتها بعيدا عن طريقها المرسوم، ومزقت قلوها فاغتم البحارة، ونذروا أن يقضوا أول يوم يطأون فيه الأرض صائمين على الخبز والماء، وأن يعملوا بالوصايا العشر.

وفي الثالث من مارس رأوا شاطئ «لشبونة» وعلى الرغم من أن «كريستوفر» علم أنه كان يخاطر بالوقوع في ورطة دبلوماسية فإنه قرر أن يرسو في «لشبونة»، وفضل هذا على محاولة قطع مئتي وخمسة وعشرين من الأميال الباقية للوصول إلى «باولوس» مستعيناً بقلع واحد، واستقبله «جواو الثاني» بحفاوة ما كان «كريستوفر» يتأملها وحاول إغراءه بالمال ليبقى معه، ولكن «كريستوفر» اعتذر للملك، وانتهز «كريستوفر» وجوده في «لشبونة» فسأل على «بيرستريلو» وعلم أنه مات حزناً على ابنته!

ورُمت سفينة «النونية» وفي الخامس عشر من مارس وصلت إلى «باولوس» بعد عناء وهول لا حد لهما بعد مرور 193 يوماً من مغادرة ذلك الميناء.

وكان «مارتين» قد رسا شمالي إسبانيا قبل ذلك ببضعة أيام وبعث برسالة إلى «فرناندو» و«إيزابيلا»، ولكنهما رفضا أن يقابلاه هو أو رسوله متهمينه بالخروج عليهما وعلى طاعة نائبهما «كريستوفر»، ففر «مارتين» يغمره الفرع والخوف ولازم فراشه حتى مات.

\*\*\*

## (9)

وقف «كريستوفر» وجميع البحارة وهم ينظرون إلى اقترابهم من الشاطئ رويداً رويداً، يكاد الرجل منهم أن يترك السفينة ويسابقها للوصول إلى حافة اليابسة، حتى إذا وصلت السفينة إلى الشاطئ ألقى الكثيرون منهم بأنفسهم إلى الماء، ولم ينتظروا دورهم في النزول فرحاً وابتهاجاً، أما «كريستوفر» فقد انتفخت أوداجه فرحاً وغروراً، وهو يرى مندوبين عن الملوك الكاثوليك في انتظاره.

ونزل «كريستوفر» على ظهر أحد المراكب الصغيرة التي نقلته و«لُذريق» إلى اليابسة، حتى إذا نزل من المركب الصغير وجد الحراس في انتظاره

ومعهم الركائب اللازمة... تحرك «كريستوفر» وامتطى ظهر حصانه فاقترب منه «لذريق» وقال: «ليسمح لي سيدي القائد بالذهاب إلى إشبيلية».

- قد علمت أن لا أحد لك هناك، فلمَ لا تبقى معي؟

- لي فيها أستاذي ومعلمي، وقد أردت أن أراه وأطمئن عليه.

- لا بأس، ولكن لا تتأخر كثيراً، فما زلت بحاجة إليك والرحلة لم تنته بعد، فالمجد والمال في انتظارنا هناك.

وسط سهيل الخيل والبنود الملونة تحرك «كريستوفر» حاملاً معه الذهب في صناديق كبيرة، واتجه صوب «غرناطة» تحدوه آمال عريضة في أن يوافق الملكان على خطته العظيمة في العودة للعالم الجديد، فقط يجهزونه بما يحتاجه إلى تأسيس مملكة عظيمة لهم غرب بحر الظلمات، مملكة يكون هو الملك فيها نائباً عنهم....

تحرك «كريستوفر» وحراسه وبعد فترة من الزمن لاحظ أن الحرس يتجهون به إلى طريق لا يعرفه فقال لهم: «لماذا لا نتجه مباشرة إلى غرناطة حيث الملوك الكاثوليك؟».

- لقد ترك الملوك «غرناطة» يا سيدي منذ زمن... منذ أن استقرت أحوالها.

- لو لم يتعجل «لذريق» لاصطحبناه إلى «إشبيلية».

- لكنهم ليسوا بها يا سيدي.

- فأين هم إذا؟

- لقد اضطربت أحوال برشلونة، واعتدى الإفرنج عليها فخرجنا إلى هناك لمتابعة ما يحدث.

سحب «كريستوفر» رسن جواده فتوقف فنظر إليه قائد الحرس وقال: «ما الأمر؟».

ظهر التوتر على وجه «كريستوفر» وقال: «هل يعني ذلك أننا الآن نتجه إلى برشلونة ولن نخرج على «غرناطة»؟».

- أجل يا سيدي.



- ولكنني أريد أن أعرج على خليلتي «بياتريس» في «سنتافي» لأطمئن على مولودها، على أن أعدك أننا لن نتأخر كثيرًا في «غرناطة».

الحارس بعد تفكير قصير: «لا بأس، فلن يزعج ذلك الملوك الكاثوليك».

وكان «كريستوفر» لا يريد الانطلاق مباشرة إلى الملكين، فقد كان ينتوي النزول في بيته وإخفاء بعض الذهب قبل إيداع كل ما لديه منه في حوزة الملوك الكاثوليك، وتم له ما أراد، وما إن وصل إلى «سنتافي» حتى دخل إلى «بياتريس» وهي لا تكاد تصدق، فاقترب منها ونظر إليها بسعادة كبيرة وقال لها: «أخيرًا «بياتريس»».

لم تكد «بياتريس» ترى وجه «كريستوفر» حتى هبت واقفة والسعادة تملأ وجهها وقالت: «كنت أخشى ألا تعود؟».

ثم تعانقا بقوة..

- لقد كنت حافزًا لي للنجاح والعودة من جديد، وكنت ملهمة لي على الدوام لم أنسك يومًا واحدًا.

ثم قبل يديها وتحرك في الغرفة ينظر هنا وهناك، ثم قال: «لقد مرت علينا أيامًا عصبية رأينا الموت فيها يحوم فوق رؤوسنا، ولكن هأنذا الآن بين يديك من جديد».

اقتربت منه «بياتريس» مرة أخرى، ولكن صرخ الرضيع جعلها تبتعد مرة أخرى لتحمله بين يديها، وتقترب من «كريستوفر» الذي نظر إليها وقال: «إنه يشبهك كثيرًا».

- ويشبهك أيضًا وقد أسميته حسب وصيتك «فرناندو».

- وماذا عن «دييغو»؟

- لم أقصر في تربيته، فليطمئن قلبك.

- ولكن أين، هو لماذا لا أراه؟

- إنه نائم، فطِبْ خاطرًا.

- حسنًا صنعت يا حبيبتي... أشكر لك رعايتك لأبنائي.

ثم جلس بجوارها وراح يحدثها عن بطولات مصطنعة وشجاعة لم تحدث، ولكنه لم يحدثها عن جرائمه واختطافه النساء واغتصابهن.

وهكذا قضى «كريستوفر» الليل كله بين يدي «بياتريس»، وفي صباح اليوم التالي اصطحب «كريستوفر» «بياتريس» وابنيه «فرناندو» و«دييغو» وخرج صوب برشلونة، حتى إذا دخلها استقبل استقبال الأمراء، وهو ينظر هنا وهناك لا يصدق أن كل هذا من أجله، و«بياتريس» بجانبه لا تصدق أنها انتقلت من الحانات إلى القصور ومن عامة الشعب إلى نبلائهم.

وعند باب القصر سُمح لـ«كريستوفر» بالمثل بين يدي الملكين الكاثوليكين، فتحرك حتى إذا كان بين أيديهما انحنى مقبلًا الأرض بين يديهما، ثم قدم صناديق الذهب، وراح يقص عليهما بطولاته، وكأنه شق البحر وحده، وكيف كان وحده بين البحارة المؤمن بالأرض الجديدة، والأهوال التي لاقاها وكيف تغلب على موج البحر، وكيف صمد أيامًا طويلة، وكيف رفض العودة حينما أراد الباقون العودة وخامرهم الشك في نجاح المهمة. ثم راح يقص عليهما نبأ تلك المدينة التي استقبلته وبحارته بحفاوة بالغة، وضحك كثيرًا عندما أخبرهما أن أهل تلك القرية ظنوا أنهم ملائكة تحميهم فنظرت له «إيزابيلا»، وقالت: «لقد صدقوا، وإلا فأنتم تلك الملائكة التي ستنقلهم من الكفر إلى الإيمان، ومن جحيم العذاب إلى جنة الرب».

مظهرًا الخشوع قال «فرناندو»: «أجل، لقد أحسن هؤلاء الغرباء الوصف يا «كريستوفر»».

شعر «كريستوفر» بخطئه عندما ضحك وما كان له أن يفعل، فقال للملكين: «صدق سموكم».

ثم أشارت له «إيزابيلا»، فأكمل الحديث عن تلك القرية «ماجوانا» وكيف أن القيادة فيها للمرأة والحكم ولها الكلمة الأخيرة في كل شيء، ثم انتقل للحديث عن الإسلام ووجوده في تلك الأصقاع البعيدة، وما إن أتم حديثه، حتى نهضت «إيزابيلا» وقالت: «من اليوم أنت أمير بحر الأوقيانوس الذي تبددت ظلماته بفضل رحلتك تلك، ولكن اعلم أن عليك القضاء على تلك الملة أينما وجدت، فلن أطردهم من هنا لأجدهم هناك فإن كنت قادرًا على إبادتهم، وإلا أوكلنا الأمر لغيرك».

- بل أنا لها يا مولاتي فما خرجت إلا لأجد لنا طريقًا لا يمر ببلادهم،  
أما وقد علمت أنني قادر على إزاحتهم من أمامي فلن أتردد ولو لحظة  
واحدة وبلا رحمة أو شفقة.

ثم رسم علامة الصليب على صدره.. فرد «فرناندو»: «ولهذا عُيِّنَ أميرًا  
وحاكمًا على كل الأرض غرب هذا البحر، ونائبًا للملك على كل أرض آسيا  
والهند، فانشر المسيحية ولا تتهاون في ذلك».

- شرف كبير يا سيدي، لكن أحتاج إلى تجهيزات عظيمة.

أجابته «إيزابيلا»: «كل موارد المملكة مسخرة لذلك، ناهيك بكنوز تلك  
الأرض البعيدة وذهبها وخيراتها».

\*\*\*

عاش «كريستوفر» بعد هذا اللقاء في البلاط ستة شهور أتم فيها تجهيزاته،  
وما يحتاجه بعد أن أعاد دراسة كل ما كتبه عن رحلته.

وفي تلك الأثناء شاع أن «جواو الثاني» ملك البرتغال يجهز أسطولًا لعبور  
الأوقيانوس فاستغاث «فرناندو» بالبابا «ألكسندر السادس» وطلب منه  
أن يحدد حقوق إسبانيا في البحر الأوقيانوس، فعين البابا في سلسلة من  
المنشورات (1493) لإسبانيا ملكية كل الأراضي التي لا تدين بالمسيحية في  
الغرب، وللبرتغال كل الأراضي في الشرق ويفصل بينهما خط وهمي مرسوم،  
بحيث يمر من الشمال إلى الجنوب على بعد 270 ميلًا غرب الأزور وجزر  
الرأس الخضراء، ولكن البرتغاليين رفضوا قبول هذا الخط الفاصل وأوشكت  
الحرب أن تنشب بين الحكومتين المتنافستين، لولا أنهما وافقتا في معاهدة  
تورديسيلاس (7 يونيو سنة 1494) على أن يمر ذلك الخط موازيًا لخط  
الزوال الطولي على بعد 250 فرسخًا غرب جزر الرأس الخضراء بالنسبة  
إلى الاكتشافات التي تمت قبل ذلك التاريخ، ولكن على بعد 370 فرسخًا غربًا  
بالنسبة إلى الاكتشافات التي تتم بعد ذلك.

\*\*\*

تعثرت خطوات «لذريق» وهو يمر في شوارع «إشبيلية» بعد أن علم أن محاكم التفتيش القشتالية قد قتلت معلمه وأستاذه «المُدوري» إذ اتهموه زوراً وبهتاناً بممارسة الشذوذ مع طلابه ومن ثم قتله حرقاً، وعلم من البعض أنه تنامى إلى أسماع محاكم التفتيش ما يصنعه «المُدوري» من تعليم الصبيان تعاليم الإسلام، فلم يريدوا قتله على ذلك حتى أشاعوا تلك الجريم، ليقتلوه دون أن يجعلوا منه بطلاً للمسلمين...

جلس «لذريق» وكأنه في كابوس مزعج، وندم أشد الندم على العودة وشعر أن صلاته قد انقطعت نهائياً بتلك الأرض، بعد أن احتوت داخل ترابها رجالاً أحبهم، وعائلة قتلها التعصب والجحود، فكرة إشبيلية وما فيها وندم على أنه لم يمكث في جزيرة جمرة، وأغلق باب داره عليه لا يخرج منها وهو يترقب ما ستسفر عنه الأيام القادمة وهو يُمني نفسه بالخروج من إشبيلية والأندلس، وعدم العودة مرة ثانية مهما كانت الظروف ومهما كانت الأسباب، فعول أن يصطحبه «كريستوفر» مرة أخرى وقد قرر أنه متى سنحت له الفرصة سيبقى في جمره ولن يعود، ومرت الأيام طويلة سوداء على «لذريق» فشحب وجهه ووهنت قوته فلم يعد يهتم لطعام أو شراب إلا أياماً يحصيها فقط، حتى رفاقؤه في أيام الصبا كانوا قد ابتعدوا عنه مخافة أن تطالهم أنياب محاكم التفتيش المجرمة.

وبينما يجلس في أحد أركان البيت إذ بطارق يطرق عليه الباب.. تحرك «لذريق» متحاملاً على نفسه حتى إذا فتح الباب وجد فارساً قشتالياً يقف أمامه ويقول: «يدعوك السيد «كريستوفر» للقاءه، ويرجو أن ترافقه في رحلته الثانية صوب الغرب».

كانت قد مرت ستة أشهر منذ وصول «كريستوفر» إلى برشلونة، قام خلالها بالعيش كأمرير من أكابر الأمراء، حتى إذا أتم خططه حمل «بياتريس» وولدها وانطلق صوب الجنوب، فلما وصل «قرطبة» ابتاع لها منزلاً كبيراً وقال وهو يظهر التأثر والحزن: «يجب أن أعود لمتابعة أعماله، فلا يحق لأمرير

الأوقيانوس ونائب الملك أن يغيب عن إمارته طوال هذه الفترة، فإني أخشى إن تأخرت أن يوكلها الملك لغيري».

- أوتخشى أحداً وقد مات «مارتين آلونسو» وهو غريمك الأكبر؟

- حتى وإن مات «مارتين»، فهناك الكثير من الطامحين والحاquدين وهؤلاء يجب ردعهم وإسكاتهم.

- وهل يعيش الأمير في إمارته من دون أميرة؟

اقترب «كريستوفر» من «بياتريس» وأمسك بذراعيها ونظر في وجهها وقال: «لم تستقر الأمور بعد، وأخشى عليك وعلى طفلنا طول الرحلة ومشاقها، وقسوة الطقس وردائه».

ثم طبع قبلة على جبينها وترك ذراعها، وما إن ابتعد عنها حتى قالت له: «لماذا إذاً تتركنا هنا في قرطبة وليس في غرناطة حيث بيتنا القديم أو في إشبيلية حيث بلاط الملك؟».

قال مبتسماً: «لأن قرطبة هي درة التاج في المملكة الزائلة، وهي بعد بعيدة عن أعين المتربصين بي في بلاط «قشتالة» الناقلين عليّ الساعين لهلاكى».

ثم خرج من بيته وحوله الحراس وتحرك صوب «إشبيلية»، وما إن دخل على الملوك الكاثوليك، حتى استأذنهما في القيام برحلة أخرى، فقام «فرناندو» و«إيزابيلا» يحدوهما الأمل في الحصول على الذهب بتزويد «كريستوفر» بأسطول جديد يتكون من سبع عشرة سفينة مجهزة بألف ومائتي بحار وحيوانات للشروع في تربية قطعان من الماشية والأغنام في جزر الهند، وقال «فرناندو»: «هذه الرحلة لن تكون لاكتشاف الطريق، وإنما لضم تلك البلاد إلى حوزتنا ولنشر المسيحية في تلك الأرض الجديدة، لذا فقد أمرت لك بمن يعاونك على ذلك خمسة من رجال الدين، لتلقّي اعترافات الإسبان، ولهداية الهنود يقودهم القس الإشبيلي «برتولومي» فهو شاب ورع قد نما إلينا صلاحه ودينه».

- لن يمر الكثير من الوقت يا سيدي حتى تدين لك كل تلك الأرض، ويرتفع فيها الصليب عاليًا، أما من رفض فلن يكون له مقام فيها فإما النصرانية وأما الموت.

أبدى «فرناندو» و«إيزابيلا» رضاهما عن حديث «كريستوفر»، وشعرا أنه سيحقق لهما ما يريدان من جمع الذهب وتوسعة الإمبراطورية، وكذلك القضاء على الأمة المحمدية أينما كانت، بينما استطرد «كريستوفر»: «سيدي أريد المزيد من الخيل، فهذه البلاد تخلو منها وستكون الخيل قوة في أيدينا ترهبهم، وأيضاً أريد الكثير من البارود والبنادق والسيوف والنبال، فكل هذه الأسلحة غير موجودة هناك.. إنهم سذج لا يعرفون قيمة السلاح».

قال «فرناندو» متعجباً: «كيف يدافعون عن أنفسهم إذا؟».

- هم ليسوا أهل حرب يا سيدي، ولولا المحمديون في جزيرة جمرة ما احتجنا لتطويعهم إلى كل هذا السلاح، فقد كان يكفينا منه القليل.

انفعلت «إيزابيلا» في غيظ شديد: «المحمديون، المحمديون! لا أريدك أن تذكرهم مرة أخرى أمامي.. بل أريدك أن تقتلهم أينما كانوا، وبالأخص لو كانوا غير مسلحين كما تقول، فسوف يكون قتلهم هين ممتع، ولكن لا تريهم الموت قبل أن تذيبهم أشد أنواع العذاب».

- هم فقط يحملون سلاحاً يسمونه الحربون وهو لا يختلف كثيراً عن الرماح الطويلة، فلتطمئن مولاتي الملكة، ففروع لمحاكم التفتيش ستكون أكثر حدةً وتقتيلاً، ستكون في انتظارهم في مملكتك الجديدة. استرخى «فرناندو» للخلف وقال: «احصهم عدداً ولا تدع منهم أحداً!».

\*\*\*

## الفصل الخامس

لاحظت يا سيدي، نفور أهل تلك البلاد منّا وتوجسهم خيفة، وهم من كانوا يعظموننا من قبل ويحملوننا على رؤوسهم، فوقع في قلبي أن شيئاً عظيماً قد حدث، وهذا الشيء لن ينكشف إلا باطمئنان هؤلاء القوم لنا، ولن يطمئنوا ونحن نرهبهم بخيول لم يروها من قبل، ألم تر يا سيدي خوفهم ورعبهم؟ والله، لقد كانوا يهرولون من الخيول قبل أن يهرولوا منا، وكأنها الشياطين.

### (1)

بعد أن أتم استعداداته خرجت السفن من إشبيلية يوم 25 سبتمبر سنة 1493 وبعد تسعة وثلاثين يوماً (مقابل سبعين يوماً في الرحلة الأولى) وصلوا إلى العالم الجديد.. كانت رحلة مختلفة كثيراً عن مثيلتها الأولى، فالاطمئنان كان سائداً والبحارة يعرفون نهاية الطريق، حتى بحر الظلمات أصبح بالنسبة إليهم مكاناً معلوماً لا يستحق هذا الاسم المخيف، فكانت الرحلة بالنسبة إليهم ليست مغامرة جديدة، لكن رحلة بحرية عادية تكمن المغامرة فيما يأتي بعدها...

رست السفن على الشاطئ بالقرب من تلك المستعمرة التي أسسها «كريستوفر» قبل مغادرته، والجميع ينظرون إلى الشاطئ ينتظرون من يتقدم للترحيب بهم، فتفحص كريستوفر بعينه الجزيرة وقال: «عجيب أمرهم، لماذا لم يتقدموا لاستقبالنا كأول مرة؟».

بادله «لُذريق» الشعور: «والأعجب من ذلك عدم وجود «مانويل» ورجاله رغم مقامهم بالقرب من الشاطئ».

نزل «كريستوفر» من على السفينة وتبعه «برتولومي» ومن ثم «لُذريق» وباقي البحارة، وقال «برتولومي» مأخوذاً بجمال تلك البلاد وسحرها: «هل هذا هو الملكوت الذي تتحدث عنه كتب السماء؟».

ابتسم «لُذريق» مبتهجاً بعودته للجزيرة وقال: «تقول هذا وأنت هنا فماذا لو توغلت قليلاً بين الحشائش والأعشاب... ماذا لو رأيت تلك الثمار الجميلة العجيبة التي لم تذوقها من قبل؟!».

تحرك «كريستوفر» قليلاً للأمام وقال: «ربما صدقت أيها الأب، فهنا توجد أعشاب وأشجار وحيوانات لم نر مثلها من قبل، ناهيك بالذهب والمياه الجارية والحقول اليانعة والطبيعة الساحرة».

هزَّ «برتولومي» رأسه بسرور: «لكن أين هم أصحابكم الذين أخبرتموني أنكم تركتمونهم هنا؟»

أجاب «لُذريق»: «ربما أطلنا الغياب عنهم، فتوغلوا في الأرض، فعشرة أشهر كفيلة بأن يسعوا في الأرض يبحثون عن خيراتها».

تضاحك «كريستوفر»: «وما أكثر الخير هنا!».

تحرك «برتولومي» للأمام ثم ارتد صوب «كريستوفر» وقال: «ولكن أين هؤلاء الطيبون من أهل تلك البلاد؟ لماذا لم يسارعوا إلى استقبالنا كما فعلوا معكم من قبل؟!».

نظر «كريستوفر» يميناً ويساراً وكان البحارة قد نزلوا جميعاً، وأنزلوا كذلك الخيل والحيوانات وقال: «إن هذا لشيء عجاب ما فعلوا هكذا من قبل».

صاح «لُذريق»: «انظروا، إن عصابة من أهل البلاد فروا لما رأونا، وحملوا أطفالهم ونساءهم ودخلوا بهم الأكواخ».



مط «برتولومي» شفّتيه وقال وهو ينظر إلى الغرباء: «هذه أفعال أناس ترهبكم وتخافكم».

بدأ التوتر يتمكن من «كريستوفر»، فقال أمرًا: «يجب البحث عن رجالنا لنعرف منهم ما الذي حدث».

ثم أشار إلى الجند حوله، فتجهزوا وامتنى «كريستوفر» و«لذريق» صهوة جواديهما، وكانت تلك أول مرة تطأ الخيل العالم الجديد، واصطحبا معهما القس الشاب «برتولومي» وعشرة جنود مدججين بالسلاح، وأي سلاح فقد كان البارود والبنادق والمدافع، كل هذا لم يعرفه هذا العالم الطيب.

كانت الخيل تصهل وهي تتحرك على تلك الأعشاب ووسط الأشجار وكأنها ولدت هنا، فلم ترهب الخيل المكان، ولكن «كريستوفر» ورجاله كانوا وجلين مترقبين لما قد يحدث، فتحركوا الهويناء، وهم ينظرون من على ظهور خيلهم هنا وهنا. وقال «برتولومي» مراقبًا: «منذ أن وطئت أقدامنا تلك البلاد لم يرحب بنا فرد واحد، بل أراهم يشيحون عنا وكأننا شياطين لا ملائكة كما أخبرتموني».

- لا أعلم ما الذي بدلهم؟

قالها «كريستوفر» متوجسًا، بينما أردف «لذريق» بما زاد من حدة التوتر: «يجب أن يكون لاختفاء رجالنا علاقة بما يحدث!».

سهلت الخيل، وجالت تدهس بأرجلها أرضًا لم تطأها من قبل، وهي تنشر الرعب بصهيلها في قلوب أهل البلاد، وتقطع المسافات البعيدة بسرعة مذهلة، حتى إذا دخل الليل كانت الخيل قد غطت تقريبًا كل المسافة الطويلة التي حول القرية، وهنا قرر «كريستوفر» العودة للشاطئ ليكون ورجاله في مأمن من غدر الظلام.

وعند الفجر استيقظ «كريستوفر» وهو ينوي البحث عن رجاله فاقترب منه «لذريق» وقال: «لو أذن الأمير لي، أريد أن أبحث عن أصحابنا، ولكن بلا خيل ووحدي أو معي فقط القس «برتولومي»».

نظر «برتولومي» إليه وقال: «إن كنا لم نصل إليهم ومعنا الخيل ونحن كثر، فكيف نصل إليهم أنا وأنت وبلا خيل؟!».

- لقد لاحظت يا سيدي، نفور أهل تلك البلاد منا وتوجسهم خيفة، وهم من كانوا يعظموننا من قبل ويحملوننا على رؤوسهم، فوقع في قلبي أن شيئاً عظيماً قد حدث، وهذا الشيء لن ينكشف إلا باطمئنان هؤلاء القوم لنا، ولن يطمئنوا ونحن نرهبهم بخيول لم يروها من قبل، ألم تر يا سيدي خوفهم ورعبهم؟ والله، لقد كانوا يهرولون من الخيول قبل أن يهرولوا منا، وكأنها الشياطين.

ضحك «كريستوفر» وقال: «أجل يا «لُذريق» وقد تعجبت لذلك».

- الإنسان عدو ما جهل، وهم يجهلون الخيل فهي عدوتهم حتى يتعرفوا عليها.

- صدقت أيها الأب.

«لُذريق»: «سيدي أتأذن لي؟».

- لا بأس فلتخرج يا «لُذريق»، فلعلك تنجح فيما فشلنا فيه.

\*\*\*

## (2)

وسط الحشائش الجميلة والأشجار الكثيفة التي تتخللها أنامل أشعة الشمس الذهبية لترسم مشهداً خلاباً يأسر الناظر، تحرك القس «برتولومي» ومعه «لُذريق» بملابسه القشتالية المميزة، أما القس فكان يرتدي زياً أبيض وقد علق في رقبته صليباً كبيراً ويحمل آخر كبيراً بيده، بينما لا يحمل «لُذريق» أي شيء...

تحرك الرجلان، وهما يتحدثان حتى إذا اقتربا من أكواخ الهنود الحمر، توجهت الوجوه، ولم يتقدم أو يحييهم أحد... حاول «برتولومي» بابتسامته أن يتقرب منهم، فرفضوا، وكان كلما اقترب من أحد منهم تركه ودخل إلى كوخه وأغلق عليه بابه، وكذا فعلوا حينما حاول «لُذريق» وبخاصة النساء اللاتي اختفين من القرية ولذن بالأكواخ يحتمين داخلها.

نظر القس إلى صاحبه وقال: «النساء.. يجب أن يكون لاختفاء النساء وخوفهن علاقة في اختفاء رجال قشتالة وجندها».

- وهذا ما وقر في قلبي، خصوصًا أن «كريستوفر» كان قد أخذ منهن سبعة نسوة عنوة قبل رحيلنا.

توقف «برتولومي» وقال متفاجئًا: «أوَ قد فعل؟».

توتر «لُذريق» وتصيب عرقًا وقال: «أجل أيها الأب، ولكن لا تفصح له عن الأمر ولا تخبره أنني أخبرتك».

- وأين هؤلاء النسوة الآن؟

- لقد قُتلن جميعًا في أثناء رحلة العودة، بعدما صرن متاعًا للبحارة، فأصابهن الإعياء وماتت الواحدة تلو الأخرى، فقذف بهن «كريستوفر» وجعلهن طعامًا للأسماك.

نظر «برتولومي» إلى السماء وقد فغر فاه من هول ما سمع وقال: «اللعنة على من يغضب الرب، اللعنة على «كريستوفر» وكل من شاركه في هذه الجريمة».

- أتعديني ألا تخبره بذلك؟

«برتولومي»: «إن كنت لم تشاركه في جريمته».

«لُذريق»: «أقسم لك إنني لم أقرب من واحدة منهن».

أخذ «برتولومي» نفسًا عميقًا وكان الحزن قد طغى على وجهه وقال: «لا بأس أعدك بذلك».

«لُذريق»: «يُخَيَّلُ إِلَيَّ أيها الأب، أن هؤلاء التعساء قد قتلوا رجالنا انتقامًا لنسائهم وإلا فأين رجالنا وكيف يختفون بهذا الشكل؟!».

«برتولومي»: «ربما، ولكن يجب أن نتيقن من الأمر، على أنهم يستحقون القتل إن كانوا قد اعتدوا على النساء.... اسمع يا «لُذريق» اذهب إليهم ولاطفهم وتحدث إليهم ولا تيأس وسأنتظرك هنا».

تحرك «لُذريق» وبعد محاولات كبيرة استطاع أن يتحدث إلى أحد رجال القرية محاولًا أن يتعرف على سبب هذا النفور وهذا الخوف في أعينهم، فلم يرد أن يتحدث الرجل ولكن «لُذريق» تلاطف معه وجلس بجانبه على كومة

قش وسأله عن «مانويل» ورجاله. وبعد تردد ونظرات من الهندي إلى «لذريق» وكأنه كان يحاول أن يعرف ماذا سيفعلون بهم إن هم عرفوا ما حدث، بينما «لذريق» يحثه على الحديث ويطمئنه أخبره الرجل وهو يكاد يبكي ألمًا أن الغرباء قد طافوا بالجزيرة وسطوا على الذهب وأخذوه من الصدور والأيدي، ولم يتركوا أحدًا إلا وأخذوا ما لديه بالقوة، ثم بعد ذلك حاولوا اغتصاب نساء تلك القرية، فلم يستطيعوا فقد كنا لهم بالمرصاد فحمل الرجال منا الحربون والأخشاب ودافعنا عن نساءنا بكل قوة، فخشي البيض على أنفسهم وهم قلة ونحن كثر، فلما فشلوا في ذلك وأيقنوا بعجزهم تحركوا صوب قرية «ماجوانا» وكانوا قد خبروها من قبل، فاستطاعوا أن يأسروا مجموعة من النساء منهن الأميرة «هيدا» بنت صاحبة القرية التي كانت تطعم أبقارها! وقد حاول أهل «ماجوانا» تخليص النساء من قبضة أصحابكم، ولكنهم فشلوا في ذلك غير مرة.

- فعلوا كل ذلك!؟

- أجل.

- فلتكمل.

- بعد يوم واحد فقط وصل خبر ما حدث في «ماجوانا» لجزيرة جمرة القريبة منها، وعلم «مالك بن عبد الله» وهو سيد جمرة بعد وفاة أبيه بما حدث، وكان وقتها يجلس مع صديقه «بوبا» عند الشاطئ، فاستشاط غضبًا وهو ذو مروءة وشهامة، إذ كيف تنتهك الحرمات هكذا ولو كانوا على غير دينه! ولما قال له صاحبه «بوبا»: «كيف تغضب لقوم رفضوا أن يزوجوك ابنتهم وهم بعد على غير دينك؟ أما كان من الأولى بهم أن يذهبوا إلى اللعين «بوردوم» ويخلصهم مما هم فيه».

«لا يا صديقي لا تحسب الأمور هكذا، وإلا فما الفرق بيننا وبينهم؟».

«أليس هؤلاء هم ملائكة «بوردوم» اللعين الذي ما انفك يؤلب الناس علينا، ويتوعدهم بملائكة تأتي من المشرق تنقذهم مما هم فيه؟».

«لا يصح أن تعذب قرية كبيرة لرجل ظالم فيها أو فاسد».

«بل تستحق العذاب لجهلها.. ذلك الجهل الذي جعلهم يثقون بدجال كـ«بوردوم» الذي أحسن استغلال جهلهم فتسيدهم، حتى إذا جاء العذاب تركهم وما يعبدون».

نقض «مالك» ثيابه ونهض بعد أن نظر إلى «بوبا» وقال: «لست على نهجك يا صديقي».

«انتظر... ماذا ستفعل؟».

«سأحررهم».

«ستلقي بنفسك إلى التهلكة من أجل هؤلاء؟».

«بل من أجل ألا تنتهك الحرمات، وتأكد يا صديقي أننا إن صمنا اليوم عن هذا وقلنا نصمت ما دام هذا بعيداً عنا، فسوف يصلنا غداً لا محالة!».

«لقد تبدلت منذ أن صار الأمر إليك يا «مالك»».

«ذلك لأنني صرت مسؤولاً أمام الله عن هذه القرية بعد وفاة أبي رحمه الله».

وهكذا قرر «مالك» رغم ما بينه وبين ملكة «ماجوانا» أن يمد لها يد العون وأن يساعدها على استخلاص نساء قريتها من يد الأعراب، ولكن «بوردوم» تدخل في الأمر وأوعز إلى الملكة أن «مالك» إنما يريد بذلك أن يعلو شأنه بين الناس وأن يسلبها مكانتها، ثم راح يهون عليها ما فعله الأعراب قائلًا لها: «ما هي إلا أيام وينقضي الأمر يا سيدتي، عندما يعود كبيرهم لهننا مرة أخرى، أما الأميرة «هيدا» فلن يجروا أحدهم أن يمسه بسوء».

ولكن هذا لم يرح قلب «أناكاونا» وقرر الأمير «مالك» أن يخلص حبيبته بمفرده، فتحرك ببعض رجاله وهم يحملون سلاح الحربون، حتى إذا وصلوا إلى مشارف تلك المستعمرة التي بناها الأعراب كان التنازع قد وقع بين الأعراب أنفسهم، وتقاتلوا فيما بينهم على من يحوز الأميرة «هيدا»، إذا لم يكتف كل فرد منهم بخمسة نساء، حتى تنازعا على أجمالهن وقتل بعضهم بعضاً، وفي هذه اللحظة تدخل «مالك» برجاله وقتلوا من تبقى من الأعراب وحرروا النساء وفروا من المكان.

صعق «لُذريق» مما سمع وعلم سر تبدل القوم عليهم، وشارك «برتولومي» «لُذريق» الحزن والألم وراح يعتذر للهنود، ثم قال في نفسه: كيف أدعوهم للنصرانية بعد اليوم وقد كان سفراؤنا إليهم بهذا الفجور؟!  
طأطأ «برتولومي» رأسه وذرفت عيناه، وهو ينظر إلى الرجل، ثم ارتد ببصره صوب «لُذريق» وقال: «سلب، واغتصاب، وقتل، هل هؤلاء بشر أم حملة الموت والدمار؟».

- بل هم حملة الموت يا سيدي.

بلهجة جادة قال «برتولومي»: «يجب أن يعرف «كريستوفر» كل شيء ويعرف أن نهاية الظلم وخيمة، وأن لا أحد يصبر على الظلم، وأن هذا الشعب الطيب الودود لن يظل هكذا إن اغتصبت حقوقه وانتهبت أمواله».

ثم تحرك الرجلان عائدين إلى معسكر «كريستوفر»، وتقدم «بارتولومي» وتبعه «لُذريق»، ودخل الرجلان على «كريستوفر»، وكان بيده قطعة من الذهب ينظر إليها، فما إن رآهما، حتى وضعها في صندوق بجانبه ثم نظر إليهما وقال: «هل وصلتكم إلى أي شيء؟».

تنهد «برتولومي» بشدة ثم بدأ يقص ما حدث على «كريستوفر»، الذي أظهر الألم لما حدث للهنود الحمر، ولكن في قرارة نفسه كان ينتوي معاقبتهم لقتلهم رجاله، حتى بعد أن عرف أن معظم رجاله قد قتل بعضهم بعضًا، وبعد صمت قليل قال «كريستوفر»: «ربما يكون رجالي قد أخطأوا، ولكن لا يعني ذلك أن يهدم هؤلاء ما شيدينا ويقتلوا رجالنا من دون محاكمة عادلة، لكن لا بأس لا بأس، وشكرًا لكما أن توصلتما إلى الحقيقة».

تساءل «برتولومي»: «فماذا أنت فاعل الآن؟».

- يجب أولاً وقبل أي شيء أن نعيد تشييد مدينة كاملة يكون اسمها «إيزابيلا» تفخيمًا وعرفانًا لمكانة سيدة قشتالة والعالم.

- وماذا عن هؤلاء التعساء؟ ألن تعوضهم وتطمئنهم؟

- ليس قبل أن نمكن لأنفسنا أيها الأب، وإلا غدروا بنا.

\*\*\*

### (3)

بدأ «كريستوفر» يصنع لنفسه مُلْكًا في البلاد الجديدة، فاستغل كل موارد المكان وسخرها لخدمته، فأنشأ المباني الغربية عن أهل البلاد، وأقامها من الحجارة لتكون حاجزًا بينه وبين الأهالي، بينما كانت كل مساكن أهل البلاد من القش والجريد، فقد كانوا يعيشون في أمان ولا يحتاجون إلى حجارة تحميهم، ولا حتى سلاح يدافعون به عن أنفسهم، ومر بعض الوقت، حتى إذا أتم «كريستوفر» البناء وأمن فيه، قرر أن يتحصل على المزيد من الذهب لإرساله إلى قشتالة، فقد نَمى إليه أن البعض في البلاط يحقدون عليه ويوغرون صدور الملكين الكاثوليكين عليه ويقولون: «ما الطائل من إنفاق كل هذه الأموال على رحلات ومغامرات «كريستوفر»؟».

فقال في نفسه: «حمقى! إنما يرون المجد فقط في الذهب ولا يعرفون أننا نبني مجدًا سيخلده التاريخ، وسنملك بلادًا أكبر من تلك التي يملكونها في الشرق».

وفي صباح اليوم التالي أصدر «كريستوفر» أوامره لرجاله بالبحث عن الذهب، الذهب ولا شيء غيره.

أما «برتولومي، ولُدريق» فقد انطلقا إلى ربوع العالم الجديد والقس يحاول التقرب من الهنود الحمر ليهديهم إلى دينه، في ذات الوقت الذي انطلقت فيه الجنود بحثًا عن الذهب، غير أنهم لم يجدوا منه إلا القليل.

في قصره الجديد كان يجلس «كريستوفر» وقد دخل عليه الجند يقولون: «لم نعثر إلا على القليل من الذهب يا سيدي...».

ثم تقدم الجندي فوضع الذهب أمام «كريستوفر»، الذي تحرك خطوات للأمام، وأمسك ببعض قطع من الذهب ودار حول الجندي الذي ظل ثابتًا وقال: «قليل، لا يقطع السنة من يشككون في الجدوى من رحلاتنا! يجب أن نحصل على الذهب مهما كلف الأمر».

ثم عاد لكرسيه، فنظر له الجندي بخبث وقال: «سيدي إن الهنود يحملون الكثير من الذهب في أعناقهم وأيديهم!».

لمعت الفكرة في رأس «كريستوفر»: «مممم فلتجمعوه منهم».

سأله جندي: «فماذا إن هم رفضوا أو قاوموا؟».

- سنعتبر مقاومتهم عصيانياً وخروجاً على طاعتنا!

فهم الجندي مغزى كلام «كريستوفر» فخرج من عنده، وجمع رجاله، وانطلقوا يهاجمون الهنود ويسلبونهم الذهب والمتاع، فقتلوا كل من قاومهم بالسيف تارة وبالبنادق تارة أخرى، فكانت مجزرة مروعة راح ضحيتها الكثير من الأهالي الطيبين.

\*\*\*

## (4)

في جزيرة ماجوانا كان العجوز «بوردوم» يتحرك ببطء متجهاً إلى معبد الآلهة، وهو يفكر في أمر الغرباء الذين دخلوا بلاده وبدلوا ما فيها، حتى فقد بسببهم سطوته ومكانته، فقد ألقى عليه بعضهم اللوم وراحوا يسخرون منه ويقولون له: «انظر إلى ملائكتك وماذا يفعلون، أين السعادة التي وعدتنا بها وأين النعيم؟».

فقد «بوردوم» بسبب أفعال الغرباء بعضاً من مكانته ونفوذه، واستفاق بعض أهل «ماجوانا»، ولكنه بقي عند البعض منهم مقدساً ومقدماً، وكيف لا وقد دأب بعض البشر على تقديم من يسلبهم إرادتهم ويغتصب عقولهم.

أما الأميرة الصغيرة «هيدا» فقد اقتربت أكثر وأكثر من والدتها الملكة التي قدرت بطولة «مالك» في تخليصها من الأغرار، حتى إن الملكة لم تعد تغضب لخروج ابنتها للقاء «مالك»، بل عادت تنتظر ذلك اليوم الذي يأتي إليها يخطب ابنتها، وقد علمت أن القوة في يد العادل نعمة كبيرة، وإنها في يد الظالم نقمة مدمرة وأن لا وجود لمملكته من دون قوة تحميها!

أما «مالك» فقد أحجم عن خطبة «هيدا» معللاً ذلك بخوفه من أن يكون القبول ناتج عن ذلك الجميل الذي طوق به عنق الملكة، فأحجم عن الأمر رغم مكابذته وحبه لها.



وفي أحد الأيام وبينما كان كل شيء هادئاً في «ماجوانا»، فالأطفال يلهون هنا وهناك ونساء الهنود يضحكن وسط الأكواخ والرجال يتحركون للصيد أو رعي الأبقار، إذ بصهيل خيل قادم من بعيد!

فقد كانت الخيول حيواناً غريباً عن هذه الأرض، لذا فقد مثّل ظهورها رعباً لكل سكان تلك البلاد، فقد انبهروا بخفتها وسرعتها وارتعبوا من صهيلها وقوتها.

فما إن ظهرت الخيل، حتى ظهر الخوف على ملامح أهل «ماجوانا» وهم يسمعون الصهيل دون أن يروا شيئاً بعينه، وبينما هم في ذهول، إذ أقبلت عليهم الخيول تنهب الأرض نهباً في اتجاههم، وعلى ظهورها رجال قد ارتدوا الحديد، وأشهروا السيوف، وكأنهم يحملون الموت على نصال سيوفهم والخراب في أقدام خيولهم، وما هي إلا لحظات حتى سالت الدماء، وبدأ الأغرب في نهب المتاع والبحث عن الذهب، فكانوا يقتلون كل من يقاومهم من أهل «ماجوانا»، وإذا وجدوا امرأة ترتدي قرطاً لم يطلبوا منها خلعه، بل بادروا إلى أخذه، فلربما تنقطع أذنها أو جزء منها، ومن يدافع عن زوجته من الرجال أو الشباب يقتل أمام أعين أهله بلا رحمة أو حتى إنذار أو تحذير.

وبعد ساعتين عاد رجال «كريستوفر» له مثقلين بالذهب المخلوط برائحة الدماء واللون الأحمر القاني، لم يسأل «كريستوفر» رجاله عن الذي حدث أو حتى هذه الدماء على الذهب، أو بقايا الأذن المقطوعة، ولكن انصبّ شغله على كمية الذهب، فراح يقلب فيها بفرحة شديدة، وكأن تلك الدماء لا شيء ولا تساوي أي شيء.

وبينما يقلب «كولومبس» في الذهب، إذ دخل عليه القس والغضب باد على وجهه فقال: «كل هذه الدماء من أجل حفنة من الذهب؟».

بابتسامة خبيثة قال «كريستوفر»: «لقد قاومونا أيها الأب فدافع جنودي عن أنفسهم!».

- فأين دليل مقاومتهم يا «كريستوفر»؟ لم يقتل رجل من رجالك أو حتى يجرح.

هب «كريستوفر» واقفًا وقال محتدًا: «وهل كنت تريد أن يُقتل بعض رجالي؟ أنسيت ماذا فعل الهنود في مستعمرتنا القديمة؟ لا لن أدعهم يكررون فعلتهم تلك».

- تعلم وأعلم ويعلم الجميع من القاتل ومن المقتول!

- لماذا لا تدعنا نفعل ما نريد وتوفر جهدك في نشر المسيحية؟ ألسنت هنا من أجل ذلك؟

- أنت وجنودك تهدمون ما أحاول تشييده.. تبحث عن الذهب والمال في دماء الأبرياء من أهل تلك البلاد، لكني لن أسكت بعد اليوم وسأرسل الملك في إسبيلية لأخبره بما تفعل أنت وجنودك هنا.

قال ذلك، ثم انطلق وخلفه «لُذريق» الذي تخلى عن «كريستوفر» وأصبح صديقًا للقس، وقد كان «لُذريق» أيضًا يمقت ما يفعل «كريستوفر» ويراه امتدادًا لملوك إسبانيا الكاثوليكية، ولمحاكم التفتيش المرعبة التي قتلت أباه وأستاذه.

انطلق الاثنان إلى حيث قرية «ماجوانا» حتى إذا وصلا لم يتمالك «لُذريق» نفسه وراح ينظر يمينًا ويسارًا يشاهد الخراب بنفسه وهو يقول: «ما كل هذا الظلم؟ لماذا يظلم الناس الناس؟ لماذا بدا كل شيء مختلفًا عن أول مرة؟ لماذا لا أرى بسمات الأطفال وضحكات الكبار؟ أين اختفى كل ذلك ولماذا أشم رائحة الدماء؟»، أسئلة كثيرة مرت برأس وعقل «لُذريق» فلم يدرِ حتى ذرفت الدموع من عينيه.

وفجأة أرعدت السماء وتوهج برقها، فوضع «برتولومي» يده على كتف «لُذريق» وقال: «لا بُدَّ أنها ستمطر فهيا بنا نستظل بشيء يقينا من ماء المطر».

«لُذريق» بصوت حزين: «هل هو المطر أم دموع السماء على تلك الأرواح البريئة التي أزهقتها سيوف الظلام؟».

هزَّ «برتولومي» رأسه بأسى، كأنه يشارك «لُذريق» مشاعره، ثم تحرك الاثنان والأمطار تنهمر عليهما، فامتزج الماء بدماء الأبرياء وانتشرت رائحة الدم ولونه في كل مكان ممزوجة برائحة المطر.

- يجب أن يعلم الملك بما يدور هنا.

- أو تظن حقًا أنه لا يعلم؟

- قطعًا وإلا فلماذا أرسلني لأبشّر بالمسيحية هنا إن كان يريد قتلهم وإراقة دمائهم؟ ما الفائدة مما أفعل إن كانوا سيقتلون بالنهاية؟!

تعجب «لذريق» من كلمات «برتولومي» وقال في نفسه: «هل حقًا تظن أيها الأب أن «فرناندو» و«إيزابيلا» لا يعلمان ما يحدث هنا؟ ثم هب أنهما عرفا فما الذي يجعلهما يعصمان دماء هنا كانا أسالها هناك؟».

لاحظ «برتولومي» صمت «لذريق» فقال: «لماذا أراك صامتًا هكذا؟».

- أفكر يا سيدي فيما تقول، وهل حقًا لا يعلم الملوك الكاثوليك بما يحدث؟ بتعجب قال «برتولومي»: «قطعًا لا يا «لذريق»، ولهذا سأرسل لهم تقريرًا كاملاً عما يحدث هنا، وإنه في حالة استمرار «كريستوفر» هكذا، فلن يتم هداية هؤلاء أبدًا للكاثوليكية».

بصوت حزين قال «لذريق»: «لا بأس يا سيدي لتفعل».

انقطع المطر وتحرك الرجلان صوب قصر «أناكاونا»، فوجدها قد أصابه من الدمار ما أصاب باقي القرية، وبلهفة كبيرة تحرك «لذريق» باحثًا عن الأميرة «هيدا» والملكة التي استقبلتهم يومًا وكانت سببًا في نجاتهم، فلولا إغداقها على الغرباء أول أمرهم لماتوا جوعًا، فلم يجد أحدًا في قصرها، ولكن لاحظ الدمار الذي حل بالمكان وبعضًا من نقاط الدماء هنا وهناك، فعلم أنه قد أصاب الملكة ما أصاب الجميع، بل ربما أكثر وذلك، لأن ما تملكه من الذهب كان أكبر!

وبصوت خافت حزين قال «لذريق»: «كانوا يعتقدونهم ملائكة الخير التي حملت لهم الخير، فإذا هم شياطين الإنس حملوا معهم رسل الخراب وآلة الدمار والموت».

ثم نظر إلى مائدة الطعام فوجدها كانت عامرة فإذا بالطعام مبعثر هنا وهناك، ولكن بعضه ما يزال على المائدة، فاقترب «لذريق» من المائدة ووضع يده عليها وأغمض عينه أسفًا وحننًا.

- انظر، هناك ما زال بعضهم على قيد الحياة.

- إنها الملكة «أناكاونا».

تحرك «لُذريق» صوب الملكة الملقاة على أحد الجوانب فوجدها تحتضر، فاقترب منها ووضع يده أسفل رأسها، ففتحت عينيها وقالت بصوت ضعيف: «هيدا.. هيدا».

وقد كانت «هيدا» تجلس بجوار والدتها تتناول طعام الغداء ويجلس معهما على المائدة أبوها وإخوتها الخمسة والضحك والسعادة على وجوه الجميع، وخصوصًا هيدا التي كانت تعيش لحظات سعادة كبيرة برضاء والدتها عنها وعن «مالك».

«أناكاونا»: «أترين أن أهل جمرة يحسنون صنع الطعام مثلنا؟».

- لا أعلم يا أماه.

قال «كاونابو»: «لكل قبيلة نظامها وطعامها المفضل، وما هو إلا وقت قليل حتى تندمج «هيدا» معهم وتكون واحدة منهم».

أجابت «أناكاونا» بحزم: «ولكن «هيدا» لن تترك جزيرتنا في حال زواجها ستحيا هنا ملكة كأماها، وعلى «مالك» أن يتدبر أمره فإن أراد المكوث معها هنا، وإلا فلن أوافق ولن أرضى».

- لقد بلغ مني الجوع ولن يحدث شيء إن أخرجنا نقاشنا.

- ممم.. حسنًا.

وما إن مدت «أناكاونا» يدها إلى الطعام حتى هرول إليها بعض جنودها وقالوا والخوف بادٍ عليهم: «سيدتي... لقد هاجم الغرباء القرية، وهم ينشرون الموت والخراب بحثًا عن الذهب، هاجموا الأكواخ وقتلوا الكثير من النساء والرجال، وهم في طريقهم إلينا فأنجي بنفسك سيدتي، فلن نستطيع حمايتك وهم يمتطون هذا الحيوان الغريب المرعب».

أمسك «كاونابو» حربونه وقال في تحدٍّ: «ملائكة «بوردوم» اللعين».

ظهر الخوف على وجه «هيدا» وتذكرت محنتها معهم وقت اختطافهم إياها، بينما حاولت «أناكاونا» الظهور بغير ما تبطن، فأخفت قلقها وقالت: «لماذا تحاربهم، إن كانوا يبحثون عن الذهب فعندنا الكثير منه، فليأخذوه وليذهبوا بعيدًا عنا».

كشر «كاونابو» عن أنيابه: «لن يرضوا بغير دماننا يا «أناكاونا» فهؤلاء يحبون الذهب المخلوط برائحة الدماء».

أخذت «أناكاونا» نفساً عميقاً ثم نهضت واقفة وقالت له: «لا تخرج.. وأنت أيها الحارس لا تبادل برفع سلاحك في وجوههم، حتى إذا وصلوا إلى هنا أدخلهم عليّ ولا تتردد».

- أمرك سيدتي.

استشعرت «أناكاونا» الخوف فحاولت حماية ابنتها الجميلة، فلم تجد إلا أن ترسلها إلى جمرة، حيث «مالك» وقبيلته فقالت لها: «أخرجني بصمت، وتحركي صوب جزيرة «جمرة»، فإن نحن نجونا من هؤلاء فلتعودي، وإلا فتزوجي «مالك»»، وكانت قد شعرت بقرب النهاية.

فاغرورقت عيناها بالدموع فبكت وأجهشت بالبكاء! واحتضنت «هيذا» التي ترقرقت الدموع في عينيها وقالت بجزع كبير: «لن أترككم».

«أناكاونا» وهي تبكي: «بل ستفعلين رغماً عنك، ولا تنسي أنني الملكة أمر فأطاع».

ثم أبعدها عنها، نظرت «هيذا» بعينين دامعتين إلى أبيها الذي احتضنها وقبّل جبينها وقال: «بل افعلي من أجلي يا بنيتي، فهؤلاء قوم لا تعرف قلوبهم الرحمة والشفقة، وهم إن رضوا منا بالذهب فلن ينسوا أنك يوماً كنت أسيرة لديهم، وهم بعد يا بنيتي قوم لا يحترمون النساء ولا يقدرنهن، وأنت جميلة وربما يغريهم جمالك فيأخذونك معهم أو يقتلونك».

ترددت «هيذا» كثيرًا ولكنها وتحت رجاء والديها قررت أن تخرج رافعة بهم، فانطلقت خارجة من القصر، وما إن ابتعدت قليلاً، حتى داهم الغرباء القصر في هيئة الوحوش التي تبحث عن فريسة، فقالت لهم «أناكاونا» وكانت ترجو أن تلافهم وتلاينهم: «مرحبًا بملائكة البحر».

أجابها أحدهم: «لا نفهم ما تقولين أيتها المرأة، ولكننا نبحث عن الذهب...».

ثم أشار إلى قرطها بينما أمسك «كاونابو» بحربونه متكئاً عليه.

فهمت «أناكاونا» أنه يريد الذهب فأشارت له إلى صندوق ممتلئ بالحلي، فتحرك الجندي وأمسك الصندوق وفتحه وشاهد معجبًا ما فيه، ثم أعطاه لأحد مساعديه، ومن ثم أشار إلى قرطها مرة أخرى.

وضعت «أناكاونا» يديها على قرطها تريد أن تخلعه وتعطيه للغرباء، فاضطرب حالها من الخوف وزادت ضربات قلبها وتسارعت أنفاسها، فتقدم إليها الجندي وخلع القرط بقوة فأدمى أذنها، فما كان من «كاونابو» إلا أن أعمل حربونه في صدر الجندي، الذي ما سقط حتى تحرك باقي الجنود، وقتلوا «كاونابو» وجميع أولاده وقطعوهم إربًا، ثم طعن أحدهم «أناكاونا» طعنة قاتلة، ثم عبثوا بما في القصر من ذهب وأموال وأخذوها جميعًا، وخرجوا ودماء أهل القصر تسيل حارة فيه. في القصة الحقيقية أخذوه ومات على سفينة وهي هربت لأخيها.

تذكرت «أناكاونا» كل ذلك مرة أخرى وهي تهمهم وتقول: «هيدا!».

حتى انقطعت أنفاسها فتركها «لُذريق» وهو يبكي، ونهض من فوره وتحرك خارجًا من القصر وتبعه القس وهو يحاول تهدئته.

أما «هيدا» فكانت منذ أن استطاعت الهروب تتحرك، ودقات قلبها تزيد وتتسارع، ولا تكاد تستطيع أن تلتقط أنفاسها، وهي تجري خوفًا وفزعًا وأخيرًا وصلت إلى جزيرة جمرة، وهي لا تكاد تصدق ما حدث، وقلبها يكاد أن ينفطر لما قد يحدث لوالديها فهي لم تكن تعرف ما حدث بعد خروجها، وما إن وصلت جمرة حتى هدأت خطواتها بعض الشيء، واتجهت الفتاة صوب قصر «مالك» الذي كان يجلس مع صاحبه «بوبا»، وظلت خطواتها تائهة حتى سقطت أمام باب القصر، فحف إليها بعض الحراس وصار هرج كبير وعلت الأصوات، فخرج «مالك» وصديقه ليشاهدا ما حدث، وما إن لمح «مالك» «هيدا» ساقطة على الأرض، حتى هرول صوبها متعجبًا وجودها هكذا، وهي التي لم تفعل من قبل، كما لاحظ الإعياء عليها، فجلس بالقرب منها وراح يصرخ فيمن حولها من الحراس فجاء له أحدهم بكوب من الماء.

أمسك «مالك» الكوب وقربه من فم «هيدا» التي ما إن تذوقت الماء، حتى استفاقت ولكنها لم تستطع قيامًا فنظر «مالك» في وجهها وقال: «ما الذي حدث؟».

- لقد قتل الغرباء أمي وأبي، بل قتلوا كل أهل «ماجوانا».

- مجرمون.

«مالك» في ذهول: «قتلوهم؟!».

- من أجل الذهب وكنوز يبحثون عنها.

\*\*\*

## (5)

هرول النهار مُفزعًا ليظهر القمر في الأفق يكتنفه الظلام كناسكٍ حزين أثقله الهرم مُجبرًا على عمله لينثر ضوءًا خفيفًا على كافة أنحاء العالم الجديد، وفي مستعمرته الجديدة جلس «كريستوفر» يحتفل مع رجاله بالذهب الذي جمعوه وهم يقارعون كؤوس الخمر حتى أخذت الخمر عقول أغلبهم، قال واحد منهم: «خمر وقمر يضيء السماء، فأين النساء ينرن الأرض بجمالهن وفتنتهن؟».

- حقًا لدينا الكثير من الذهب ولكن لا قيمة للمال من دون نساء.

ردد جماعة منهم: «أجل أجل نريد النساء، وهن كثر هنا، فلماذا لا نأخذ النساء كما نأخذ منهم الذهب؟».

رد عليه آخر والخمر تضرب في رأسه وتجعله يتمايل وقد ثقلت رأسه وقال: «أجل...».

ثم استل سيفه واستطرد يقول: «يجب علينا الآن أن نحضر النساء إلى هنا».

أخذ واحد من رجال «كريستوفر» بندقيته، وكانت الخمر قد فعلت به ما فعلت، وقال كما قال الأول حتى اجتمع عشرون رجلًا، فخرجوا وهجموا على أكواخ المدينة، وسبوا النساء، وقتلوا كل من قاوم من الرجال، كانوا يختطفون الأم من رضيعها، والابنة من أمها وأبيها، والمرأة من زوجها، ولم يتركوا شيئًا إلا فعلوه، بل وفعلوا أفعالهم وسط الأشجار وعلى الحشائش وكأنهم البهائم.

أفزعته صرخات النساء «برتولومي» و«لُذريق» وكانا بعيدين عن المعسكر يشاهدان غرائب الطبيعة في هذا العالم، ويتحدثان عن «أناكاونا» ومقتلها. ومصير «هيذا»، فقطعا سيرهما وتحركا عائدين للمعسكر، ليشاهدا أفعالاً يندى لها الجبين فصرخ «برتولومي» وتحرك «لُذريق» لينقذ النسوة من براثن الاغتصاب، فلم يقدر على شيء، أما «كريستوفر»، فلم يتمالك نفسه من الضحك والسخرية من كل ما يحدث. وهنا صرخ «برتولومي» في وجه «كريستوفر» وقال: «لن أسكت عن كل هذا، يجب أن يعلم الملك بما يحدث داخل مملكته!».

ثم انسحب وخلفه «لُذريق»، ودخل إلى هذا المكان المخصص لإقامته، وما كاد يجلس، حتى بادر إلى كتابة رسالة مطولة يشرح فيها للملكين الكاثوليكيين شنيع أفعال «كريستوفر»، فقدم تقريراً للملك قال فيه:

(إن كريستوفر يتصرف كما الملك المتوج، وإنه لا يريد هداية الناس، ولكنه يريد فقط الذهب والأموال، والنساء والشهوات، ولما فشل في جمع الذهب راح يتاجر في أرواح البشر، ولهذا يا سيدي يجب وضع حدًا لما يحدث حتى لا ينفر هؤلاء منا، ولنكن يا سيدي رسل سلام ومحبة).

وصلت أنباء تلك الرسالة إلى «كريستوفر»، فقد كان له جواسيس في كل مكان في المعسكر، وخصوصاً على «كازاس» فأقبل عليه الجاسوس «يعقوب» بهيئته المزرية ووجهه القبيح المملوء بالندبات وقال: «يجب أن تسبقه برسالة إلى الملك يا سيدي، يجب أن تدحض كلامه فقد نشر في كل مكان عنك وعن رسالته للملك حتى قال لبعض الجند قريباً ستكون نهاية «كريستوفر» وهذا الظلم».

- مممم، يريد نهايتي.

- أجل يا سيدي.

- فماذا ترى؟

بنبرة خافته وأعين كالذئاب قال «يعقوب»: «هو يراهن على الكاثوليكية، فراهن أنت يا سيدي على الذهب».



برقت عينا «كريستوفر»، ثم انفرج فمه عن ابتسامة خبيثة وأشار بيده بعد أن أخذ نفساً عميقاً وقال: «ولن يخسر من يراهن على الذهب، ولكن ماذا نصنع وقد أخفى هؤلاء الذهب منا؟».

- ليس الذهب هو كل المال يا سيدي؟

- ماذا تقصد؟

- هناك النساء الجميلات والفتيان الأقوياء، وإسبانيا في حاجة لكل هؤلاء، وسوق النخاسة رائجة يا سيدي والملك يحب الجميلات.

هزَّ «كريستوفر» رأسه من دون أن ينبس بكلمة، وفي الصباح أرسل رجاله للبحث عن الذهب في القرى المجاورة، ولما عجز عن جمع الكثير منه، أرسل حملاته لأسر النساء الجميلات والفتيان الأقوياء، ثم جهز سفنه وأرسل مساعده الجاسوس «يعقوب» إلى بلاط إشبيلية، وأرسل معه خمسمائة من الهنود الحمر كعبيد، مات منهم مائتان في أثناء الرحلة وبيع الباقون في إشبيلية، ولكنهم ماتوا بعد بضع سنوات بعد أن عجزوا عن تكييف أنفسهم مع المناخ البارد، ولعلمهم لم يحتملوا همجية الإسبان وتكبرهم!

استقبل الملكان الكاثوليكيان رسول «كريستوفر» بترحاب شديد، وكيف لا وهو يحمل لهما الذهب الذي يقوي من ملكهما، والمال دائماً عماد الملوك الأقوياء يستخدمونه في تجييش الجيوش وشراء الأسلحة والرجال، فخففت تلك الهدايا من الشكوك التي ثارت لدى البلاط حول الحكمة من صب مزيد من الأموال في الأطلنطي، ولما عرض على الملكين الكاثوليكين رسالة «كريستوفر» و«برتولومي»، أعرض الملكان عن «برتولومي» فقد أجمهم الذهب وأسكتهم.

وفي حضرة الملكين تحدث «يعقوب» وقال وهو يصطنع الكذب: «لقد اجتهد «كريستوفر» يا سيدي، أن يكون خير ممثل للملوك الكاثوليك في العالم الجديد، غير أن القس «برتولومي» ومن تبعه ما زالوا يؤلبون الجند علينا، بل ويساعدون المتمردين من الهنود الحمر، يقولون يا سيدي: إن «كريستوفر» إيطالي فكيف لإيطالي أن يكون أميراً على الإسبان!».

تحرك «فرناندو» من كرسيه ودار حول «يعقوب» قبل أن يتوقف وينظر إليه ويقول: «وإن كان إيطالياً ولكنه كاثوليكياً، وهو أيضاً من فتح لنا هذا الطريق».

أردفت «إيزابيلا»: «يجب أن يعلم الجميع أن من يختاره الملكان الكاثوليكيان لا طريق لاستبداله إلا بهما».

- لهذا وتقديرًا مني أنا «فرناندو» ملك إسبانيا سنزود «كريستوفر» بثماني سفن على الأقل، للقيام بمحاولة أخرى بحثًا عن الثروة، وسنمده بالكثير من الرجال والسلاح للقضاء على كل تمرّد قد يظهر، وسأرسل معه أيضًا من يعاونه على حكم تلك البلاد الكبيرة ولـ «كريستوفر» ومن معه من جنود الحق في قتل كل معارض لنا وكل من يحمل السلاح بوجهنا.

\*\*\*

## (6)

كان «مالك» و«بوبا» يتحركان بين البيوت في جزيرة جمرة بين الحشائش والأشجار، فقد كان كل بيت من بيوت القرية محاطًا بسياج من الأشجار الجميلة، وبين كل بيت والآخر مسافة يضعون فيها الماشية والدواب، وجميع أهل القرية يستمتعون بالعمل في هذا الجو، فالشمس ساطعة رائعة والهواء عليل، وكان مع كل خطوة يخطوها «مالك» ينظر هنا وهناك. «بوبا» وهو ينظر إلى القرية: «لقد اتسعت جمرة، وزاد عدد من فيها».

- أجل فقد كثر المهاجرون إلينا من قرى التاينو التي دهمها الأعراب وعاثوا فيها.

ثم توقف هنيهة من الزمن، وكأنه يستدرك على شيء فاته، فنظر إلى «بوبا» وقال: «لن يتركونا هكذا وسيأتي الدور علينا لا محالة، لذا يجب علينا أن نستعد لهذا اليوم.. عليك أن تصنع الكثير من الحربون.. علينا أن نسلح جميع أهل القرية، فهؤلاء الأعراب يؤخروننا ولكنهم حتمًا سيهجمون علينا».

أومأ «بوبا» برأسه مؤيدًا، وتابع الاثنان سيرهما متفقدين دور القرية وأهلها. أما «كريستوفر» فما إن وصلت إليه السفن الجديدة محملة بالجنود، حتى انتفخت أوداجه فرحًا وانتشت روحه بعدما تيقن من فشل مساعي «برتولومي» وفشل رسالته، وعلم أن «فرناندو»، و«إيزابيلا» يؤيدانه فيما يفعل، فاسترخى

على كرسية وراح يداعب أحلامه وابتسامة كبيرة تملأ وجهه ثم استرخى أكثر وأكثر، ورفع رأسه للسقف وأغمض عينيه من السعادة وهُيئ له أنه امتلك الدنيا جميعاً، ثم عاد فانصب وقال: «والآن وبعد أن اكتملت قوتنا، يجب وضع خطة جديدة ليست للبحث عن الذهب أو اكتشاف المزيد من الأرض، ولكن للسيطرة على الهنود وأخذ أرضهم ونسائهم واستعبادهم إن اقتضى الأمر».

وخارج قصر «كريستوفر» كان «برتولومي» و«لذريق» يجلسان تحت إحدى الأشجار، فقال الأول: «لا يجب أن نياس أبداً».

- حتى بعد وصول الإمدادات إليه؟ إن الملكين لم يتحدثا أو حتى ينصتا إلى رسولك، بينما أرسلنا كل شيء إلى «كريستوفر» بل إنهما لم يتعنيا الرد عليك، فكيف لك بهذه الروح وعدم اليأس!؟

- لا يعرف اليأس إلا ضعيف النفس، وما دمت قادرًا على الحديث والحركة، وما دام في عرق ينبض فلن أياس أبداً، وقد علمت أن «فرناندو» أرسل «فرانشسكو دي بوباديللا» ليشارك «كريستوفر» سلطاته فإن كان هذا حقاً، فقطعاً سيختلف الرجلان فلا يمكث أبداً رجلان على القمة إلا وصرع أحدهما الآخر، فالقمة لا تحتمل أكثر من رجل، والذروة ليس بعدها إلى الهاوية، وقد بلغ «كريستوفر» الذروة وجعل نفسه ملكاً مع الملك.

- لكن كريستوفر ثعلب ماكر.

- و«بوباديللا» ليس بالرجل الهين، لذا علينا أن نستفيد من الصراع المنتظر بينهم، ولا تنس يا صديقي أن «بوباديللا» رجل إسباني وهذا سيعطيه ميزة أكبر من «كريستوفر».

- ولكنهما كاثوليكيان.

- ماذا تقصد، فأنا وأنت أيضاً كاثوليك؟

«لذريق»: «أقصد.....».

«برتولومي» متنهذاً ومقاطعاً: «إن كنت تقصد المساواة فهي ليست موجودة... نعم يا «لذريق» يتميز الناس في النصرانية، فالكاثوليك مقدمون على غيرهم من الأرثوذكس وباقي الطوائف، فإن اتفق الرجلان على

الكاثوليكية، تمايزا بلونهما وأموالهما ومنازلهما فتجد الإسبان يتعصبون لإسبانيهم والإيطاليين لروما وهكذا.

هز «لُذريق» رأسه وقال: «معنى ذلك أن هؤلاء الطيبين لو دخلوا الكاثوليكية لن تحميمهم من بطش البيض».

متعجبًا قال «برتولومي»: «البيض؟».

«لُذريق»: «إن كان التمايز باللون فنحن الإسبان بيض البشرة، وهؤلاء من أهل تلك البلاد حمر البشرة وهناك منهم سود البشرة، وبهذا يكون البيض في المقدمة يتبعهم الحمر والسود ولا يقربهم الدين!».

\*\*\*

## (7)

نهض «كريستوفر» من كرسيه، وتحرك صوب النافذة ينظر منها، ثم ارتد للداخل وصاح في أحد حراسه، فدخل عليه الحارس وانحنى أمامه.

- هل وصل «بوباديللا»؟

- لم يصل بعد يا سيدي.

- وماذا عن إخوتي؟

- هما في السفينة نفسها يا سيدي.

هز «كريستوفر» رأسه، وعاد للداخل ولم تمر بضعة دقائق حتى دخل عليه حارسه مرة أخرى وقال: «لقد وصل ركاب السفن جميعًا يا سيدي».

ما إن سمع «كريستوفر» ذلك حتى تحرك، وخرج من قصره ليجد أخويه «بارتولوميو» و«دييغو» قادمين يهرولان إليه فاحتضنهما، ثم مد يده وصافح «بوباديللا»، ولم يرد أن يسأل أخويه عن أحوالهما أو أحوال أبويه أمام الجميع، فأخّر ذلك لوقت لاحق ثم اصطحب «بوباديللا»، وأنزله في قصر كان قد أعده خصيصًا لذلك بينما نزل أخواه معه في نفس القصر.

مكتبة

t.me/soramnqraa

وبلباسه العسكري وملامحه الصارمة القاسية، وحاجبين غليظين وشارب ضخم يكاد يغطي فمه تحرك «بوباديلًا» في جنبات القصر المتواضع الذي شيده «كريستوفر»، وبعد وقت قصير تحرك وخرج من القصر وهو ينظر هنا وهناك، فاقترب منه أحد الجند وقال: «سيدي الأمير أرسلني «الكونت كريستوفر كولومبس» لدعوتك لحضور حفل عشاء أقامه على شرف حضورك إلى العالم الجديد، فهو يريد يا سيدي أن يطلعك على مجريات الأمور ها هنا». برد مقتضب قال «بوباديلًا»: «حسنًا».

ولم يزد كلمة فانصرف الجندي، وفي المساء أعد «كريستوفر» لنائب الملك مأدبة العشاء، وحضر فيها العجوز «بودروم» الذي انضم إلى «كريستوفر» بعد وفاة الملكة «أناكاونا»، وبعد احتلال «كريستوفر» لقرية «ماجوانا»، وقد كان «بودروم» على الحقيقة غير مخلص للهنود أو للملكة القتيلة، ولكنه كان وفياً فقط لمصالحه وتطلعاته، بل إنه امتنع حتى عن الذهاب إلى المعبد! فقد كان يذهب إليه لأنه يراه سبيله لتحقيق غايته، فلما اختلفت السبل وصار المعبد بلا قيمة عند الغرباء تحول للعمل معهم محاولاً الاستفادة منهم، أما «كريستوفر» فقد رأى فيه خير مساعد له، خصوصاً وأنه من أكابر الهنود، ويعرف كيفية السيطرة عليهم، ونقاط الضعف والقوة فيهم، وهكذا دائماً المحتل يحاول تجنيد من يستطيع تجنيده من أهل البلاد المغلوبة، ليكونوا عوناً له فيما يريده، ولولا هؤلاء ما انتصر محتل يوماً، وما استطاع السيطرة على بلد لا يخون فيه أهله أنفسهم!

وحول مأدبة العشاء اجتمع «كريستوفر» وأخواه «بارتولوميو» و«دييغو» وكان «كولومبس» قد أحضرهم إلى العالم الجديد ليكونوا عوناً له، والعجوز «بودروم» والقائد «دي بوباديلًا»، وبدأ «كريستوفر» في الحديث متفاخرًا فقال: «من كان يظن أن نجتمع هنا في الغرب البعيد لنستطيع بهذه القوة الصغيرة السيطرة على كل هذه البلاد الكبيرة، وحدي أنا أمنت بذلك، فقد كنت على يقين أن خلف البحر بشر وأرض وخيرات لا تحصى، وذهب لا نهاية له». ثم مد يده إلى الطعام وأمسك ببعضه وهو ينظر إلى ما تبقى على المائدة العامرة وقال: «حتى الطعام فيه ما لم نكن نعرف من قبل».

أظهر الحضور الرضا والسعادة، بينما لم يظهر أي شيء على ملامح «بوباديللا» الذي بدا مستهيناً بكل ما يقوله «كريستوفر» بل راح يأكل بشهية قليلة وقال: «وماذا عن أهل تلك البلاد؟».

- لقد حاولت مراراً أن أهديهم إلى الكاثوليكية بطرق عادية، فقدمت لهم الهدايا والنصائح، ولم أياس في هدايتهم، عملاً بنصيحة مولاتي «إيزابيلا»، ولكنهم جحدوا كل ذلك واستهانوا بجنودنا وقتلوا بعضهم... لقد أردنا العيش معهم في سلام، ولكنهم رفضوا ذلك واستخفوا بنا، ولم يكتفوا بذلك حتى طردوا هذا الرجل الشهم منهم لا لشيء إلا لأنه زجرهم وبين لهم خسيس أفعالهم معنا.

ثم نظر إلى «بودروم» ففهم أنه يستشهد به فقال «بودروم»: «أنا أعترز لكم عما فعله قومي، فقد أسأؤا إليكم كثيراً، وقابلوا هديتكم وحسن معاملتكم لهم بسوء أخلاق منهم، على أنهم قوم مغرر بهم يا سيدي».

بصوت أجش قال «بوباديللا»: «ومن هذا الذي غرر بهم؟».

- أمير جزيرة جمرة، هذا الغريب الذي نزل بلادنا منذ زمن، حتى إذا فشل في تبديل ديننا وعقيدتنا، راح يبث الشقاق بيننا، وكل هدفه سيادة تلك الأرض، وفرض عقيدته طمعاً في الملك وفي الأميرة المسكينة «هيدا».

تابع «بوباديللا» صمته بينما تابع «بودروم» كذبه فقال: «أجل إنه «مالك» حاكم جزيرة جمرة، هو سبب كل البلاء وكل القتل والدماء التي سالت في الجزيرة».

«كريستوفر» بمكر شديد: «ورغم ذلك يحاول القساوسة هدايتهم للحق ولنور المسيح والكاثوليكية بكل الطرق، لم نقتلهم إلا مدافعين عن أنفسنا فقط.

نهض «بوباديللا» وهو يتطلع أمامه: «أو قد وصلت الاستهانة بنا إلى هذه الدرجة؟! إذاً ليعلموا أنه من لم يهده عقله، يهده السيف ورائحة الدم».

\*\*\*

انتهى العشاء، وشرب كؤوس الخمر وذهب كلٌ إلى مخدعه، وقد توجس «كريستوفر» خيفة من «بوباديللا» وزاد قلقه مع طول صمته، فما إن وضع

رأسه على الوسادة، حتى دارت في رأسه أفكار كثيرة وأسئلة أكثر، فقد كان قبل ظهور «بوباديل» ملكًا متوجًا، أمَّا الآن فلن يستطيع فعل أي شيء من دون الرجوع إلى هذا القائد، ما يعني فقدانه مميزات كثيرة كان قد اكتسبها، فأرَّقه هذا كثيرًا حتى إنه لم يستطع نومًا، وفي الصباح وما إن نهض من مخدعه حتى كان أخواه في انتظاره، وقد راودتهما الأفكار نفسها، فأفضيا بها إلى أخيهم الذي لم يكن يملك ما يطمئنهما به إلا أن قال: «سننتظر ما تأتينا به الأيام». مكتبة سر من قرأ

وبينما يتحدث الثلاثة، إذ تقدم أحد الحراس من «كريستوفر» وقال: «سيدي يدعوك القائد «بوباديل» إلى لقائه في الحال».

نظر «كريستوفر» إلى السماء وقال: «أفي مثل هذا الوقت المبكر من الصباح وبمثل تلك السرعة؟ فلم يكد يكمل يومه الثاني هنا، حتى بدا في ممارسة حكمه».

- إنه يلح في طلبك.

أشار «كريستوفر» إلى الجندي فانصرف، ونظر إلى أخويه وقال: «ها قد بدأ يمارس دوره كملك، فليُرني ماذا أكون إن كان هو الملك؟».

ثم تركهما وخرج ليلتقي «بوباديل» الذي كان واقفًا بين رجاله حول مائدة مستطيلة كبيرة، فاندesh «كريستوفر» لهذه المائدة التي لم تكن موجودة ولهذا الاجتماع الذي بدأ من دونه، وبخطوات متناقلة تقدم حتى وجد لنفسه مكانًا على الطاولة فقال له «بوباديل»: «كيف استطاع هؤلاء الرعاى أن يفعلوا بك وبجنودنا ما فعلوا؟».

- لقد كنا في قلة من العدد يا سيدي.

- لم تكونوا في قلة من العدد، ولكن كنتم تبحثون عن الذهب، فأغفلتم تأديب هؤلاء، ولم تتعلموا من ملوك «قشتالة» و«أراجون» كيفية التعامل مع أمثالهم، حتى أضعتم بتلك الأفعال هيبة قشتالة وجيشها.

امتعض «كريستوفر» من كلام «بوباديل» إذ كيف له أن يتحدث إليه بهذه الطريقة حتى قال في نفسه وهو يجزُّ على أسنانه: من تظن نفسك حتى تحدث أمير البحار بهذه الطريقة، وأمام هؤلاء الرعاى؟

ولكن لم يجرؤ على الإفصاح بما يجول في خاطره ولم يستطع ردًا أو قولًا فقد كان لـ «بوباديللا» هيبة جعلت «كريستوفر» يحتاط منه ويخشاه ويخاف بطشه.

نظر «بوباديللا» إلى «كريستوفر» بنظرة حادة وقال له: «لترسل من الغد من يخرج من جنودنا ويجمع لنا الذهب، على أن تخرج الجنود في فرق لا يتعدى الفرقة الوحدة منهم أربعة جنود وقائدهم».

- خمسة هو عدد قليل سيطمع فيهم الهنود الحمر يا سيدي، فلربما يتكاثرون عليهم ويفنونهم.

- ليفعلوا!

- لكن...

- لا تناقش في الأمر وافعل فقط ما أقوله لك.

- كما ترى أيها القائد.

وبالفعل خرجت الفرق القشتالية إلى القرى الهندية المجاورة تبحث عن الذهب، وما إن دخل الجنود القرى حتى طاردوا النساء والأطفال والرجال، ففرّ الهنود من أمامهم خوفًا وجزعًا، وتمادى الجند القشتاليون في ترويع النساء والأطفال، ما حدا ببعض الهنود أن يقذفوهم بالحجارة فشجت رؤوس بعض الجند، وعادوا لـ «بوباديللا» والدماء تسيل من وجوههم ورؤوسهم، وما إن شاهد «كريستوفر» ذلك، حتى دخل على «بوباديللا» وقال: «هذا ما حذرت منه أيها القائد».

- وهذا ما أردته يا «كريستوفر»!

شعر «كريستوفر» أنه لا يفهم شيئًا فقال: «هل أردت هلاك جنودنا؟».

- قطعًا لا.

- فماذا أيها الأمير؟

- أن نقيم الحجة عليهم فنفنيهم بها، فلا يكون لـ «برتولومي»، وأمثاله حجة علينا أمام الملك ثم استطرد يقول: «من الغد سيخرج جنودنا في مجموعات كبيرة لهذه القرى المتمردة، فيقومون بذبح بعض من نعاج تلك القرى».



## الفصل السادس

بئست الخيانة فهي تفني الجيوش  
وتسحق الأوطان.

### (1)

أمسك «بوباديللا» بزمام الأمور في العالم الجديد، وبدأ يتصرف كأنه الملك المتوج، ولأنه إسباني فقد اجتمع حوله جل الجند والبجّارة، ونفروا من «كريستوفر» كونه إيطاليًا، ومع مرور الوقت، شعر «بوباديللا» أنه لا يجب أن يشاركه أحد السيادة في هذه البلاد، وخصوصًا وقد دأب الجند الكارهون لـ«كريستوفر» وأخويه يوغرون صدر «بوباديللا» عليهم، فما كان من «بوباديللا» إلا أن أمر «كريستوفر» بالإبحار مرة أخرى ومتابعة استكشافاته، فقال له بعد أن استدعاه لحضرته: «لقد استقرت قواتنا هنا بعد الذي فعلنا حتى لم يبقَ لنا أن نصنع أي جديد، فلماذا لا نتابع إبحارك وهو الغاية التي خرجت من أجلها؟».

شعر «كريستوفر» بالضيق من الطريقة التي يحدثه بها «بوباديللا» فقد ظهر متعاليًا عليه مقلدًا منه، بل إنه كان يعامله كأحد تابعيه لا شريكه في حكم العالم الجديد، ولكنه لم يكن يملك القوة والشجاعة ليثور في وجهه أو

يتحدها، فالتزم الصمت هنيهة وكأنه يتدبر الأمر، ولكن «بوباديللا» قطع عليه صمته وقال: «تخرج لتتابع اكتشافاتك، وأمكث أنا هنا أوطد سلطان الملوك الكاثوليك، وبهذا لا تضيع جهود القوات الإسبانية في أمر واحد هين».

- لا بأس يا سيدي فنحن في خدمة الملوك الكاثوليك، وما خروجنا إلا من أجلهم.

- إذًا تجهز واخرج في أقرب وقت ممكن.

تحرك «كريستوفر» وخرج من عند «بوباديللا» وهو يلعن هذا اليوم الذي رآه فيه، حتى فقد بسببه ملكه وجاهه وسلطانه، وبخطوات واهنة تحرك «كريستوفر» حتى دخل قصره فالتقاه أخواه فقال لهما: «سأخرج أنا لمتابعة رحلتي، وتبقيان أنتما هنا عيناً لي، تتلقفان الأخبار وتسجلان ما يحدث حتى إذا رجعت، كان عندي علم بكل شيء، حتى كأني كنت معكما، واحذرا «بوباديللا» جيداً فهو يريد البطش بنا، ولولا خشيتي من انقلاب الجند عليّ لناوأته، ولكني أعلم أن القشتاليين يميلون بعضهم إلى بعض، وإلا فما كنت رضيت بكل هذا الذل والهوان وأنا من أنا».

«بارتولوميو»: «لقد أحس «بوباديللا» التنافر الحادث بينك وبين البحارة والجند، خاصة وقد نما إليه ما يقوله هؤلاء عنك، فقد أسأت يا أخي عندما قسوت على جندك فكرهوك».

«كريستوفر»: «لا سبيل للحديث عما فات فما حدث قد كان».

«دييغو»: «ولكن لماذا في هذا الوقت بالذات؟».

«كريستوفر»: «يريد هلاكي، ويريد أن يثبت أنني لا شيء من دون «لذريق»

و«مارتين آلونسو بينسون»..... إنه يعلم كل شيء».

بدأ «كريستوفر» التجهيز للرحلة وهو غير مطمئن لما يحدث حوله..... أجل هو يحب البحر ويعشق الترحال، ولكن لم يكن يتوقع أن يكون تحركه بأمر من «بوباديللا»، خاصة وأنه كان يحسب نفسه ملك العالم الجديد، فاختلطت مشاعره فتارة يسعد لأنه سيبتعد عن «بوباديللا»، وبالتالي ستعود له كل صلاحياته وانفراده بالرأي، وتارة يحزن كيف يترك كل مكتسباته وثوراته لـ «بوباديللا» ويتنازل عنها بهذه السهولة والسذاجة، ولكن لم يكن أمامه غير الانصياع لأوامر «بوباديللا»، فراح يجهز أسطوله ويحاول إقناع

نفسه أن القادم أفضل، وأنه خرج من إسبانيا بغرض الدوران حول الأرض وجمع المال، واصطحب خادمه «يعقوب»، وركب «كريستوفر» أحد السفن وكان القائد «بوباديلّا» على الشاطئ يودعه، وتحركت السفن في عرض المحيط ووصلت إلى «هندوراس» وارتاد «كريستوفر» شاطئ «نيكاراجوا» و«كوستريكا» مؤملاً أن يجد مضيّقاً يتيح له أن يطوف بالأرض.

وفي إحدى الليالي، هبت ريح عاصفة مصحوبة بالمطر فأفقدت «كريستوفر» وبحارته كلّ أمل في النجاة، وظل ورجاله تائهين لمدة تسعة أيام، وضاعت كل بارقة أمل في الحياة، حتى قال «كريستوفر»: «لم ترَ عيناى قطُّ بحرًا كهذا هائجًا عاليّ الأمواج، يغطيه الزبد».

فرد عليه «يعقوب» وقال: «إن الرياح يا سيدي لم تمنع تقدمنا فحسب، بل إنها لم تتح لنا أي فرصة للسير وراء لسان من الأرض نعتصم به من العاصفة، فماذا نفعل؟».

- لا مناص أمامنا سوى مواصلة السير في هذا المحيط الملعون، ونحن نتقلب فيه كالقدر حين يغلي على النار.

- لم تبد السماء قطُّ مخيفة كما بدت لي اليوم، فقد ظلت يومًا وليلة ترسل شواظ من نار يلسعنا كألسنة اللهب.

وبينما يتحدثان على ظهر السفينة، إذ تفجر البرق بشدة حتى ظن الجميع أن القيامة قد قامت، وهرع البحّارة إلى سوارى السفن يحاولون حمايتها من الرياح أن تقتلعها أو تتحطم، وكانت ومضات البرق تتوالى بعنف وبصورة مروعة، حتى اعتقد الجميع أن السفن توشك أن تنفجر. ولم تتوقف الأمطار عن الهطول طوال ذلك الوقت.

«كريستوفر»: «إنها تمطر بقوة والمياه تندفق حتى يخيل إلى إنه طوفان آخر».

ثم نظر إلى بحّارته فوجدهم منهوكي القوى، وبعضهم راح يتمنى الموت بصوت عالٍ ليضع حدًّا لآلامه المروعة.

وإلى جانب ما كانت تحدّثه الريح والمطر والبرق وسلسلة الصخور القريبة من فزع، هب إعصار عاصف ينشر رذاذ البحر، وكان قريبًا جدًّا من السفن إلى درجة الخطورة، وبدأت المياه ترتفع إلى أعلى بشكل مخيف ومرعب، فتناول «كريستوفر» كتابه وقرأ فيه كيف هدأ المسيح العاصفة في «كابيرناوم»، ثم

تعود من الإعصار ورسم في السماء بسيفه، ولكن الإعصار استمر وبعد يومين انهارت قمة الماء وانتهى هياج البحر بعد مرور اثني عشر يومًا مروعًا.

هدأت الأمواج واستسلم جميع البحّارة للراحة واليأس، كما استسلمت السفن للأمواج البحر تتقاذفها كيفما تشاء، وبينما الجميع ينتظرون الموت إذ شاهد أحد البحّارة شاطئًا قريبًا، عندها صاح في باقي البحّارة فدبت فيهم الروح وجدفوا صوب اليابسة، ورست السفن في ميناء قرب الطرف الشرقي لبنيما.

\*\*\*

## (2)

وسط زقزقة العصافير ورياح جميلة تداعب أوراق الشجر جلس «كومانش» تحت ظل شجرة جوافة كبيرة بينما كان صديقه «بيمان» يحاول جمع بعض الأعشاب الجافة، حتى إذا انتهى من ذلك أشعل النيران في تلك الأعشاب فخرج منها بعض الدخان، فإذا بـ«بيمان» وصديقه «كومانش» يستنشقان تلك الأدخنة في سعادة كبيرة، وقد كان التدخين البدائي منتشرًا في كل مناطق الهنود الحمر في ذلك الوقت، وكانا يحرقان التبغ بهذه الطريقة حتى إذا خفتت النيران وحُرق كل التبغ الموجود، أعاد «كومانش» الإشعال مرة أخرى ثم تجاذب الاثنان الحديث فقال «كومانش» ساخرًا: «لن يستطيع ردعهم فلماذا يقاتلهم؟».

- فليقاتلهم وحده إن استطاع، هم يريدون الذهب فليأخذوه.

راح «كومانش» ينفخ في النار ليزيد مع ذلك تدفق الأدخنة، حتى إذا احمرت عينه من تأثير الدخان أبعد وجهه قليلًا ثم قال: «إن هذه الأعشاب التي نحرقها لهي أهم عندي من كل الذهب وكل المعادن، فليأخذ الأعراب الذهب ويتركوا لنا هذه العشبّة التي لا غنى لنا عنها ولنعيش معهم بعد ذلك في سلام».

\*\*\*

حاول «مالك» استتارة أهله وقومه وشحذ عزيمتهم لمجابهة الإسبان، ونجح بالفعل في حشد الكثير من الناس حوله، أولئك الذين آمنوا بأن الموت دفاعًا عن أنفسهم خير من الموت فرارًا أو استعبادًا.

أما «بوباديللا» فقد جهز جنوده وقرر أن يخرج بنفسه إلى جزيرة جمرة ويحكم السيطرة عليها، فتحرك ومعه ألف مقاتل يحملون البنادق والسهام، ويمتطون الخيل المرعبة بصهيلها وقوتها ورشاقتها، حتى إذا اقتربوا من جزيرة جمرة خرج عليهم «مالك» في رجاله وهم يحملون سلاح الحربون والسهام، فكانت معركة غير متكافئة، حتى إنه لم يمر وقت طويل حتى غلب السلاح الحديث الشجاعة الكبيرة، وقُتل معظم رجال «مالك» في وقت قصير جدًا وعلتهم الخيول بأقدامها، وفر «مالك» و«بوبا» من أرض المعركة عن طريق إلقاء أنفسهم في النهر الذي لولاه ما استطاعا فرارًا، ودخل «بوباديللا» جزيرة جمرة في رجاله وهو ينشر الرعب والفرع في قلوب أهلها، الذين ما كان لهم هدف غير أن يتركهم الأغرأب أحياء.

وكيفما دارت كأس المنون قبل سنوات وقرون في «الأندلس» دارت الكأس نفسها في هذا العالم الجديد، فحوّل «بوباديللا» مسجد المدينة إلى كنيسة، وأحرق المصاحف وجمع الكتب العربية المنتشرة في جزيرة جمرة وأوقد فيها النيران، وأوكل إلى قساوسته مطاردة كل من يثبت عليه الإسلام أو يتحدث العربية، وفشلت كل مساعي القس «كازاس» ورفيقه «لُذريق» في وقف المذبحة فاكتفى الاثنان بمحاولة تطيبب الجرحى من أهل جمرة.

وعلى جثث القتلى وقف «بوبديلا» تعلوه نظرة الانتصار وهو يقول: «هذا جزاء من حارب الجيش الإسباني العظيم ومن خرج على طاعة الملوك الكاثوليك، وليعلم الجميع أننا فرضنا على كل هندي تجاوز عمره الأربعة عشر عامًا، جمع كمية معينة من الذهب للإسبان كل ثلاثة أشهر، ومن لم يفعل، فعليه مواجهة العذاب الأليم».

\*\*\*

### (3)

في الوقت الذي كان فيه «بوباديللا» يواصل فرض سيطرته على قرى الهنود الحمر، كان «كريستوفر» قد نجح في أن يرسو بسفنه في مناطق جديدة، وقد وافق نزوله الأرض أعياد الميلاد، فقرر «كريستوفر» ورجاله أن يحتفلوا برأس السنة وقلوبهم مثقلة بالحزن، دون أن يدور بخلداهم أن المحيط الهادئ لا يبعد عنهم إلا أربعين ميلاً.

نظر «كريستوفر» حوله وقال نريد الماء العذب والطعام، فنهض «يعقوب» وقال: «سأخذ بضع الرجال وأجلب الماء والطعام يا سيدي».

- خذ حذرك ولا تبتعد كثيراً.

- أمرك سيدي.

تحرك «يعقوب» بعد أن اصطحب من رجاله اثني عشر رجلاً وتقدم بهم في تلك الأراضي المجهولة يبحث عن نهر أو بحيرة للماء العذب...

وبعد وقت قليل وجد ضالته، حيث ظهرت أمامه صفحة النهر، وفرح وفرح رجاله كثيراً وتقدموا ليرووا عطشهم، وراحوا يلهون بالمياه ويسبحون فيها، وبعد وقت أمرهم «يعقوب» بحمل المياه والعودة لشاطئ بحر الظلمات.

بدأ الرجال في تعبئة قرب الماء حتى إذا أرادوا التحرك صوب «كريستوفر» لمح أحدهم امرأة من الهنود الحمر بالجوار، فتقدم الرجل صوب «يعقوب»، وقال: «إنها امرأة يا سيدي! امرأة وحيدة!».

ابتسم «يعقوب» وقال: «وبهذه ومثلها يحلو الاحتفال بليلة الميلاد، اذهب واثنتي بها، وانظر فلربما تجد هناك غيرها فهؤلاء التعساء لا يحسنون الحفاظ على نسائهم».

فرح البحار أيماً فرح، وتقدم ومعه رجلان آخران، حتى أمسكوا بالمرأة التي صرخت بصوت عالٍ وهي تحاول الإفلات منهم، وهم يحملونها كفريسة وقعت وسط الذئاب حتى إذا عادوا لـ«يعقوب» قالوا: «لم نجد غيرها يا سيدي».

رفع «يعقوب» حاجبه وقال: «لا بأس بها، تسرّى عنا قليلاً».

ومع صرخات المرأة تحرك «يعقوب» ورجاله صوب «كريستوفر» وما هي إلا خطوات حتى شق الهواء صرِيخُ عالٍ يتبعه سهام تشق الصدور وتخرق الأعناق، كانت تلك السهام هي سهام مجموعة من الهنود الحمر تقدموا لإنقاذ المرأة وقتل من اعتدى عليها.

بدأ رجال «يعقوب» يتساقطون بينما فر «يعقوب» نفسه حتى وصل إلى «كريستوفر» من دون رجاله ودون الماء والطعام، فقد لقي جميع الإسبان معه مصرعهم، وتقدّم الهنود الحمر صوب «كريستوفر» ورجاله، فسارع «كريستوفر» بإطلاق نيران البنادق التي أخافت الهنود الحمر فتراجعوا عنه، وهم يتربصون به بعد أن أردت البنادق بعضهم قتلى.

صرخ «كريستوفر» بأعلى صوته وقال: «أعدوا السفن للإبحار حالاً، فلن نستطيع المكوث هنا، فهؤلاء الغرباء لن يتركونا نحيا معهم في سلام!..»

أمسك بعض البحّارة البنادق ليحموا السفن ويقتلوا كل من يتقدم صوبهم من الهنود، بينما بدأ باقي البحّارة في الركوض نحو السفن، ولكن كارثة جديدة حلت بهم، إذ صرخ أحدهم وقال: «لقد عطبت السفينة يا سيدي، ولن نستطيع الإبحار بها قبل أيام حتى نستطيع إصلاحها فقد ارتطمت بأحجار الشاطئ.»

- اللعنة عليك، اعملوا على إصلاحها في أقرب فرصة ولا تتوقفوا حتى تنتهوا.

ثم انتخب «كريستوفر» بعضاً من رجاله وجعلهم يحملون البنادق ليحرسوا لهم المكان، ولم يكن إصلاح السفن هو كل الكارثة التي حلت بهؤلاء، فقد نفذ طعامهم وبدأوا يتساقطون جوعاً، ورغم قرب الطعام منهم فإن تربص الهنود الحمر بهم أربعهم، فهم من جهة لا يملكون العدد الكافي لمجابهة أهل تلك المنطقة، ومن جهة أخرى فهم يخشون نفاذ ذخيرة الأسلحة التي معهم، ومن ثمّ يمزقهم الهنود الحمر الذين هالهم طمع الغرباء في نسائهم.

ومع تسارع الوقت ومُضي الأيام وحاجة البحّارة إلى الأخشاب لإصلاح السفن، لم يجد «كريستوفر» أمامه سوى الحيلة، فعمد إلى تقويم «رجيومونتانوس» الفلكي الذي جاء بحساباته خسوف للقمر بعد يومين، فاستدعى «كريستوفر» زعماء الهنود وأنذرهم بأن الله غاضب بسبب

سماحهم بتجويع رجاله، وأنه يحجب عنهم ضوء القمر، فسخروا منه ولكن عندما بدأ الخسوف سارعوا بإحضار الطعام إلى السفن، وليس هذا فحسب، بل سمحوا لرجال «كريستوفر» بأخذ حاجتهم من الأخشاب، وعندئذ طمأنهم «كريستوفر» وقال إنه دعا الله أن يعيد للقمر ضياءه، وأن الرب وعده أن إذا أطعم الهنود المسيحيين جيدًا فسيعود القمر للظهور.

\*\*\*

## (4)

تابع «بوباديللا» السيطرة على الهنود الحمر وتوسعة نفوذ الملوك الكاثوليك، فاستولى بفضل الخيل والبنادق على كل الأرض التي وطنتها أقدام جنوده، وبدأ في فرض كلمته على الهنود الحمر وفرض قوانينه، وجعل استخراج الذهب والبحث عنه من مسؤوليتهم، وتساعد الظلم في العالم الجديد والقساوسة ينتشرون بين الناس يحاولون هدايتهم إلى المسيحية.

وهدم «بوباديللا» كل المعابد الموجودة في العالم الجديد، ودمر كذلك كل مكان يمكن أن يحوي ذهبًا، وتعامل مع الهنود معاملة الطاغية الذي لا يخشى شيئًا، منتشياً بإراقة الدماء، ووقف «كازاس» مشدوهاً أمام ما يحدث حتى سأل نفسه: «هل أرسلت إلى الملوك الكاثوليك أشكو أفعال «كريستوفر» ليستبدلوا به هذا الطاغية المجرم؟».

كان «كازاس» يتحرك وسط الأشجار الكثيفة وهو يفكر في هذا، وقد شاب وجهه الحزن والألم، وكان يتحرك ولا يدري أين يخطو خطوته القادمة، فظل يتحرك هكذا حتى قادت أقدامه إلى بحر الظلمات، فجلس إلى شاطئه وكانت الشمس قد قاربت على الغروب، ووضع يديه على وجهه وراح ينظر إلى الشرق وظل فترة صامتاً لا يتحرك، وفجأة سمع أصوات أقدام تقترب فنظر فإذا هو «لذريق الطرياني».

- بحثت عنك كثيرًا فلم أجدك... في الكنيسة والشوارع والمعسكر.

- لقد ضاقت عليّ كل تلك الأماكن، فلم أحتمل البقاء فيها.



- أنت تقول ذلك؟

- ماذا تعني؟

نظر «لُذريق» إلى الماء أمامه وقال: «أعني أني كنت أعلم أن الرهبان والقسيسين يجدون سعتهم في الكنيسة والمذبح».

- وهل أذهب إلى الكنيسة لأرى تلك الوجوه المنافقة؟ تلك الوجوه الكاذبة التي لا شغل لها غير جمع الذهب وإزهاق الأرواح باسم الكاثوليك.

ثم تنهَّد وأتبع يقول: «بل مكان فسيح كهذا أجد فيه ما لا أجد في غيره».

- وماذا عن هؤلاء المساكين؟ أين يجدون مكاناً يسعهم؟ بعد أن ضاقت بهم بلادهم وارتوت من دمائهم.

- لن أسكت كثيرًا على ما يحدث... لن أسكت.

- فماذا أنت فاعل؟

نهض «كازاس» من مكانه وقال: «سأتحدث إلى هذا الطاغية، فلا بدَّ من كلمة حق تقال في وجهه...».

ثم تحرك وخلفه «لُذريق» حتى دخلا على «بوباديل» وكان حوله قادته وهم يضحكون حتى إذا رأوا «كازاس» تبدل حالهم وتوقفت ضحكاتهم فقال «بوباديل»: «أهلاً بالأب «كازاس»».

- لماذا تقتلون الناس دون سبب أو ذريعة؟! حتى كرهوا كل ما هو أبيض بل وكرهوا النصرانية كلها...

ضاحكًا وساخرًا قال «بوباديل»: «وماذا لو أحبونا؟ الكره والحب لا يعني شيئًا عندي، فليكرهوني أو يحبوني فلن يبدل هذا من الأمر شيئًا، أما الكاثوليكية فإن لم يدخلوها فهذا دليل فشلكم أيها الأب، فماذا لو تركت لنا السياسة وحكم الناس وأشغلت نفسك بهدايتهم وتعليمهم كيف ينفذون الأوامر».

- أما سياسة الناس وحكمها فهو لكم، ولكن بلا ظلم، فإنكم بظلمكم هذا تعطونهم الذريعة لقتل جنودنا والهروب من ديننا.

- فليفعلوا إن استطاعوا، وعندها لن أترك منهم أحدًا حيًّا.

- هل أتيت إلى هنا لاستباحة هذه الدماء؟! إن الرب لا يرضى بما تفعل ولا الملوك الكاثوليك في إسبانيا يسمحون بذلك ويرضون.

محدثًا قال «بوباديللا»: «مهمتك هي هداية الناس للمسيحية، وليست قيادة الجيش فلئن عجزت عن ذلك، فلتعد لديارك ولتتركني وشأني، أما الملوك الكاثوليك فأنا أعلم بهم منك».

غضب «كازاس» لما سمع وأدار وجهه منصرفًا، فتبعه «لُذريق» عندها مال أحد الموجودين وهمس في أذن «بوباديللا» بينما عيناه تنظران إلى «لُذريق»، فوقف «بوباديللا» وصرخ قائلاً: «توقف أيها الجندي، فمن الذي سمح لك بأن تغادر مكاني؟».

تسمرت أقدام «لُذريق» وكذا «كازاس» فاستطرد «بوباديللا» يقول: «لتعد لمكانك في الصفوف وإلا فالتجديف للعصاة أمثالك».

تبادل «كازاس» و«لُذريق» النظرات ثم قال «لُذريق»: «إنما أنا بحار ولست بجندي يا سيدي».

- ولقد انتهى عمل البحارة ولم يبقَ إلا أعمال الجند فقط.

ربت «كازاس» على كتف «لُذريق» وهز رأسه دون أن يتكلم ففهم «لُذريق» تلك النظرات، بينما أكمل «بوباديللا» قائلاً لأحد جنوده: «خذه ليأخذ مكانه بينكم».

\*\*\*

## (5)

غابت الشمس وتوارت خلف الغابات، وحل الليل بوحشته في هذا المكان من الغرب، و«كازاس» يجلس وحيدًا في بيته الحجري وقد ارتدى ثياب النوم واضجع على سريره، وراح ينظر إلى الأعلى وهو يفكر في أمر نفسه ويتساءل: لماذا خرجت من إشبيلية؟ لماذا أرادني الملوك الكاثوليك أن أدعو الناس إلى الكاثوليكية بينما يرسلون جنودهم لقتل الناس وذبجهم؟ فإن كانوا أرادوا

هلاكم فلم أرسلوني إلى هنا؟ أما كفاهم تلك الجيوش الغاشمة تقتل وتفتك بكل شيء؟

وجافاه النوم فظل يتقلب يمينا ويسارا حتى إذا طرق أحدهم الباب طرقا خفيفا، رفع «كازاس» رأسه من على الوسادة يترقب الأمر، وكأنه يحاول أن يتيقن هل من أحد يطرق فعلا أم إنها مجرد أوهام سببها الأرق..

نم يا «كازاس»، هكذا حدث الرجل نفسه ليدير بعدها وجهه للجدار محاولا النوم، ولكن الباب عاد ليطلق مرة أخرى فتأكد «كازاس» أن أحدهم يريده، فنهض من مكانه وتحرك صوب الباب ففتحه وهو يتوقع أن الطارق هو صديقه «لذريق الطرياني» ولكنه صدم عندما رأى «بارتولوميو» الأخ الأصغر لـ «كريستوفر كولومبس!».

فتح «كازاس» عينيه وقال متعجبا: «أنت؟!».

- لو أذن لي قداسة الأب بالدخول.

بمزيد من التعجب والامتعاض قال «كازاس»: «تدخل!»، ثم هز رأسه قائلا: «لا بأس، فلتدخل».

دخل «بارتولوميو» وجلس على كرسي خشبي بالقرب من الباب، وجلس «كازاس» بالقرب منه.

- سيدي، أتقف صامتا هكذا وتترك «بوباديللا» يهرق دماء الأبرياء دون رحمة أو شفقة؟

«كازاس» متعجبا وساخرًا: «وأخوك! ألم يفعل ذلك من قبل؟ وأنت نفسك، ألم تشارك أخاك ومن بعده «بوباديللا» في هذا الإجرام والقتل؟».

- أخي كان يدافع عن نفسه ورجاله ولم يقتل لمجرد القتل، أما أنا فلا أملك إلا الانصياع لإرادة «بوباديللا» وإلا فسيبطش بي وبكل من يرفض أوامره.

- بل كان أخوك يقتل تعطشا لدماء الأبرياء الضعفاء الذين أحسنوا إليه فأساء إليهم، فهو أول من فعل وأراق الدماء هنا، اسمع يا «برتولوميو» لا تحاول أن تستخدمني لتحقيق أغراضك في عدائك مع «بوباديللا» فأنا لست طرفا بينكما، ورسالتي مختلفة عنكما ولا التقاء أبدا بيننا،

فإن كنت سأنافح عن الضعفاء في هذه البلاد، فمن أجل المسيحية، لا من أجلك ولا من أجل أخيك، ولا شأن لي بخلافات بينكما وبينه فهي مصالحمًا تتصارعان عليها....

\*\*\*

## (6)

ووسط الأشجار المتشابكة، بعيدًا عن تلك المناطق المأهولة بالسكان، وفي عمق الغابات الشاسعة، بعيدًا عن شاطئ «بحر الظلمات»، أقام «مالك» وزوجته «هيدا» في كوخ صغير وبالقرب منهما كان هناك كوخ آخر يسكنه «بوبا» وحولهم أكواخ عديدة يسكنها من لحق بهم من رجال الهنود الحمر الفارين من وجه «بوباديللا» وخيوله وبنادقه الطويلة التي تفتك بكل شيء.

اقترب «بوبا» من «مالك» وكان جالسًا على ضفة إحدى برك المياه فجلس بجواره وقال له: «انظر، لقد بلغ عدد من انضم إلينا قرابة المئة رجل وامرأة».

- تقصد من فرَّ إلينا هربًا من الموت؟

- فر منهم أو انضم إلينا لا فرق.

- بل كل الفرق يا صديقي، فالمُنضم إلينا بإرادته هو يريدنا ويحب أن يكون معنا ومؤمن بما نفعل، أما الفار إلينا، فهذا لم يجد له مأوى سوانا، فلا يؤمن جواره ولا يحسن الاعتماد عليه، فهو معنا لأننا طريقه الوحيد للنجاة، وليس لأننا صديقه القريب، فإذا وجد ضالته في غيرنا، تركنا ولن يبالي.

- مممم، ألا تعرض عليهم الإسلام يا مالك فتأمّنهم.

- لن نستغل ما يحدث في أمر ولو لنشر الإسلام يا صديقي، فالإسلام ليس في حاجة إلى ضائقة يمر بها قوم حتى يسلموا.... والآن أخبرني هل جميعهم من جزيرة جمرة؟

- لا... فهناك عدد ليس بقليل من «ماجوانا» و«مياركا» و«كادىكا» و«ماركو» و«المامى» وغيرهم.

- «مياركا» و«كادىكا» و«ماركو» و«المامى».... تلك قبائل يغلب عليها الإسلام يا «بوبا».

- وهناك قبائل غير مسلمة، غير أن العذاب الأكبر وقع على المسلمين دون غيرهم ولذلك فر معظمهم إلينا، فمن الواضح جدًا أن هؤلاء الغرباء يكونون عداً كبيراً للمسلمين، حتى إنهم يفعلون بالقبائل المسلمة ما لا يفعلونه في غيرهم، فيهدمون المساجد ويحرقون الكتب ويقتلون بغير حق، ويختطفون النساء والأطفال.

- مذ علمت بتغلبهم على بلادنا في المشرق وأنا أعلم أنهم لن يتركونا في المغرب، غير أنهم في المشرق يملكون من الأسلحة ما يستطيعون به مجابهة هؤلاء، أما نحن فلا نملك غير شجاعتنا ومعرفتنا بتلك الأرض، ثم نهض وتحرك وخلفه وبوبا وسارا بين الأكوخ ينظران هنا وهناك وهما يشاهدان ما حل بأهل تلك القرى من عذاب وشتات، فإذا نفوس ضائعة وأحلام مصلوبة على أعواد أمل يابس، وعيون غارت في أجساد هزيلة.

كان «مالك» و«بوبا» يشاهدان ذلك وقلوبهم تتقطع لما حدث لهؤلاء الناس، حتى إذا شاهد مالك «كومانش» وكان من أحد رعايا جزيرة جمرة قال له: «كومانش»! حتى أنت يا «كومانش»؟».

- لمّ التعجب ولم يترك هؤلاء أحد حتى الموتى!

- كيف ذلك؟

رفع أحد الرجال رأسه واستبَقَ يقول: «بعدما نفذ كل الذهب من القرى والمدن وبعدما قتلوا العشرات والمئات، راحوا ينبشون القبور بحثاً عن الذهب والزمرد في بطون الموتى فكانوا يخرجون الموتى، ويقطعون ما تبقى منهم بالسيف، ثم هدموا المعابد ولم يتركوا حجراً على حجر وكأن الذهب هو ربهم الأعلى».

- ولكن كيف علموا بتلك الطقوس، كيف علموا أن غير المسلمين هنا يدفنون الذهب في بطون الموتى؟  
 «كومانش»: «إنه اللعين «بوردوم»».  
 «بوبا»: ««بوردوم» فعل كل هذا؟».  
 «كومانش»: «وأكثر من ذلك، فقد دخل دينهم وصار واحدًا منهم، بل صار من كبرائهم، وكيف لا وهو الذي يدلهم على عوراتنا وما لا يعلمون عنا».

\*\*\*

## (7)

في حرارة الشمس القائضة وبين جنوده المكشرين عن أنيابهم، وقف «بوباديللا» يراقب العمل من كُتب ومئات الهنود يعملون على إقامة قصر ملكي جديد يقيم فيه، بينما يحميه من لفح الشمس نفرٌ من الهنود الحمر يحملون فروعًا من الأشجار كثيفة الأوراق، بينما كان على آخرين أن يتخذوا من أجنحة الإوز مراوح تلطّف الجو لـ «بوباديللا» وكبار رجاله، حتى إذا حان الوقت جلس «بوباديللا» على محفة تناوب بعض الهنود على حملها حتى أوصلوه إلى مستقره، فلما وصل وجلس في مكانه وسط قرية «ماجوانا» التي اتخذها قاعدة له ولجيشه تقدم منه القائد «أوفاندو» وقال: «لقد وصل السيد «كريستوفر» يا سيدي».

نظر «بوباديللا» إلى «أوفاندو» الجالس على يساره وقال: «ما إن يضع قدميه على اليابسة حتى تضعها في الأغلال، وتجعله يستأنس بأخويه».  
 أوما «أوفاندو» وخرج من فوره لينفذ الأمر أما «بوباديللا» فقد نظر إلى «بوردوم» الذي بادر وقال: «خيرًا فعلت يا سيدي، حتى لا ينازعك أحد في الأمر هنا».

- ليس لأحد أن ينازعني الأمر وقد قلدني إياه الملوك الكاثوليك، ولكن فعلت ما فعلت لأن «كريستوفر» أراد أن يُسود الجنس الإيطالي هنا.

ثم نهض واستطرد يقول: «لقد نسيَ هذا الأحمق أنه وصل إلى هنا بفضل الملوك الكاثوليك، لا بفضل ملوك «جنوة» الذين رفضوا أن يمولوا حملته».

- أنا لا أعرف جنوة أو غيرها، وكل ما أعرفه هو أنكم سادة الدنيا.

- حقًا تظن ذلك وما غضبت لضياع معبدك وقيمتك عند الناس؟

- أما الناس، فلا يشغلني قيمتي لديهم، فهم لا يعون إلا لغة القوة، وأما معبدي فكان وسيلة للسيطرة على الرعاع، والآن لست في حاجة إلى ذلك وقد ملكتم يا سيدي رقابهم، فإن كنت قد نجحت أنفًا في أن أسوقهم بجهلهم، فقد فعلتم ذلك بسيف قوتكم، فأنا تبع لكم.

قهقهه «بوباديللا» وأبدى الإعجاب بحديث «بوردوم» ثم قال: «لقد سمعت كثيرًا عن حديثك قبل وصولنا، فكيف علمت بأن هناك من سيأتي من الشرق؟!».

أخذ «بوردوم» نفسًا عميقًا ثم قال: «تلك قصة طويلة يا سيدي، فلقد علمت من أجدادي وورثت عنهم ما يدل على أن نفرًا من المشرق قدموا عن طريق هذا البحر المظلم وعادوا بعد أن ملئت أيديهم بالذهب والفضة، وقد دون أجدادي ما حدث لهؤلاء في رقعة ورثتها، حتى إذا ركبوا السفينة نظروا إلى من حضر من أهل «ماجوانا» وقالوا: «سنعود حتمًا وإن لم نعد سيأتي من يكمل طريقنا».

\*\*\*

## (8)

كان «لُذريق» ينظر من نافذة صغيرة تُطل على الغابات المتشابكة حول السجن الذي وضعه فيه، وهو يتذكر «إشبيلية» ومحاكم تفتيشها، وكيف أنه خرج من الأندلس بحثًا عن الحرية فإذا هو يهوي في سجون العالم الجديد... تنهد «لُذريق» وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يعود لمكانه في السجن ويجلس بجوار أحد الأركان المظلمة، وقد بلغ منه الحزن واليأس وسيطرًا عليه، حتى إذا مر الوقت وضع رأسه بين كفيه وراح يفكر في أمره وهو يتذكر ذلك اليوم، عندما صدرت الأوامر بقتل الهنود الحمر وخصوصًا المسلمين، فلم ينفذ

«لذريق» الأمر فأخذه إلى «بوباديللا» الذي أمر بوضعه في السجن، أغمض «لذريق» عينيه وظل هكذا طويلًا، لم يرفع رأسه حتى سمع أصوات أقدام تقترب من باب السجن المظلم...

بدأت الخطوات تقترب أكثر فأكثر وفؤاد «لذريق» يرتجف معها ويترقب، فقد كان على علم بأنهم سيأتون يومًا ليعذبه فلن يتركه كثيرًا هكذا، حتى إذا فُتح الباب دفع الحارس بسجين جديد ثم أغلق خلفه الباب، وما إن دخل حتى بدأ يتفحص المكان بعينين حزينتين وقلب متألم، فلما وقعت عيناه على «لذريق» بادره الأخير وقال ساخرًا: «مرحبًا بأمر الأوقيانوس».

- من أنت؟

- هل نسيته بهذه السرعة، أم أن نظرك الثاقب قد ضعف؟

تحامل «كريستوفر» على نفسه وتحرك ببطء، فقد كان مريضًا بداء النقرس لشراسته في أكل اللحوم، حتى إذا جلس جانبًا وفرد رجله، وراح يفرك فيهما محاولًا أن يخفف عنهما ما كان يعاني سخونةً شديدةً في أسفل كاحله قبل أن يقول: «أما الصوت فهو مألوف لدي»، ثم حدق إلى وجه «لذريق» الذي التزم الصمت وبعد لحظات قال مبتسمًا: ««لذريق الطرياني» رفيق رحلتي الأولى». ساخرًا قال «لذريق»: «رفيق رحلتك الأولى والثانية، وأول من رأى اليايسة يا أمير البحار وصاحب الجائزة...».

تجاهل «كريستوفر» حديث «لذريق» وقال: «ما الذي جاء بك إلى هنا وقد كنت في خدمة «بوباديللا»؟!».

- الظلم الذي زرعه هنا، والكره الذي بذرته ونشرته حتى عم على الجميع، ولم يفرق بين أبيض وأسود وأحمر، على أنني لا أتألم لوجودي هنا، ويكفيني أنني الآن بمنأى عن قتل البشر وإراقة دمائهم، أما أنت فكيف ينتهي بك الحال إلى هنا وأنت من أنت وقد ظننت أن الظالم لا يُظلم... خفض «كريستوفر» وجهه للأرض ولم يجب، فاستطرد «لذريق» يقول: «والأعجب من وضعك هنا أن تتكرني ولا تعرفني رغم قرب المسافة والصوت، بينما حرمتني يومًا جائزتي عندما رأيت اليايسة وأدعيت أنك من فعل، لا



لشيء إلا لتتراجع عن وعد وعدتني إياه، وكأنك قد دأبت على سرقة أحلام البسطاء وإخلاف وعودك».

- ما زلت تتذكر ذلك يا «لذريق» رغم كل هذه السنين؟

- وهل ينسى الرجل يوماً مَنْ ظلمه؟ إن الظلم يا «كريستوفر» يورث بغضاً لا ينتهي وحقداً لا يموت حتى بموت الظالم ونهايته، فيأتي قوم يقرؤون عن الظالم ويلعنونه ويستمتعون بنهايته وهلاكه، خاصة لو كانت نهايته مؤلمة كنهايتك التي أرى.

- تلك أيام قد مضت يا صديقي، فدعك منها الآن، فنحن هنا في أشد ما يكون لأن نتصافى ونتكاتف فليس لأحدنا غير الآخر.

- لن نتكاتف أو نتصالح يوماً، فنحن كالليل والنهار كالماء والنار، وإن كنت أنت هنا في كرب عظيم فلتعلم أنني هنا في سعة، إذ يكفي أنني لم أشارككم قتل قوم ليس لهم ذنب إلا أنهم أحسنوا إليكم يوماً، فأطعموا جائعكم وسقوا عطشاكم وطمئنوا خائفكم، فبئس القوم أنتم!

- وهل أنا من يقتلهم الآن؟

- ولكنك من جاء بالشيطان إلى هنا، ومن سنَّ للشيطان سنة القتل في هؤلاء.

نظر «كريستوفر» من النافذة من مكانه وقال: «لم آتِ بأحد هنا، ولكن الملوك الكاثوليك من أرسلوه»، ثم تنهد وقال: «وإن كنت رضية يا «لذريق» بأن تبقى هنا فتأكد أنني لن أظل هنا طويلاً».

\*\*\*

حاولت «هيدا» كثيرًا أن تتعافى من مشهد قتل أبويها على يد الغرباء، ولكنها لم تستطع رغم مرور الوقت، ورغم غمر «مالك» لها بالحب والعطف والحنان، فقد كان كل شيء يذكرها بمصرع أبويها، فسكن الحزن قلبها على فراقهما بهذه الطريقة الأليمة وتمنت كثيرًا لو انتقمت لهما من قاتليهما، لهذا عكفت على تعلم الرمي بالسهم، إذ فقد السيف والحربون قيمتهما مع الغرباء الذين يقاتلون بالبنادق الطويلة، وكان «مالك» هو من يتولى تعليم «هيدا» وكل نساء الهنود الحمر، فكان يخرج إلى ساحة خضراء كبيرة يدرّبهنّ على أهداف يضعنها، بينما يصنع الرجال الأسهم وتعلم تسلق الأشجار والتدريب على ذلك بخفة كبيرة، حتى إذا انتهى اليوم وعادت النساء لأكواخهن، اقتربت «هيدا» من «مالك» وقالت وهي تمسك بالسهم: «لو كانت الملكة «أناكاونا» اهتمت بهذا السلاح، لما فعل بها الغرباء وكل أهل «ماجوانا» ما فعلوا..... لقد أخطأت أُمي في ذلك».

- لم تكن «أناكاونا» ولا أي كولاها يتوقع أن يحدث ما حدث، فالخير وفير والجميع يعيشون في سلام منذ دهر، فكانت الحياة بلا دماء، فلم يهتم أحد باقتناء الأسلحة أو تطويرها، وخصوصًا وأنه لم يكن فينا من يحمل الحقد أو الكراهية للآخرين.

- ولكنكم في جمرة كنتم تهتمون بالحربون وغيره من الأسلحة!

- للصيد والدفاع عن النفس إذا هاجمنا حيوان مفترس، ولم تكن الأسلحة لقتل البشر أو الاعتداء عليهم.

أمسكت «هيدا» بقوس فشدت وتره ووضعت السهم في مكانه ثم شدت لينطلق السهم ويستقر في جذع شجرة ثم قالت: «كم أتوق إلى خلع قلوب خلعت قلبي! فمتى يا مالك يبدأ النضال والانتقام؟».

- لست أقل منك رغبةً في القتال، بل ربما لا يوجد في هذا المكان أحد إلا ويريد الانتقام لما حدث، ولكن لن نقاتل قبل أن تعود الأعين وتخبرنا بما يدور هناك فنصف النصر معرفة الخصم وحالته.

ثم استطرد يقول: «وإلى هذا الوقت ستكون مهمتنا هي متابعة التدريب ومواصلة الليل والنهار، حتى نكتسب مهارة الغرباء وقدرتهم على القتال».

\*\*\*

## (10)

تغيرت الحياة في «ماجوانا» وجزيرة جمرة وكل المناطق التي استولى عليها «بوباديللا»، فلم يعد المكان كما كان، فقد اختلف كل شيء وصار أهل البلاد عبيدًا للطغاة المحتلين، ففرضوا معتقداتهم وسخروا كل شيء لخدمتهم، أما نساء الهنود فكانت مهمتهم الترفيه أيضًا عن الغرباء بكل أنواع الترفيه المتاحة، أما في حال تمرد أحد الهنود على هذه المعاملة غير الآدمية، يلجأ الإسبان إلى الكلاب الشرسة لتمزيق المتمرد أمام الباقيين وتركهم عبدة لغيرهم، ثم تترك الجثث المتمزقة في الميدان حتى تتفسخ، ليعلم الجميع ما هي عاقبة التمرد، فضلًا عن عقوبات أخرى تقضي بتقطيع الأذان والرؤوس. فلا اهتز للإسبان طرفٌ وهم يطعنون عشرات الهنود، ولا نبضت ضمائرهم وهم يقطعون من أجساد الهنود شرائح كي يختبروا بها مدى حدة نصالهم... وفي إحدى المرات، تقابل جندان إسبانيان مع ولدين هنديين يحمل كلٌ منهما ببغاء، فما كان من الجنديين المسيحيين إلا أن أخذوا الببغاوين لنفسيهما، وعلى سبيل التسرية والمزاح ضربا عنقي الولدين الهنديين. وفي الوقت نفسه الذي بدأ فيه كل هذا القتل كان القساوسة يحاولون فرض النصرانية على الهنود الحمر عملاً بوصايا الملوك الكاثوليك، ووضعت الخطة سريعًا، وكُفِّ كلُّ قس بقيادة مجموعة من الجند، فكانوا يدخلون القرى ليلاً وينادي المنادي بصوته الجهوري وبلغته القشتالية التي لا يفهمها أحد: «يا سكان القرية، إننا نعلمكم بوجود إله، ووجود بابا ووجود ملك قشتالة سيد هذه الأراضي، فأخرجوا وأعلنوا الطاعة وإلا فإننا سنحاربكم ونقتلكم». كان الصوت يزعج الهنود ويؤرق مضاجعهم فيستفيقون من نومهم، ولكنهم لم يكونوا يدركون ما يُقال، فما كان ينبج الفجر إلا عن حمام من

الدماء إذ كان الإسبان يعتبرون عدم خروج الهنود الحمر بسرعة وتلبيتهم النداء عصيانياً، فكان الإسبان ينصبون المشانق في مجموعات كل مجموعة تتكون من ثلاثة عشر مشنوقاً من أجل تكريم وتبجيل السيد المسيح وحواريه الاثني عشر.

لم يتحمل «كازاس» هذه المشاهد من الدماء فتقدم صوب «بوباديللا» وقال له: «إلى متى يستمر هذا القتل؟».

- إلى أن يدخل هؤلاء في المسيحية.

- لكنهم لا يفهمون ما تقولونه لهم، فكيف تخاطبهم بلغة غير لغتهم ثم تطالبهم بأن يستجيبوا؟

- على من أراد النجاة منهم أن يتعلم، وإلا فالموت دليله، ثم وقف وقال: «لقد أرسلنا الله لفتح هذه البلاد التي كانت آمنة مطمئنة، وأن الله هو الذي نصرنا على هذه الأمم. والآن أيها القس لقد صرت عبئاً عليّ في هذه الأرض، إمّا أن تنضم لنا وتكون عوناً لنا تدعو للمسيحية، وإمّا تعزلنا وما نحن فيه».

- فإن لم أفعل؟

- لن يكون أمامي إلا سجنك... أو قتلك.

قال ذلك ثم أشاح بوجهه عن «كازاس» الذي أيقن أنه لن يستطيع فعل شيء، فقرر أن يسجل كل ما يحدث أمامه من قتل وترويع، وخرج من عند «بوباديللا» وقد قرر ألا يعود له أبداً.

وفي المساء وبينما جنود «بوباديللا» يلهون في شوارع «ماجوانا» نظر أحد الجنود إلى زميله وقال: «لقد تاقت نفسي إلى اللحم...»، ثم نظر بخبث إلى بعض أطفال من الهنود الحمر يلهون بالقرب منهم.

نظر الجندي الآخر إلى الغابة من حوله وقال: «هل تريد أن نخرج للصيد؟».

- ولم الصيد وبين أيدينا هنا صيد ثمين؟

ثم اقترب من أحد الأطفال وأمسك به وقال: «إن لحم هذا الطفل أشهى من لحم الغزال»، ثم أخذه الاثنان ودخلا به معسكر «بوباديللا».

كان «كازاس» يراقب كل هذا من كثب، فقرر أن يرسل ملوك قشتالة مرة أخرى وأخيرة ليبرئ نفسه من كل هذه الدماء، فكتب لهم يقول: (إنني أكتب لكم يا مولاي الملك عن الشرور والآثام وعن الدمار والخراب في هذا العالم المسمى ببلاد الهنود، التي وهبها الله لملوك قشتالة وأناطها لهم ليسوسوها ويصلحوا أمرها ويهدوا أهلها إلى المسيحية، لقد غشي الإسبان هذه الخراف الوديعه غشيان الذئاب والنمور والأسود الوحشية التي لم تجد طعامًا لأيام، ومنذ أن دخلوا إلى هنا وهم يفتكون بهم ويعذبونهم ويبيدونهم، ويرتكبون كل يوم فظاعة جديدة غريبة مختلفة لم نسمع عن مثلها قط.

لقد قتلوا الناس باسم الدين ليحصلوا منهم على الذهب والثروات، لذا يا جلالة الملك أرجو أن تتدخل فكل هذه الدماء تسال باسمك والمسيح منها براء).

أرسل «كازاس» تلك الرسالة إلى الملوك الكاثوليك في قشتالة، ولكن الملوك الكاثوليك غضوا الطرف عنها، فعلم «بوباديللا» أن الملوك لن يلوموه مهما فعل، ما دام يقدم لإسبانيا الذهب فلم يعد يهتم لأمر «كازاس» وقال لجيشه لا تقتلوه فيقال إننا نقتل رجال ديننا، ولكن دعوه وشأنه وماذا يفعل رجل واحد وقد نُرعت عنه أسباب القوة؟

\*\*\*

## (11)

على حافة إحدى برك المياه القريبة من المكان الذي اتخذه «بوبا» و«مالك» مأوى لهما، اجتمع غالبية الرجال حول «مالك» يتشاورون فيما بينهم، وقد أمسك غالبيتهم السهام المصنوعة من أفرع الشجر، وأمسك بعضهم الحربون الحديدي، بينما أمسك الباقون فروع شجر طويلة وقد جعلوها كالحراب.

بينما النساء يشاهدن ذلك من بعيد ومعهن «هيدا» والجميع يريدون الخروج من الغابة والاشتباك مع البيض قاتليهم ومشرديمهم، فكان أول من تحدث هو «بوبا» إذ قال: «لقد تكامل جمعنا وبلغنا ما نريد من تدريب على

القتال، وأصبح لدينا الكثير من السهام، ومن يريدون الموت انتقاماً من هؤلاء السّفاحين الغرباء، فحتى النساء يردن الحزب الآن، والجميع يا «مالك» في انتظار إشارتك فما هي الخطة الآن؟».

«نات كولا هو» من إحدى القرى الفارين من وجه «القشتاليين»: «وماذا عن سلاح النار الذي يملكونه؟».

نظر «مالك» إلى الأشجار المتشابكة حوله وقال: «هم يملكون سلاح النار ونحن نملك معرفتنا بتلك الديار، ونملك قلوباً قد ملأها الحقد عليهم»، ثم صمت هنيهة وقال بعدها: «وماذا يفعل السلاح في قومٍ جوعى؟».

«بوبا»: «جوعى...! ماذا تقصد بذلك؟».

«مالك»: «أجل جوعى، إذًا، لن نهاجمهم قبل أن نحاصرهم... سنحرق لهم مخازن الطعام التي استولوا عليها، فنجبرهم على الخروج من حصونهم وأسوارهم العالية صوب الغابات وشجرها الكثيف الذي لا يستطيع خيلهم السير فيه، فيصبحون بذلك طُعماً لأسهمنا...».

«نات»: «لكن مخازن الطعام تلك ليست خاصتهم بل هي للجميع!».

«مالك»: «من رضي بذل الغريب فهو ليس منّا، فوالله ما استطاع هؤلاء السيطرة والبقاء إلا بخنوع بعض البشر الذين يحبون العبودية... فلو أننا جميعاً خرجنا إلى الغابات وسفوح الجبال وحاربناهم ولو بالحجارة، لما وجد هؤلاء الغرباء إلا العودة لديارهم، وقد تكاثرتنا عليهم وهم بعد مجبرون على العمل لكسب القوت وعلى حمل السلاح لحفظ حياتهم، ألا ترون أنهم دخلوا علينا وهم قلة فتسيدوا الأرض! وأجبرونا على العمل تحت أيديهم فصرنا بذلك عوناً لهم، فالجيش ليس هو السلاح فقط، بل يحتاج إلى أكثر من السلاح ليقاتل، يحتاج إلى خيل يركبها، وإلى أعلاف لماشيته، وطعام لجنده ومعسكرات مشيدة تحميه، وهذا كله نفعله نحن له، فقومنا من يقومون بكل ذلك».

«بوبا»: «فما الخطة إذًا؟».

«مالك»: «سنخرج في فرقة صغيرة، كل فرقة مكونة من خمسة أفراد يقودهم واحد منّا، وسأذهب أنا إلى جزيرة جمرة فتعتمد كل فرقة منا إلى حرق مخازن الطعام، وكل ما تستطيع تدميره، ومن ثمّ الفرار والعودة لهنّا، على

أن من يفشل في مهمته أو يقبض عليه لا يعترف بمكاننا مهما كلف الأمر، ولو كانت حياته، فهؤلاء قوم لا عهد لهم، فلا يقولن أحد أشتري حياتي بموت غيري، فلن تشتري منهم إلا الموت».

بأصوات متحفزة للتأثر والانتقام أجاب الجميع وقالوا الموت لهم، ثم أمسك كل كولا هو حربونه وحركه في الهواء، وبدا التفاؤل على الجميع، وتم تقرير ساعة التحرك وكانت بعد منتصف الليل، فتحركت الفرق جميعاً كلٌ إلى هدفه، وخرج «نات كولا هو» إلى قريته يريد إحراق ما بها من مخازن للطعام، ونجح وفرقته في ذلك بالفعل ولكن خيل القشتاليين كانت له ورجاله بالمرصاد فأسروهم جميعاً ولم يفر منهم أحد.

واستشاط «بوباديللا» غيظاً مما حدث، وكاد أن يجن جنونه فتحرك في قصره كالثور الهائج وأصدر أوامره إلى جنده وقال: «هم قد أحرقوا مخازن الطعام فليخرج الجند ويدهموا الأكواخ، ويجمعوا ما بها من طعام ويهرقوا ما بها من شراب، وما لا تستطيعون حمله فأفسدوه عليهم أو اخلطوه بالتراب والرمل، واقتلوا كل ما يقاوم أو يبدي نية في المقاومة، أو حتى ينظر إليكم شذراً»، ثم صاح بصوت عالٍ: «تحركوا وإلا قتلتمكم جميعاً».

وتحركت الجحافل القشتالية تحرق وتفسد وتجمع الطعام، وتدوس بأقدامها وجوه الأطفال، فجمعوا كميات كبيرة من الطعام، وأحرقوا أكواخ الهنود وهدموا بعضها فوق رؤوس أهلها، وعاقبوا الهنود بمذابح لم تُعرف في تاريخ الشعوب، فكانوا يدخلون على القرى، فلا يتركون طفلاً أو حاملاً أو امرأة تلد إلا ويبقرون بطونهم، ويقطعون أوصالهم كما يقطعون الخراف في الحظيرة، وكانوا يراهنون على من يشق رجلاً بطعنة سكين، أو يقطع رأسه أو يدلِق أحشاءه بضربة سيف واحدة...

كانوا ينتزعون الرضع من أمهاتهم، ويمسكونهم من أقدامهم ويرطمون رؤوسهم بالصخور، أو يلقون بهم في الأنهار ضاحكين ساخرين، وحين يسقط في الماء يقولون: «عجباً إنه يختلج».

كانوا يسفدون الطفل وأمه بالسيف كما تسفد اللحم بالسفود، وينصبون المشانق طويلة ينظمونها مجموعة مجموعة، كل مجموعة ثلاثة عشر مشنوقاً، ثم يشعلون النار ويحرقونهم أحياء واستمرت تلك الأفعال الشنيعة أياماً، ولم

يهدأ «بوباديللا» إلا بعد أن أخبره رجاله بما فعلوا من قتل ونهب وسرقة، وقتها أمسك بكأس الخمر وشربها وراح يقهقه، وكأنه قد فقد عقله، ثم ألقى الكأس على الأرض ودخل في صمت طويل لم يقطعه سوى صوت أقدام قادمة وإذا بالحارس يقول: «بالباب القس «فرانسو» يا سيدي».

رفع «بوباديللا» رأسه وقال: «أدخله».

دخل القس وبيده صليب خشبي كبير وكذا معلق على صدره مثله، ولكن من الذهب فجلس وقال: «ماذا عن هؤلاء الأسرى؟».

- سأقتلهم جميعًا، ولكن ليس قبل أن أصليهم نازًا.

- لتترك لنا تلك المهمة، فحري بنا أن نعرض على هؤلاء المساكين الكاثوليكية قبل أي شيء.

- لا بأس أيها الأب الموقر، فقد أوكلت أمرهم إليك فافعل بهم ما ترى.

ابتسم «فرانسو» ونهض من أمام «بوباديللا» وعند ظهيرة اليوم التالي صاح «فرانسو» في الهنود الحمر وأمرهم بجمع الأخشاب والأحطاب، فتحركوا يقودهم جند «بوباديللا» فكان كل هندي أحمر يجمع الأحطاب ويحملها فوق ظهره حتى امتلأت الساحة بالأحطاب، ولا أحد يدري لماذا يجمعونها.

أشعل «فرانسو» النار في الحطب ورفع الصليب في وجوه الأسرى من الهنود، وأمرهم بالدخول إلى الكاثوليكية، فإذا أعرض الهندي أحرقه وهو عابث الوجه، وإذا تنصر أحرقه ووعدته بتكفير ذنوبه وابتسم له، حتى إذا جاء الدور على «نات» رفع القس الصليب في وجهه وقال: «إن عليك أن تغتنم هذا الوقت القصير قبل موتك وتؤمن».

- ولمَ ذلك؟

- لأن ذلك سيدخلك الجنة بعد موتك؟

- هل هناك مسيحيون في الجنة؟

- معظمهم هناك.

- إنني أفضل دخول النار عن أن ألتقي بكم في الجنة، فلترسلني إلى النار.

\*\*\*



## (12)

كان «بوباديللا» يتحرك يمينا ويسارا لا يقر له قرار، وهو يفكر فيما حدث حوله ويقول في نفسه: لقد تجرأ الهنود علينا كثيرا حتى إنهم لم يهتموا بمن سقط منهم قتيلا أو أسيرا، يجب أن نعيد تلك الخراف إلى الحظائر يا «بوباديللا» وإلا فسد الأمر عليك. ثم تحرك وخرج من القصر، فالتف حوله الحرس والجند واقترب منه قائده «أوفاندو» وقال: «ما الأمر يا سيدي؟».

- أريد أن أتفقد المكان ومخازن الطعام.

تحرك «بوباديللا» وخلفه «أوفاندو»، يحيطهم الجند ببنادقهم، وهم متربصون بكل من يفكر في الهجوم على «بوباديللا» أو حتى يقترب منه، حتى إذا وصل إلى أحد المخازن قال: «ضاعفوا أعداد الحراس».

- أمرك سيدي.

ثم تابع سيره ليتفقد باقي المخازن فوقف أمام أحدهم وقال: «لا أعلم سر تلك القوة الغربية التي اكتسبها هؤلاء الجبناء، حتى يفعلوا ما فعلوه ولا يهابون بنادقنا وأسلحتنا، بل كيف مضى كل هذا الوقت دون أن نعرف مكانهم؟!».

«أوفاندو»: «ذلك لأنهم مخلصون لبعضهم بعضا يا سيدي، مخلصون لقضيتهم وحربنا معهم».

- وما داموا مخلصين فسيرهقوننا.

ثم تحرك عائدا حتى دخل إلى قصره مرة أخرى، وتبعه «أوفاندو» فجلس الاثنان، وإذا بـ«بوردوم» يتقدم ويقول: «سيدي الأمير، لقد بدأت بعض الأصوات تتذمر من قلة الطعام، وخصوصا رجالنا».

- ماذا يرى الحكيم «بوردوم»؟

- هناك بعض القرى، ما زالت تغص بالطعام والحبوب يا سيدي، فلماذا لا يخرج الجند إليها ويجلبون ما بها من طعام؟ وتلك القرى لم تعلن بعد ولاءها لك، فلتكن فرصة جيدة لإدخالها تحت التاج القشتالي.

- هل هذه القرى قريبة منا؟

- لا تبعد عنا كثيرًا، فهي تقع خلف الغابة الشرقية ولكن لكثافة تلك الأشجار لا يوجد تواصل بيننا وبينهم، ولا يكاد الناظر يعلم أن هناك قرية بعدها، ولكن قبل أن تتجهوا إلى تلك القرى، عليكم بما في بعض البيوت من طعام، فهناك الكثيرون هنا ما زالوا يخفونه منكم. اقترّب «أوفاندو» من «بوبادिला» وقال: «لو وجدنا مثل هذا مع الخارجين علينا لهان علينا أمرهم».

بخبث قال «بوبادिला»: «أمثال هذا كثر، ولكن لمن يعرف طريقًا لهم». ثم أردف بصوت عالٍ وقال: «فلتخرج يا «أوفاندو» ببعض الجند ولتجمع الطعام من كل بيوت الهنود، ومن يقاومك عليك بقتله، لا تترك طعامًا إلا جلبتموه».

\*\*\*

## (13)

كان «بوبا» يلهث من التعب والعرق يتصبب منه وهو يقول بأنفاس متقطعة: «لقد قتلوا الكثير من الرجال والنساء والأطفال بحثًا عن الطعام، حتى إذا انتهوا من كل القرى التي تحت أيديهم ولمّا لم يجدوا ما يكفيهم بداخلها من طعام، قرر «بوبادिला» أن يوسع مملكته فقرر مهاجمة مملكة «ماغو» التي يحكمها «الكولاهو غواريونر».

رد أحد الرجال وقال: «إنما حرقنا مخازن الطعام لنجبرهم على دخول الغابة، لا ليقتلوا ما تبقى منّا هناك، لقد أخطأت يا «مالك» حينما أشرت علينا بذلك، فلا هم دخلوا الغابة ولا سلم منا من مات».

عصّ «مالك» على نواجذه وقال: «ومن قال للغرباء إننا نخفي طعامًا في حفر تحت الأرض؟ هذه أسرار من أسرار حياتنا فكيف لهم أن يعلموا؟ بدلًا من أن توجهوا اللوم لي ابحثوا عن الخونة واقتلوهم، فهم سبب ما نحن فيه». «بوبا»: «أجل يا «مالك»، فهذا هو الرأي، فلولا هؤلاء الخونة ما استطاع هؤلاء أن يفعلوا بنا ما فعلوا».

هز «مالك» رأسه وقال مرددًا: «بئست الخيانة، فهي تفني الجيوش وتسحق الأوطان».

ثم صمت قليلاً وقال: «أخبرني كيف علمت بوجهة جنود «بوباديللا»؟». «بوبا»: «لقد سمعت واحداً منهم يُدعى «كازاس» وهو يحاول ثنيهم عن ذلك، فتوجهت إلى «ماغو» وأخبرت «الكولاهو» بما قد يحدث، ونصحته بالاستعداد لذلك، فنشر «الكولاهو» جواسيسه يتلقطون له الأخبار هنا وهناك، حتى إذا ما أخبره بعض رجاله بقرب وصول الإسبان إليه، جمع أهل مملكته وقام فيه خطيباً وقال: لقد سمعت وعلمت بأن الإسبان قادمون، وإنكم لتعرفون ما قد جرى في القرى المجاورة لنا، وفي كل بقعة وصل إليها هؤلاء الذئاب، وإنهم قادمون إلينا ليفعلوا هنا ما فعلوه هناك... فهل تعلمون لماذا يفعلون ذلك؟».

رد بعض الحضور عليه وقالوا: «إنهم يفعلون ذلك من أجل ربهم الذي يعبدونه ويقدسونه، إنهم يريدوننا أن نؤمن به ولهذا يقتلوننا، يقتلون من يرفض ربهم».

أخرج «الكولاهو غواريونر» صُرة صغيرة مملوءة بالذهب من ثيابه وقال وهو يبتسم ويشير إلى الذهب: «هذا هو رب المسيحيين، هيا لنرقص له ونرضيه فربما سمع دعاءنا وأمر المسيحيين ألا يذبحونا»، وصرخ فصرخوا جميعاً ورقص الناس حتى الإنهاك، بعدها قال «غواريونر»: اسمعوني جيداً، سوف أرمي بهذا الذهب في النهر لأنهم سيقتلوننا بسببه»، ثم حمل ما يستطيع من الذهب وقذف به إلى النهر وكذلك فعل أهل القرية، ثم ذهب «غواريونر» إلى قصره البسيط في انتظار وصول الإسبان الذين أرسلوا له يطمئنونه ويقولون له إنهم أتوا طالبين صداقته لا حربته، فأعد لهم «غواريونر» مأدبة كبيرة من الطعام والشراب، وما إن وصل «أوفاندو» حتى استقبله «غواريونر» استقبالاً عظيماً فأكل «أوفاندو» وجنوده من الطعام والشراب، ولكن لسوء الحظ، فقد أعجب «أوفاندو» بزوجة الملك التي حضرت لتحية الغرباء، فما إن رآها حتى استل سيفه وقتل الملك، فبكت زوجته كثيراً ولطخت وجهها بدمه، فجذبها «أوفاندو» وأمسكها من ذراعها واغتصبها، بينما دمء زوجها القتل تسيل في المكان، حتى إذا أتم جريمته أخرج سيفه وغرزه في قلب

الزوجة المغتصبة، ثم خرج وجنده من القصر ونادى المنادي بصوت جهوري وقال: «يا زعماء القرية إننا نعلمكم بوجود إله واحد، وبابا، وملك قشتالة سيد هذه الأرض، فاخرجوا وأعلنوا لنا الطاعة له، وإلا فإننا سنعلن الحرب عليكم ونقتلكم، سلموا لنا كل ما تحت أيديكم من الذهب والطعام وإلا فدمائكم حلال لنا».

كان الرعب قد سيطر على قلوب أهل القرية، فتسابقوا في تقديم الأموال والذهب والطعام، ولكن ذلك لم يكفِ «أوفاندو» فصفاً الرجال وقتل منهم مَن قتل، ثم جمع قواته التي لم يُصب فيها أحد ولو بجرح واحد، وجمع كل ما وجده من حبوب وطعام وذهب، وقرر العودة إلى حيث «بوباديللا» بعد أن ترك بضع رجال من رجاله في مملكة «ماغو» المسالمة وقد اقتاد خلفه مجموعة من أجمل نساء مملكة «ماغو» الصغيرة، كما جعل رجال «ماغو» يحملون الطعام والحبوب على ظهورهم، إذ إن الخيل لم تكن كافية لحمل كل ما تم نهبه وسرقته من المملكة، وفي الطريق كانت السياط تقطع ظهور من يتباطأ أو يتعب من أهل «ماغو»، حتى إذا أصيب أحدهم بجرح في قدمه من جراء قطعة من الخشب دخلت قدمه الحافي، أطلق أحد جنود «أوفاندو» النيران عليه وسط دموع أصحابه الذين لم يكونوا يملكون من أمرهم شيئاً.

«مالك»: «هذا يعني أنك تركتهم في الغابة، وأنهم إلى الآن لما يصلوا إلى المعسكر».

«بوبا»: «أظن ذلك، وخصوصاً وأنهم يحملون الكثير من الطعام وقد أثقلت كاهلهم».

هزَّ «مالك» رأسه وهب واقفاً وقال لرجاله: «لقد حان موعد الانتقام، ولن يعود هؤلاء لمعسكرهم أبداً».

\*\*\*

وبينما تتهاوى السياط مُعربدة تقطع ظهور الهنود إذ احترق سهم حنجرة «أوفاندو» فأرداه قتيلاً لتنفجر بعد ذلك صيحات عجيبة، وتمطر السماء سهاماً لا تحصى، لتنتقل بنادق الغرباء بحثاً عن مطلقي السهام الذين كانوا يتحصنون بأفرع الأشجار الكثيفة ويتخفون خلفها.

استمر إطلاق السهام واستمرت الطلقات هنا وهناك، لينتهي الأمر بعد وقت قصير بقتل كل جنود «أوفاندو» وتحرير كل الهنود على يد «مالك» ورجاله، الذين ولأول مرة يحرزون النصر على الغرباء.

تحرك «مالك» ورجاله يحررون الأسرى ويجمعون الطعام والحبوب والأسلحة التي كانت مع «أوفاندو» ورجاله وكم كانت سعادتهم بتلك الأسلحة، فقد شعروا بعدها بأنهم وأخيرًا ملكوا تلك القوة الجهنمية التي قُتلوا بها، كما أنهم استطاعوا ولأول مرة الحصول على سلاح الخيل الذي كثيرًا ما أُرعبهم وأزعجهم، ولكن ولأنهم لم يكونوا يعرفون كيفية امتطائها، فقد سحبوها خلفهم حتى دخلوا معسكرهم بين العشب والأشجار.

\*\*\*

## (14)

وسط مدينة «ماجوانا» وقف «بوبادिला» وهو يحمل بندقية بيده، وأمامه مجموعة من الهنود وقد ظهرت عليهم كل علامات العذاب وهم يئنون من الأوجاع، بينما جنود «بوبادिला» يحيطون بهم من كل صوب والسلاسل تغلغل أعناقهم.

سحب «بوبادिला» بندقيته وصوبها وأطلق النيران على رأس واحد منهم ثم، نظر إلى جنوده وقال: «احصدوهم حصدًا ولا تبقوا منهم أحدًا...».

فتبعه جنوده ولم تمر دقائق حتى كان كل الهنود الموجودين قد لقوا مصرعهم فورًا، وتحرك «بوبادिला» فوضع قدمه على رأس قتيل منهم وقال: «أقسم أن أقتل بكل رجل من رجالي مئة من هؤلاء، ولن أكتفي حتى أغتصب نساءهم وأقتل أطفالهم وأحرق أكواخهم».

تقدم «كازاس» من «بوبادिला» وقال له راجيًا: «إنما عليك بقتل مَنْ قَتَلهم، فما ذنب هؤلاء مما اقترفه غيرهم؟».

- لقد سمعت وعلمت الكثير عنك أيها الأب، ولكن لم أكن أنتظر أن تحدثني اليوم في مَنْ قتل جنودي وتطلب مني الرأفة بهم، والآن وقد طفح الكيل

منك ومن حديثك فقد علمت أن «كريستوفر» كان منك على حق، فإما أن تنصرف والآن من أمامي، وإمّا فالقتل مصيرك ولا أبالي بمكانتك، فعد لبيتك واكتب ما تشاء فلن يكون هنا إلا ما أشاء.

وبينما انفجر بركان من الدماء في الأراضي الواقعة تحت حكم «بوباديل» كان «مالك» و«بوبا» ورجالهما يفكرون في كيفية الاستفادة من تلك الأسلحة التي لا يعلمون شيئاً عنها، وهم يحتفلون بنصرهم على الأعداء، ولكن فرحتهم غاصت عندما أتى لهم الخبر بما فعله «بوباديل» فذهبت بهجتهم بنصرهم وتولد فيهم إحساس كبير بالانتقام.

وفي سجنه بالأراضي الجديدة راح «كريستوفر» يتوعد ساجنيه بين الفينة والأخرى ويصرخ فيهم قائلاً: «أنا أمير البحار... أنا بطل «الأوقيانوس»... الويل لكم عندما يعلم الملوك الكاثوليك بما فعلتم في نائبه هنا الويل لكم أيها الجبناء».

وبينما يصرخ «كريستوفر» إذ بـ«لذريق» يضحك منه ساخراً ويقول: «إنما نائبهم من يحصد لهم الذهب يا «كريستوفر» ولا أظن أن «بوباديل» قد أخفق في ذلك فلتقطع أملك».

- بل أنا على يقين بأنهم لن يرضوا أبداً بما حدث لي.

ثم عاد للصراخ، لم يسكته سوى صوت أقدام قادمة فما إن سمعها «كريستوفر» حتى ظن أنهم قادمون لتأديبه فالتزم الصمت، ولاذ بأحد الأركان وهو يرتجف، و«لذريق» ينظر إليه حتى إذا أمسك أحدهم بباب السجن وفتحه كاد «كريستوفر» أن يموت خوفاً.

«الجندي»: «أنت..... هيأاً لقد قرر الأمير «بوباديل» أن تعود لإسبانيا ومعك أخواك».

رفع «كريستوفر» رأسه ونظر إلى الجندي والشك يراوده، ثم استجمع قواه وقال موجهاً حديثه لـ«لذريق»: «ألم أقل لك إن الملوك الكاثوليك لن يرضوا بما حدث لي، وقطعاً سيعوضونني عما أصابني، ومن يدري! فلعلهم يعيدونني ملكاً إلى هنا».

«الجندي»: «اصمت ولا تتحدث كثيراً وهيأاً معي».

«لُذريق» متهكمًا: «ومَن يدري؟ فلعلهم أرادوا أن يبعدوك عن هنا حتى لا تضايق «بوبياديل»».

«كريستوفر»: «أنت تهذي».

وقبل أن يتحدث «لُذريق» صاح فيهما الجندي مرة أخرى وقال: «هيا لا وقت لديّ لما تقولانه».

ثم اقتاد «كريستوفر» ومعه كل رجاله المخلصين، ووضعهم في سفينة متجهة صوب إسبانيا ليظل «لُذريق» وحيدًا في سجنه، يفكر في مصيره ويتعجب لماذا لم يرسلوه هو أيضًا إلى إسبانيا؟ هل يفكرون في قتله أم هل نسيه «بوبياديل»؟

\*\*\*

مكتبة

t.me/soramnqraa





## الفصل السابع

القمر بدرًا وعندما يظهر البدر تبهت النجوم وكأنها لا تلمع إلا باختفائه، وهكذا بعض البشر إن ظهروا أناروا لنا الطريق وكذا حال البعض الآخر لا يظهر إلا في غياب الآخرين.

### (1)

كانت الشمس في كبد السماء تعلو تلك الغابة الغنية بمئات من أشجار السنديان الوارفة أذرعتها، المعقودة فوق العشب الأخضر الكثيف، لتتلاحم الأشجار في بعض الأماكن وتعانق بعضها بعضًا، فتحجب ضوء الشمس تمامًا، وتتباعد في أماكن أخرى متناثرة فيتعلق ضوء الشمس فوق فروعها وينساب على جذوعها المغطاة بالطحالب والنباتات المتسلقة، ليرسم ألوانًا ورسومًا زاهية فوق العشب السفلي، وهناك أرض فضاء واسعة في وسط تلك الغابة قد امتلأت بالخيام، فقد اتخذها «مالك» مأوى جديدًا له ولقريته الجديدة بعيدًا عن الغرباء، ليكون بهم وبعائلاتهم مملكة جديدة.

جلس «مالك» بعيدًا عن القوم وهو يفكر في مستقبلهم، ويسأل نفسه كيف يحافظ على حياة هؤلاء من قوم لا يعرفون الرحمة ويتغذون على الدماء...

وبينما هو غارق في أفكاره إذا اقتربت «هيدا» منه وكانت قد تحسنت كثيراً، وعانقت روحها الحياة أخيراً، فقالت له: «ما الذي أخذ لب حبيبي حتى كاد أن ينساني؟».

نظر «مالك» إلى تلك الأعشاب الوارفة وقال وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة حانية: «وكيف للإنسان أن ينسى من تمده بأسباب الحياة؟ كيف لـ«مالك» أن يحيا دون «هيدا» في هذه الدنيا الممتلئة بالنوائب والأحزان... أجل يا «هيدا» فلربما أخرج هنا وأقاتل هناك، ولكن قلبي لا ينسك أبداً، بل أحرص في كل مرة على العودة سالمًا من أجل أن أراك وأكون معك وبين يديك، فأنت من أحافظ على حياتي من أجلها، فأنت الحياة والنعيم لي».

اقتربت «هيدا» من مالك وأمسكت بيديه وقالت: «لم يعد لي أحد غيرك، فتذكر هذا دائماً!».

- أنا أقاتلهم من أجل ألا تفقديني يا حبيبتي، ومن أجل أن نحيا معاً لآخر العمر! وإلا فأنت تعلمين أنهم قوم لو سالمناهم ما نجونا، فهم كالثعابين لا حياة معها إلا بقتلها، فهل نجت الملكة «أناكاونا» بمسألتهم؟

خفضت «هيدا» رأسها مستسلمة لحديث زوجها وقالت بصوت حزين: «صدقت يا حبيبي...».

أخذ «مالك» بيد «هيدا» وتحركا وسط الأشجار وهما يتذكران الأيام الخوالي عندما كانا يلتقيان في غفلة من الملكة «أناكاونا» حتى إذا جن الليل تحرك الاثنان صوب الكوخ فأعدت «هيدا» المائدة لزوجها وجلسا يتناولان طعامهما، فقالت «هيدا»: «تريد من يعلمكم كيفية استخدام السلاح؟».

فتح «مالك» عينيه مستفهماً فأردفت «هيدا» وقالت: «فلتعلم إذاً أنني أعرف من يستطيع مساعدتكم على ذلك».

توقف «مالك» عن تناول الطعام وقال بلهفة كبيرة: «حقاً؟».

- أجل.

- من يكون؟

- «لذريق الطرياني».

- «لذريق الطرياني؟».

- أجل يا حبيبي إنه أحد الغرباء، ولكنه ليس مثلهم بل هو مسلم مثلنا، وقد علمت ذلك منه منذ زمن، حينما نزل وقومه بلادنا أول مرة، وقد تحدثت وإياه بلغتك العربية واستأمنني وقتها على سره، فلو استطعت أن تجد طريقًا إليه فقطعًا سيساعدك على ذلك فهو يكرههم مثلنا، ولكنه ربما مجبر على خدمتهم والبقاء معهم!

- إن كان على ديننا فلماذا لم يساعدنا إلى الآن؟

- تلك قصة طويلة سأقصها عليك، ثم راحت «هيدا» تقص على مالك سر خروج «لذريق» من الأندلس بصحبة «كريستوفر» حتى إذا انتهت من حديثها هب «مالك» واقفًا وقد عزم أمره أن يدس بين أهالي «جمرة» و«ماجوانا» من يتقصى له عن أخبار «لذريق الطرياني»، فلم يجد أحدًا يأتئنه على هذا السر غير صديقه «بوبا» الذي انطلق حتى وصل إلى أطراف معسكر الإسبان واستمر متخفيًا حتى علم من بعض الهنود العاملين كخدم عند الإسبان ما حدث من خروج «كريستوفر» إلى إسبانيا، ومن عدم مرافقة «لذريق الطرياني» له وبقائه في السجن، وخروج «كازاس» على «بوباديللا» وطرده له.

فعاد «بوبا» لـ «مالك» بعد أن علم ما يدور داخل قريته القديمة، فاستقبله «مالك» مستفهمًا فقال: «هل وجدته؟».

- أجل.

- فأين هو وهل وافق على مساعدتنا؟ هل أخبرته بأننا مسلمون مثله.

وقبل أن يتم «مالك» كلامه قاطعه «بوبا» قائلاً: «إنه في السجن».

- في السجن!

- لقد علمت أنه رفض تنفيذ أوامر سادته فأودعوه السجن.

- هذا يدل على صدق حديث «هيدا» وأنه لم يخدعها.

- أظن ذلك.

- لقد صعب الأمر علينا الآن.

- كنا نبحث عن من يعلمنا استخدام هذا السلاح، والآن صرنا نريد إخراج

«لذريق» هذا من سجنه....

تدخلت «هيدا» في الحديث وقالت: «إن استطعتم تحرير «لذريق» فسيظل مخلصًا لكم إلى الأبد».

«بوبا»: أو تظني يا «هيدا» أنه إن انضم إلينا فلن يخوننا؟

«مالك»: «الخيانة لا دين لها، وهذا قصد «بوبا»».

«هيدا»: «الرجل لن يخون هذا حسب علمي، ولو أنه مثلهم ما سجنوه ولكن سيكون لتحريره من قيوده وأسرته حافزًا إضافيًا له كي يخلص لنا! بل سنكون مأواه الأخير».

هز «مالك» رأسه مصدقًا على حديث زوجته وقرر و«بوبا» تحرير الرجل والمجازفة بذلك مهما كلف الأمر، فلن ينتصروا على الغرباء من دون سلاحهم، ولن يتعلموا استخدام هذا السلاح إلا من «لذريق»، ولهذا فقد وضع «مالك» وبوبا الخطط اللازمة لمهاجمة السجن وتحرير الرجل، واختار «مالك» عشرة من أقوى وأخف رجاله وقرر أن يباغت بهم السجن قبيل الفجر، معتمدًا على أن الإسبان لا يتوقعون أن يهاجمهم أحد، وحتى إن حدث فلن يهاجموا السجن ولماذا يهاجمونه؟!

واستعد الرجال لتنفيذ المهمة الانتحارية، وأخذ «مالك» منهم العهد أن لا أسر في هذه الحرب، ومن أسر ولم يجد مناصًا فعليه ألا ييوح بمكان المعسكر الجديد ولو قطعت يده وقدماه.

وعند الفجر وبينما الجنود الإسبان لا يتوقعون هجومًا كهذا تسلل «مالك» ورجاله وكانوا قد لطحوا أجسادهم بالطين ليساعدهم ذلك على التخفي، حتى إذا اقتربوا من السجن باغتوا حراس السجن وهم يكتمون أنفاسهم في محاولة لعدم إحداث جلبة كبيرة حتى لا يستنفروا كل جنود الإسبان المدججين بالسلاح، ومحاولين قتل الحراس ومنعهم من استخدام أسلحتهم التي تصدر أصواتًا مزعجة، وبالفعل قتلوا الكثير من الحراس واستطاعوا دخول السجن وتحرير «لذريق» وعند انصرافهم صاح أحد الجند الإسبان وأطلق النيران، فما كان من «مالك» ورجاله إلا أن سابعوا الريح دخولًا إلى الغابة، ولكن الإسبان استطاعوا أن يقتنصوا بعض الرجال فمات بعضهم وأصيب الباقون.

\*\*\*

## (2)

كانت الأحزان تحاصر «كريستوفر» وهو لا يصدق الذي حل به، وهو الذي أبحر منذ سنوات إلى تلك الأرض أميرًا لها وها هو يعود للأندلس أسيرًا وسجينًا، حتى إذا وصل إلى «قادس» كتب خطابًا مؤثرًا إلى أصدقائه في البلاط قال فيه: (لقد انقضت أعوامٌ كثيرة منذ حضرت لأخدم هذين الملكين بمشروع جزر الهند، ولقد أضاعا من عمري ثمانية أعوام في النقاش وفي النهاية رفضاه كأن الأمر دعابة، ومع ذلك لم أياس، وهأنذا قد وضعتُ هناك تحت إمرتهم أرضًا تزيد على ما لديهم في إفريقيا وأوروبا وأكثر من سبعمائة جزيرة... وفي سبع سنوات غزوت أنا بمشيئة الرب بهذا الغزو، وفي الوقت الذي كنت أنتظر فيه المكافأة، وأتطلع إلى التقاعد قبض عليّ بلا جريرة، وأرسلت للوطن مصفدًا بالأغلال كواحد من عتاة الإجرام... ووجهت إليّ تهمة الحقد والثراء السريع... إنني أرجو من مراحمكم أن تقرأوا جميع أوراقى بحماسة المسيحيين المخلصين الذين وضع فيهم سموهما ثقتهما، وأن تفكروا مليًا، كيف ألوث شرفي وخلقي في أواخر أيامى دون سبب، أنا الذي جاء من أقصى البلاد لخدمة هذين الأميرين دون أن ألقى منهما عدالة ولا رحمة).

وكان «فرناندو» مشغولًا بتقسيم مملكة نابولي مع «لويس الثاني عشر»، وممرت ستة أسابيع قبل أن يقرأ الرسالة ويأمر بإطلاق سراح «كريستوفر» وأخويه ودعوتهم إلى البلاط، واستقبلهم الملك والملكة في قصر الحمراء وواسياهم وأعادا لهم الاعتبار وإن كانوا لم يصلوا إلى سلطاتهم في العالم الجديد.

وكان الملكان ملزمين بشروط التسليم أو الاتفاقية التي وقعها عام 1492 بتحويل «كريستوفر» سلطانًا كاملًا على الأراضي التي اكتشفها، ولكنهما شعرا بأنه لم يعد جديرًا بممارسة هذه السلطة.

ومهما يكن من أمر، فإنهما سمحا لأمير البحر أن يحصل على كل حقوقه من أملاكه في «سانتو دومينجو» وكل ما يستحق له حتى ذلك الوقت من التنقيب عن الذهب ومن التجارة، وعاش «كريستوفر» ما بقي من عمره في

رغد من العيش ولكنه لم يكن راضيًا بذلك، وظل يتحسر على حاله حتى مات كمدًا.

\*\*\*

في وسط الغابة، وقف «لذريق» ومن حوله اجتمع كل الهنود في حلقة كبيرة كثيرة الصفوف وهو ينظر إليهم في خوف وتعجب ولا يعلم لماذا أقبلوا على ما فعلوا ولماذا اختطفوه؟! وبينما يههم الجميع بلغة لا يفهمها «لذريق» تقدم رجلان إليه وأحاطا به، ثم اقتاداه إلى حيث يجلس «مالك» وأصحابه، وكان «مالك» يجلس على جذع شجرة مقطوعة ويقف بجواره صاحبه «بوبا»... نظر «لذريق» يمينًا ويسارًا والخوف يملؤه وقلبه متسارع النبضات، فقال له «مالك» بلغة عربية: «لا تجزع يا «لذريق»». ثم رفع يده مشيرًا إلى قومه من الهنود وقال: «هؤلاء قوم لا يحبون الثأر، ولا يقتلون بغير ذنب أو لمجرد القتل والتسلية كقومك».

ازداد تعجب «الطرياني» لهذه اللغة العربية وحاول بثيابه أن يجفف عرقه وقال: «ماذا تريدون مني؟».

- تعلم أن قومك قد قتلوا أهل تلك البلاد، وسفكوا الدماء وهتكوا الأعراس بلا سبب أو جريرة أو ذنب اقترفناه.
- أنا لا ذنب لي، وإلا ما وضعوني في السجن أيها الأمير.
- علم ذلك، ولهذا أتينا بك إلى هنا وما قتلناك.

ازداد تعجب «لذريق» بينما استطرد «مالك» يقول: «ونعلم أيضًا أنك لست على دينهم، وإن كنت تُظهر عكس ذلك، ولقد ساءنا منك بقاءك معهم بعد الذي علمت منهم وعلمت عنا».

- من أين علمتم بكل هذا؟ بل ولماذا تتحدثون إليّ بلغة عربية؟

نظر «مالك» إلى باب خيمته فخرجت منه «هيدا» التي ما إن رآها «الطرياني» حتى زال اندهاشه وعلم أنها من حدثتهم بحديثه، وأقبلت «هيدا» حتى اقتربت منهم وقالت: «أنا من أخبرهم كلَّ شيء يا «لذريق»».

- فما الذي تريدونه مني يا سيدتي؟

«هيدا»: «أن تكون معنا، وتصبح واحدًا منَّا وأنت وإن كنت منهم بحسب منشئك وموطن ولادتك، فأنت منا الآن من أجل دينك أولاً، وأخلاقك التي ترفض ما يفعلونه ثانيًا.

«مالك»: «أن تكون مع الحق وأن تنصر الضعيف كما يأمرك دينك، وأنت تعلم أنني وقومي على دينك يا «لُذريق»، أم أنك نسيت لقاءنا أول مرة عندما كان أبي رحمه الله حيًّا».

«لُذريق»: «لا لم أنس يا سيدي».

«مالك»: «فماذا تقول؟».

«لُذريق»: «ربما هذه فرصتي لأصلح بعضًا من أخطائي، وأحقق هدفي الذي خرجت من أجله من «إشبيلية»، أجل يا سيدي، فقد فررت من هناك لأحيا حياة بلا خوف، وها أنتم تحققون لي ما عجزت عنه».

\*\*\*

### (3)

لم تمر أيام كثيرة حتى نجح «لُذريق» في تعليم الهنود كيفية استخدام البنادق كما علم بعضهم ركوب الخيل واستخدامه، وأظهر لهم أن الخيل حيوان أليف، وهو صديق الإنسان وخير معين له في الحرب والسلم، كما حدثهم عن تلك الأحاديث الشريفة التي تتحدث عن الخيل.

أمسك أحد الرجال بندقيته وقال: «وماذا نصنع لو فرغت تلك البندقية من ذخيرتها؟!».

أخذ «لُذريق» البندقية من الرجل وقال: «لو نفدت تلك الذخيرة فيها تصبح هذه بلا قيمة، بل تصبح أقل أهمية من السيف والرمح والسهم، فلا هي تصلح دون بارود للمبارزة كالسيف أو للقذف كالرمح والسهم».

أمسك «مالك» بندقيته وقال: «لو حدث ذلك لتعادت كفتنا معهم».

أظهر «لُذريق» عدم السرور لحديث «مالك»، فنظر الأخير إليه مستفهمًا.

«لُذريق»: «أظن أنهم ما زالوا متفوقين، وسيظلون ما داموا يملكون أسباب القوة، ونملك فقط ما يسقط منهم، فإن هم حافظوا على ما في أيديهم ولم يصلنا، انقطعت صلتنا وضاعت أحلامنا».

«بوبا»: «لم أفهم مقاصدك يا «لُذريق»».

«لُذريق»: «أقصد أننا تعلمنا الرمي بالبنادق، ولكن لم نتعلم صنع البارود والذخيرة، فنحن بذلك أسرى عندهم، فمتى استطاعوا منع وصول البارود لنا سهّل عليهم القضاء علينا»، ثم نظر إليهم فوجدهم صامتين فأكمل يقول: «أعني إن نفدت ذخيرتنا نحن فمن أين نأتي بذخيرة جديدة؟ وقتها سنعود لحمل السيف والحربون، يجب أن نمتلك أسباب القوة».

وما إن قال ذلك حتى عم الحزن على الجميع و«بوبا» يضرب كفاً على كف، والبعض منهم شعر بكثير من خيبة الأمل، عندها نطق «مالك» محاولاً بث الأمل وقال: «وهذا أيضاً يعني أننا لو استطعنا أن نجعل بنادق الغرباء دون ذخيرة فإننا سنتساوى معهم، فإن فشلنا في الحصول على ذخيرة جديدة، فلا أقل من أن نجعلهم يخسرون ما بأيديهم!».

«بوبا»: «ولكن كيف ذلك؟ كيف نستطيع أن نفرغ بنادقهم وهي في أيديهم دون أن يقتلونا بها؟!».

«لُذريق»: «مممم يقصد «مالك» إن استطعنا أن نجعلهم يضربون، ولكن دون وقوع إصابات منا أليس كذلك؟».

«مالك»: «بلى، هذا ما قصدته».

«بوبا»: «ولكن كيف ذلك؟ كيف يصوبون ولا يقتلوننا؟».

«مالك»: «لو نجحنا أن نستدرج «بوباديللا» إلى هنا، فتشابه الأشجار يعوق الخيل وكثافة أوراق الأشجار تحجب الرؤية، وعندها سيقا تل «بوباديللا» عدواً لا يراه، ويفقد مع تشابه الأشجار قوة الخيل وخفتها».

«بوبا»: «ولكن ومع ذلك يجب أن يكون هذا الاستدراج بعيداً عن معسكرنا، حتى لا يعاود الهجوم علينا كَرَّةً أخرى».

\*\*\*



## (4)

في مكان بعينه، بعيدًا عن معسكر «مالك» وقومه، ووسط الأشجار المتشابكة الكثيفة والحشائش العالية وبرك كثيرة من المياه، وقف «مالك» وقال: «هذا هو المكان الذي أبحث عنه».

دار «بوبا» حول نفسه وقال: «يكاد المكان يظلم لكثرة أوراق الشجر».

«مالك»: «سنستخدم تلك الأشجار الضخمة في التخفي، فيصعد النبالة إلى أعلى فرع فيها، فإذا مر الغرباء أسفلهم رشقوهم بالنبال وقتلوهم».

«لُذريق»: «ومن لم تصبه السهام نكون له نحن هنا بالمرصاد بينادقنا وبالسيوف والحرب، فنحصدهم حصدًا ولا نترك منهم أحدًا».

«مالك»: «حقًا... أحقًا ستكون سعيدًا إن انتصرنا على قومك؟».

تحرك «لُذريق» خطوات للأمام وقال: «لم يعودوا أهلي منذ أن علمت من أبي رحمه الله ومن معلمي أيضًا رحمه الله حقيقة إسلامي، وحقيقة ما كان يحدث هناك في الأندلس، وإني لأرجو من الله ألا يتكرر الظلم الواقع هناك هنا في هذه الأرض الطيبة التي ملأها القشتاليون بكل أنواع الظلم والطغيان، أجل لم يعودوا أهلي وما خرجت من إشبيلية إلا فرارًا من دين فرضوه علينا، ومحاكم تفتيش مجرمة تقتل بلا ذنب أو جريرة، ليسوا بأهل لي ولن يكونوا، فأنا منكم وإن كنت غريبًا».

اقترب «مالك» من «لُذريق» وربت على كتفه وقال: «أجل أنت منّا يا صديقي، فالمسلم أخو المسلم، ولكن كيف لنا أن نستدرج هؤلاء إلى هذا المكان؟».

«لُذريق»: «هذا يحتاج إلى بضع رجال شجعان يمتطون الخيل، ويحسنون التعامل معها ويحسنون أيضًا رمي السهام، فيخرجون ويهاجمون بقوة وسرعة معسكر القشتاليين ثم يفرون، وبكل تأكيد سيكر الإسبان عليهم فيفرون نحونا وينحازون إلينا، فإذا مروا من أسفلنا هان علينا أمرهم».

«مالك»: «خطة رائعة، ولكن لماذا لا يحمل المهاجمون منا البنادق؟».

«لُذريق»: «حتى يطمع الإسبان فيهم أكثر، فيتخلون عن حرصهم وحيبتهم ويندفعون في الغابة خلفهم، وهم يتصورون أنهم يطاردون غزلانَ بلا أنياب، وأيضًا نحن بحاجة إلى الخدعة، فلماذا نعلمهم أننا نمتلك بنادقَ فيستعدون لنا؟ بل ندعهم يظنون أننا لا نملك إلا القوس والرمح».

«بوبا»: «نعم الرأي يا «لُذريق»».

ثم جلس الثلاثة على الأرض ووضعوا خطتهم وبعدها عادوا لمكان مبيتهم، وكان القوم لا يملكون الكثير من الخيل، ولكنهم يملكون ما يكفي لإثارة الغرباء، فاختر «مالك» أمهر الرجال في ركوب الخيل وضرب السهام، وأخبر كلُّ فرد منهم بمهمته ووضع على رأسهم «بوبا»، أما هو و«لُذريق» فقد مكثا في المكان المحدد ومعهما باقي الرجال من حملة البنادق والسهام والرماح وتخفوا جميعًا خلف أوراق الأشجار الكبيرة المتشابكة، وتخفى بعضهم على الأرض حتى يجهزوا على من استطاع من الغرباء اختراق تلك الأشجار والمرور منها، واختار «لُذريق» أن يحمل البندقية لا السهام ولا الرماح، وكذا حفروا خندقًا كبيرًا وغطوه بفروع الأشجار، ووضعوا في قلبه أخشابًا مدببة تخرق أجساد من يقع عليها من القوم.

واحتبست الأنفاس في انتظار القادم وتحرك «بوبا» إلى معسكر الإسبان، وفاجأهم بخفته ورجاله فقضى على كثيرٍ منهم وأمطرهم بالسهام، ثم انطلق إلى داخل الغابة ولكن قبل أن يغوص فيها وجد أمامه «بوردم» وهو يتحرك متكئًا إلى عصاه فضربه بقبضة سيفه وحمله على حصانه ودخل به إلى الأدغال، حتى إذا استفاق الإسبان من روعتهم كان «بوبا» قد توغل في الأدغال ولكنه ترك لهم علامات يتقصونها.

وانطلقت خيول الإسبان تخرق الغابة وفوقها رجال كالذئاب تبحث عن الدماء تريقها والأعناق تدقها، ولكن غرورهم أعماهم عما هم قادمون عليه، فكان كلما تقدموا نظروا إلى تلك العلامات التي تركها «بوبا» خلفه، فتأكدوا أنهم في الطريق الصحيح، ولم يسأل سائلهم لم تلك العلامات وكيف للفارين أن يتركوها! فتوغلوا أكثر وأكثر، وهم لا يشكون لحظة واحدة من اقترابهم من هؤلاء وذبحهم، حتى إذا وصلوا إلى تلك النقطة والمكان المحدد صرخ أحد رجال «مالك» صرخة عالية فتساقطت السهام والرماح تحصد رقاب قوم

ظلموا وطفخوا كثيرًا، فلم يكد الرجل منهم ينظر إلى أعلى حتى يخترق جسده سهم أو رمح أو طلقة نارية تؤدي بحياته، حتى إنهم لم يحتاجوا إلى النزول عن أشجارهم ومقارعة هؤلاء، فقد استطاعوا قتلهم جميعًا دون مبارزات، ونزل رجال «مالك» من على الأشجار يجمعون السلاح والبنادق، ويسحبون الخيول ويسلبون الإسبان ما عليهم من ذهب، ثم ارتدوا إلى مدينتهم الجديدة وسط الغابة الكثيفة يحتفلون بنصرهم.

\*\*\*

ما إن شاهدت «هيدا» «مالك» والآخرين قادمين حتى انهمرت دموعها فرحًا بعودتهم وسعدت معها كل نساء القبيلة، ونزل «مالك» من على صهوة جواده وربت على عنقه وقال: «ما كنت لأعلم أن الشرق موطن أجدادي به كل هذه الخيرات، فوالله ما رأيت صديقًا كهذه الخيل».

«هيدا»: «إن كانت هي السبب في عودتك لي، فقطعًا أنا أيضًا أحبها، وسأتعلم كيفية الاستفادة منها وتعلم ركوبها».

- حقًا؟

- أجل، فأنا أريد ملازمتك في حروبك إن تجددت يومًا.

- بل أرجو أن يتركنا هؤلاء نعيش في سلام.

تقدم «بوبا» صوبهم وقال: «كما قلت آنفا لن يتركونا وإن تركناهم».

«لُدريق»: «دعونا نحتفل الآن بما صنعنا، ودعوا كل هذا النقاش ليوم غير

هذا».

نظر «مالك» إلى «بوبا» وقال: «أين هذا اللعين «بوردوم» وكيف أتيت به؟».

«بوبا»: «بعدما فعلنا ما فعلنا وفي أثناء عودتنا، وجدته يفر مذعورًا خائفًا

مننا، فعرفته وضربته على رأسه بقبضة سيفي، وساعدني خفة وزنه على

طرحة أمامي على هذا الحصان الأصيل حتى دخلت به إلى هنا».

«لُدريق»: «أما كان من الأهون عليك قتله وقد ظفرت به؟».

«بوبا»: «بلى، ولكنني أردت أن أعرف لماذا الخيانة؟ لماذا يخون أمثال «بوردوم» وقد كان له نصيب من المال والجاه فينا، لماذا يمالئ العدو علينا ولماذا يدل دينه؟

وبينما كان «مالك» ورفاقه يحتفلون بما قدموا، كان «بيمان» و«كومانش» يكادان يموتان خوفاً ورعباً من الإسبان، وقد وضعوهما في السجن نفسه الذي هاجماه ولم يقدموا لهما أي طعام أو شراب، فنظر «بيمان» إلى «كومانش» وقال: «هل تظنهم يقتلوننا؟».

- هذا أقل ما قد يفعلونه بنا، إنهم قوم بلا رحمة.

- صه، إنهم قادمون.

كان قلب «بيمان» و«كومانش» يكادان يتوقفان من الخوف والرعب وهما ينتظران القادم نحوهما وقد تسارعت أنفاسهما وزاغت أبصارهما.

الجندي: «أنتما أيها الخبيثان هيا، فإن الملك «بوباديللا» قد أُنعم عليكما برؤيته».

استجمع «بيمان» و«كومانش» ما تبقى لهما من قوة ونهضا بعد مجهود وهما يتوقعان سوء العاقبة والمصير.

الجندي بصوت مرتفع: «هيا، لا وقت لدي».

تحرك الجندي وأمامه «بيمان» و«كومانش» وهما ينظران إلى بعضهما بعضاً، ولا يجرؤ أحدهما على الحديث أو مخاطبة بعضهما بعضاً، وعند باب قصر «بوباديللا» توقف الجندي وقال للحارس: «أخبر مولاي الملك بوصول الأسيرين إلى حضرته».

أوماً الحارس ثم فتح الباب ودخل إلى الإيوان ليخرج بعد قليل ويقول: «الملك في انتظارهما».

دخل «بيمان» و«كومانش» إلى حضرة «بوباديللا» فجنثوا على رُكبهما وهما يطلبان النجاة، ولا يرفع أحدهما وجهه في وجه «بوباديللا» خوفاً وفزعاً ورعباً، أما «بوباديللا» فقد صمت هنيهة من الوقت بينما جنديان ضخمان يشهران السيوف في انتظار كلمة أو إشارة من «بوباديللا»، عندها أيقن

الرجلان بفنائهما، وبعد صمت طويل تحدث «بوباديللا» وقال: «لا أريد قتلها فاغدا سيوفكما».

أغمد الحارسان سيوفهما ثم قال «بوباديللا»: «حياتكما مقابل أن تدلوني على مكان هؤلاء النعاج الذين هاجموا جنودي وقتلوهم، فإن أنتما فعلتما، فلكما الأمان والحياة الطيبة الرغيدة، وإن أبيتما فالموت ومن قبله أشد العذاب».

\*\*\*

## (5)

جلس «مالك» على مكان مرتفع وبجانبه «بوبا» و«لذريق» وأمامهم اللئيم «بوردوم» وقد خفض رأسه ومن حولهم جمع كبير من قومهم والخوف يكاد يقتل «بوردوم» و«بوبا» يقول له: «لولاك وأمثالك ما استباح الغرباء دماء كانت عزيزة، لقد تسببت في هلاك الكثير منا، ناهيك بإخبارك الغرباء بكل أسرارنا، حتى الموتى لم تتركهم في موتهم فأخبرت هؤلاء الذئاب بأن غير المسلمين منا يدفنون الذهب ويجعلونه في بطون الموتى فلم فعلت ذلك وأين هم أسيادك منك الآن؟

- الرحمة يا سيدي، لقد أخطأت واستخف بي هؤلاء الغرباء الذين حسبتهم يوماً ملائكة..... الرحمة وسأكون لكم تبعاً وخادماً.  
«مالك»: «الرحمة ليست لأمثالك يا «بوردوم» فمن لا يرحم الناس لا ترحمه الناس، على أي لن أقتلك حتى تذوق من العذاب ما ذاقه إخوتي على يد الغرباء الذين كنت تعمل لصالحهم».

تقدمت «هيدا» صوب «مالك» وقالت: «ولكن ديننا يا «مالك» لا يأمر بذلك؟».

- وهل لهذا مبادئ أو كلمة تُحترم؟ على أن مصير الخائن الموت لا محالة.  
- نحن في حل عن استخدام أساليبهم وحيلهم.  
«بوردوم»: «سيدتي «هيدا» لكم كنتُ خادماً للملكة «أناكاونا» فاشفعي لي».

«هيدا»: «أنا لا أشفع لأمثالك أيها الحقيير، ولكني أنأى بزوجي وقومي من أن يفعلوا ما يلامون غداً عليه».

«بوبا»: «أحسننت يا «هيدا»».

«بوردوم»: «فماذا أنتم فاعلون بي؟».

«لُذريق»: «لا تخلوا سبيله فهذا إن عاد لهم سيدل علينا».

«مالك»: «ضعوه في الأصفاد حتى نتخذ قراراً بشأنه، ولا أظنني أتركه يحيا».

\*\*\*

## (6)

صرخ «بوباديبلا» بصوت مرتفع وقال: «لن ينفعكم هذا ولن يعجزني هؤلاء النعاج فالآن إمّا حياتكم أنتم، وإمّا أن تموتوا، ويموت هؤلاء بعدكم فوالرب لن يعجزني أمرهم، ثم تركهم في مكانهم وخرج من الإيوان».

نظر «كومانش» إلى «بيمان» وقال بصوت خائف مرتجف: «إن كان سيجدهم لا محالة فلم لا ننتخذ أنفسنا؟».

- أو تظن أننا إن أخبرناه لن يقتلنا؟!

- كما لم يقتل «بوردوم» من قبل، فهؤلاء يحسنون الإفادة من غيرهم، ومن يدري، فلعلنا نبلغ مع هؤلاء ما لن نبلغه مع غيرهم.

وبينما يتهامسان إذ عاد «بوباديبلا» وخلفه أربعة جنود، وما إن جلس على كرسيه حتى أمسك كل جنديين برجل منهما.

«بوباديبلا»: «لقد حاولت جهدي أن أتركهما يحيان، ولكنهما يحبان الموت، فخذوهما واقتلوهما وأحرقوا ما تبقى منهما».

«كومانش»: «الرحمة يا سيدي».

«بيمان»: «سنخبرك بكل ما تريد يا سيدي، ولكن لا تقتلنا».

\*\*\*

ظهر الامتعاض والضيق على وجه «بوبا» وهو يتحدث إلى «مالك» ويقول له: «لماذا لا نتحرك الآن ونعيد عليهم الكرة قبل أن يستفيق «بوباديل» ويعاود الهجوم علينا أو يستعد لنا؟».

«لذريق»: «أجل، فالآن لدينا المزيد من البنادق، وجميعها محشوة بالبارود الفتاك ناهيك بعشرات الخيول التي حصلنا عليها مؤخرًا، ما يعني أننا قد أصبحنا قوة لا يستهان بها».

وضع «مالك» يده على وجهه وقال: «وماذا عن «كومانش» و«بيمان» وغيرهم ممن هم تحت أيدي هذا الطاغية؟».

«لذريق»: «إن إيقافك الحرب لن يمنع «بوباديل» عن قتلهم أو تعذيبهم».

«مالك»: «لن أوقف الحرب، ولكن فقط أردت أن أساوم عليهما «بوباديل» فأرسلت له من يخبره أننا مستعدون للتفاوض معه شريطة أن يطلق سراحهما».

«لذريق»: «أنت لا تعرف «بوباديل» هذا، فلن يطلق سراحهما مهما كلف الأمر».

«مالك»: «وقتها نكون قد أعذرنا فيهم، فلا يقولن قائل أننا نفرط في أصحابنا وجنودنا، فيجبنون ويفرون من الحرب، يجب أن يعلم الجميع أننا سنقاتل من أجله، بل وقتها سندعو للقتال من أجل تحرير أسراننا».

«بوبا»: «أخشى أنك تضيع الوقت يا «مالك»».

«مالك»: «لا تنس أننا هنا في مأمن، ولا يعرف أحد كيفية الوصول إلينا».

وبينما كان هذا الحديث يدور هنا كان «بيمان» و«كومانش» قد ارتدبا ملابس الجند الإسبان بعد أن وعدهما «بوباديل» بأن يعاملهما كجنده.

وجمع «بوباديل» جيشه ولم يترك حتى ولو حارسًا واحدًا في «ماجوانا» أو جمرة أو أي قرية ومدينة احتلتها جنوده، فقد قرر أن يصطحب الجميع معه حتى البحارة ومن لا يحسن استخدام السلاح، ليشهد الجميع نهاية هؤلاء الخارجين عليه، وفي قلب مدينة «ماجوانا» الكبيرة ارتدى «بوباديل» ثيابه العسكرية واصطف الجند في صفوف كبيرة متراسة، فكانت الخيالة في

المقدمة، ومن خلفهم الرجالة وهم يحملون السيوف والبنادق، وفي المؤخرة الكثير من البغال تحمل الحبال الضخمة لجمع الأسرى.

«بيمان»: «سيدي، لقد قاربت الشمس على الغروب فهل سنؤجل المسير؟»  
«بوباديللا»: «بل لن نتحرك حتى تغرب الشمس ويحل الظلام..... نريد أن ندخلها عليهم ليلاً وهم مطمئنون نائمون في أكواخهم»، ثم سحب «بوباديللا» رسن حصانه وأدار وجهه للخلف وقال لجنوده: «لا تقتلوهم بالبنادق أو السيوف، وليشعل كل جندي منكم شعلة من نار فإن ظهرت أكواخهم فأحرقوها، ومن خرج منها من النعاج واستسلم لكم فخذوهم أسرى، إلا من رفع عليكم السلاح فقطعوه إرباً، ولا تفرقوا بين طفل وامرأة ورجل وعجوز، فكل النعاج سواء عندي، ومن رأى منكم الحكيم «بورردوم» فلا يقتله، فإنما هو واحد منا.....» ثم نظر إلى «بيمان» و«كومانش» وقال: «نحن نعرف قيمة من أسدى إلينا نصحاً ومن عمل معنا ننقذه ولن نفرط فيه أبداً».

\*\*\*

## (7)

جن الليل ودخلت «هيذا» و«مالك» الكوخ الخاص بهما، أما «بوبا» و«لذريق» فقد جافاهما النوم، فجلسا بين الأشجار تحت ضوء القمر وهما يتجاذبان أطراف الحديث، فتحدث لذريق قائلاً: «علامَ تبحث يا صديقي؟»  
نظر «بوبا» هنا وهناك وقال: «أبحث عن حجر صغير أضعه تحت رأسي، فقد اشتقت إلى مراقبة النجوم والنوم في الخلاء... ها قد وجدت ما يصلح للأمر»، ثم أمسك بالحجر ووضعه بالقرب من «لذريق»، ثم وضع رأسه على الحجر فنام ووجه إلى السماء.

- ألهذا الحد تحب النظر إلى النجوم؟

- ومن منا لا يحب النظر إليها؟ ولكن ليس في مثل هذا اليوم فالقمر بدرًا، وعندما يظهر البدر تبهت النجوم فكأنها لا تلمع إلا باختفائه، وهكذا



حال بعض البشر إن ظهروا أناروا لنا الطريق، وكذا حال البعض الآخر لا يظهر إلا في غياب الآخرين.

- لا أدري، ولكن كنت أراك تريد النظر إلى النجوم فإذا بك تتغزل في القمر.

- لكلّ منهما وقته وقيمه وجماله وأنت أيهما تفضل؟

- هذه النجوم في السماء هي أرواح أحببنا الذين ذهبوا، نارها عذاب الفراق، ونورها شوق الوصل والتلاقي، كلما نظرت إلى هذين النجمين المتقاربين، تذكرت أبي وأمي اللذين صعدت روحاهما إلى السماء... ثم صمت هنيهة وقال: «أليس من العجيب أن تصعد الروح إلى السماء ويدفن الجسد في الأرض؟».

- إنما الجسد هو المادة والشيء الملموس الذي نتحسسه، والمادة مصيرها إلى باطن الأرض، أما الروح فهي الشيء المعنوي الذي لا ينزل إلى الأرض أبدًا، بل يصعد ونصعد به، ألا ترى إلى حال الرجل يبيع نفسه وأخلاقه من أجل المال؟ فإذا هو يهوي به وبقيمه إلى الأرض، أما من تعفف عن الرخيص عانقت روحه السحاب.

\*\*\*

رفع «مالك» جزءًا من سقف الكوخ فإذا بأشعة القمر تداعب وجه «هيدا» التي كانت تتقلب على الفراش، فقال لها: «ليلة مقمرة تذكرني بأيام افتقادي لك».

انتصبت «هيدا» وتنهدت قبل أن تقول: «ليلة جميلة يا حبيبي، أتوق إلى الخروج فيها من الكوخ والسهر معك، فكما كنت أنظر إلى القمر يؤنس غيابي عنك، فقد كان القمر أنيسي عندما كنت تغيب عني، فكنت أجلس تحت ضوءه أخاطبه ويخاطبني».

- ترى ماذا سيحدث للعالم إن ترك الناس بعضهم يحيون في سلام وأمان؟

- هناك بشر كالضباع، لا تحيا إلا على لحوم الآخرين يملؤهم الطمع والجشع، يتركون ما بأيديهم ويتطلعون إلى ما بيد غيرهم، وما دام

هؤلاء الضباع موجودين، فلا أمان في هذه الدنيا ولا سلام، ثم ارتدت حجابها ووضعت يدها في يد «مالك» وخرج الاثنان من الكوخ. «هيذا»: «انظر إنهما صاحباك».

- أظنهما رأيانا، فدعينا نبتعد قليلاً عنهما فإني أريد الحديث بعيداً عن أمور الحرب ورائحة الدم.
- وأنا أيضاً أريد العودة للوراء كثيراً عندما كانت هذه الأرض لا تعرف لون الدماء.

\*\*\*

## (8)

كان «بوباديليا» يمتطي صهوة جواده ومن خلفه جنوده وهم يتحركون في الغابة بين الأشجار الكثيفة بحثاً عن «مالك» ورجاله... «بوباديليا»: «لو علمت خيانتكما، فلن أتردد في قطف أعناقكما».

«بيمان»: «لا يا سيدي نحن لن نخونك، ولا نستطيع أن نفعل».

«كومانش»: «لو كنا في الصباح لكان الطريق أسهل عليك وعلى جنودك يا سيدي، وقد حاولنا أن نتعجلكم ولكنك أبيت إلا السير في هذا الليل البهيم».

«بوباديليا»: «أريد أن أباغتهم، وأقتلهم وهم نيام، أما النهار فلربما رأونا ففروا، فمتى نصل عليكما اللعنة؟ فمئذ أول الليل ونحن نتحرك ولا شيء ينبئ عن اقتراب وصولنا».

«كومانش»: «لقد قطعنا معظم المسافة يا سيدي، ولم يبقَ إلا وقت قصير».

«بيمان»: «سيدي القائد.. انظر»، ثم أشار بيده بعيداً.

لمعت عينا «بوباديليا» واتسعت قبل أن يقول: «ليشعل الجند النيران وليتقدم الفرسان وكل منكم قد عرف ماذا سيفعل».

وفي بضع لحظات أشعل كل فارس شعلة من نيران، ثم انطلقت الخيل تدهام تلك الأكواخ الآمنة فأحرقتها جميعاً، وعلت الأصوات والصرخات، وداست

الخيال بطون الأطفال وسال الدم، وارتفعت معه رائحة الشواء، وفزع «بوبا» مما رأى وكذا «لُذريق» فقد كانا بعيدين عن الأكواخ.

«بوبا»: «يجب إنقاذهم».

أمسك «لُذريق» بذراع «بوبا» وقال له: «لن تستطيع، فقد قُضي الأمر، وإن تقدمت ستهلك لا محالة، ولن تفعل إلا أن تزيد عدد القتلى قتيلاً، فهؤلاء جنود مدججون بالسلاح، فجلّ ما نقدر عليه الآن أن ننجو بحياتنا».

ضرب «بوبا» على الأرض وقال: «فهل نجلس نشاهد كيف يقتل هذا اللعين قومنا؟».

«لُذريق»: «إن نحن لم نتحرك الآن فسيجدوننا ويقضون علينا، فهيا نتحرك وننذر «مالك» و«هيدا» قبل أن يظفر بهما جنود «بوباديل»».

كانت الصرخات تعلو أكثر وأكثر، أما «بوردوم» فقد شعر أنه قريباً سينال حرّيته، وكان ينتظر أن يدخل عليه أحد الجند الإسبان فيحرره من قيوده، ولكن ذلك لم يحدث، بل اشتعلت النيران في خيمته، فراح يصرخ ويبكي ويولول وينادي أن ينقذه أحد، ولكن ارتفاع صرخات الأطفال والنساء حال دون سماعه.

\*\*\*

## (9)

انطلق «بوبا» و«لُذريق» صوب «مالك» و«هيدا» وكان «مالك» قد شاهد ألسنة اللهب ترتفع في أكواخ أصحابه، فتحرك يريد العودة للأكواخ، فأوقفه «بوبا» وقال: «لن تعود يا «مالك» فقد نزل الإسبان عليهم ولن ينجو منهم أحد».

بكت «هيدا» وانسالت دموعها.

«لُذريق»: «يجب التحرك فوراً قبل أن يحاط بنا».

«بوبا»: «هيا، لا وقت حتى لمجرد التفكير».

«مالك»: «لا، لن أتركهم يموتون هكذا».

لُذريق: «لن يحيوا إن أنت قُلت معهم».

ثم جذب «بوبا» و«لُذريق» «مالك» من يده وتحركت أيضًا «هيدا» وركب الأربعة خيولهم وسط دموع «هيدا» وانطلقوا بعيدًا عن ألسنة اللهب التي أضاءت الغابة المشتعلة بأشجارها وساكنيها.

«لُذريق»: «يجب أن نعود للشرق فلا بقاء لنا هنا بلا قوة تحمينا، على أن هؤلاء لن يتركوا أحدًا هنا حيًّا، والعزيمة الآن أن نفرَّ منهم... العزيمة هي البقاء أحياء».

«بوبا»: «لا نملك السفن لذلك، ولا حتى الخبرة الكافية».

«لُذريق»: «أنسيتم أنني بحار؟ وأنا من قدت «كريستوفر» للمجيء إلى هنا؟ وليتني ما فعلت، فما كنت أعلم أنني أقوده إلى جرائم لن تُحى من التاريخ».

«مالك»: «ولكن من أين لنا السفن؟».

«لُذريق»: «سننسل إلى الشاطئ ونختطف سفينة ونبحر بها، ولا أظن القوم الآن ينتبهون لنا، لنتجه إلى الشاطئ قبل أن يتم هذا الطاغية مهمته، فلا يصبح الصباح إلا وقد ابتعدت بنا السفينة وسط بحر الظلمات».

\*\*\*

نظرت «هيدا» إلى «إدريس» بجوارها فوجدته منتبهاً فأردفت تقول: «واستطعنا بعد جهد جهيد أن نصل إلى إحدى السفن الصغيرة، فركبت أولاً ثم «مالك» و«بوبا» و«لُذريق» وجدف الجميع بقوة كبيرة، ومن حسن طالعنا أن السفينة كانت معبأة بالطعام، فقد أخذتنا المصيبة عن التفكير فيه، فكان جل همنا الخروج من «ماجوانا» ولكن الله سلم، فبعد أن اختفى الشاطئ وبدأ الجوع يضربنا بحثنا هنا وهناك، فوجدنا الشعير والخبز الجاف والمياه ما زالت موجودة على السفينة، فطعمنا واستقوينا بهذا الطعام حتى شاء الله ووصلنا شاطئ المغرب يا ولدي»، ثم صمتت هنيهة وقالت بعدها ودموعها تترقرق في عينيها: «كنا نظنهم ملوك رحمة، فإذا بهم جنود الموت والخراب والدمار.....».

ثم رنت إلى البحر وقالت: «ومنذ ذلك الحين لم يحمل هذا البحر سوى الدمار والخراب للعالم كله، فقديمًا حمل الموت من أوروبا وسيدها الأبيض إلى البحر فأفناهم، بعد أن ملأ البلاد الجديدة بالحق والحسد والعنصرية، فلم يتحمل السيد الأبيض أن يحيا وبجواره أسود أو أحمر، بل أراد أن يحيا فيها وحيدًا، وأخشى يا ولدي أن يفيض هذا الكره وهذا الحقد يومًا من هناك، ويخرج من «أمريكا» هذه من يحرق في القرون القادمة بلادنا، فهؤلاء يا ولدي قوم كالضباع لا يرون في غيرهم إلا الفرائس، رحم الله جدك «مالك» وأصحابه»، ثم أغمضت عينيها وبكت وانتحبت.

إدريس «مشدوها»: «لم ينج من القرية إلا أنت وجدي و«بوبا» و«لُذريق» فقط؟».

- أجل يا ولدي، لم ينج من قبائل «ماجانا» وجزيرة جمرة إلا نحن فقط.... خرجنا وتركنا خلفنا حروبًا قائمة، بين شعب طيب وآخر مجرم لا يعرف الرحمة.... لقد وصل المستعمر الأوروبي إلى شواطئ القارة الجديدة مثقلًا بأوجاع الحروب، ممتلئ بالخبرة العسكرية والطرق الملتوية وغير الملتوية في التعامل مع العدو، ووجد أمامه شعب منقطع عن العالم لا يملك سوى آلات الصيد، ساذج النظرة، بسيط التعامل، لم يخض أي حرب مع العالم الخارجي، وإن حدثت بين قبائلهم بعض الغارات فسرعان ما يتدخل الزعماء لإحلال السلام، وإنهاء القتال، فكلمة حرب لم تستخدم إلا في لغة بعض القبائل القليلة... وقد أدرك المستعمر الأوروبي بسرعة أنه أمام أرض الأحلام الغنية بالخيرات، التي سيبنى عليها حضارة المستقبل، وأن سكانها أناس بسطاء لا يملكون سلاح قتال فضلًا عن جيش منظم، وأدرك ماذا عليه أن يفعل، فشرع مباشرة في عملية التخلّص والإبادة دون رقيب ولا حسيب من البشر، وغير مراعي أي حرمة أو قانون أو إنسانية، طمعًا في أرضه، فكما سمعت استخدموا البنادق، وقتلوا كل من صادفوا من نساء وأطفال أو شباب وأحرقوا المحاصيل، ليفتك بهم الجوع وسمموا الآبار وارتكبوا أبشع المذابح في حق الآلاف، فحصدوهم بالبنادق، وأرغموهم على حفر المناجم وعلى البناء قهْرًا حتى الموت، وباعوا كثيرًا منهم في سوق النخاسة، وارتكبوا

فيهم ما يصعب تصديقه، حتى إنهم استخدموا الأطفال كطعام للكلاب، وكانوا يأخذون الطفل الصغير من أحضان أمه ويلوحون به في الهواء ثم يتركونه ليسقط ويتهشم على حجر أو جدار أو يقذفون به داخل النهر، وإذا حاول أحد والديه إنقاذه عاجلوه برصاصة حتى لا يفسدوا عليهم المشهد.. وأحياناً تقذف العائلة بأكملها داخل النهر ويمنعونهم من الوصول إلى بر النجاة إلى أن تجرفهم التيارات الشديدة ويموتون غرقاً.. وكانوا يشعلون النار في أكواخهم وخيامهم، فإذا خرجوا هاربين يتصفي الرجال بالبنادق، فإذا لم يبق سوى الأطفال والفتيات، أخذوهم للعمل في السخرة وحفر مناجم الذهب أو يباعوا في سوق النخاسة، وبالتأكيد فإن الفتيات يقدمن خدمة إضافية عن الذكور، إضافة إلى العمل الثقيل الشاق نهاراً، الاغتصاب المنظم في المساء..

- وماذا عن «كازاس» أقصد «برتولومي دي لاس كازاس»؟

- لقد نبذه قومه لرفضه أساليبهم وبعد محاولات كثيرة جداً، لم يجد أمامه سوى نحت الحقيقة وتدوينها فكتب كتاباً أسماه (وثائق إبادة الهنود الحمر) دون فيه كل ما رآه وما صنعه الإسبان، ووصف فيه ما شاهده بالتفصيل، حتى إنهم شككوا في نصرانيته، فقد كانوا لا يصدقون أن أحدهم يكتب هذا ويراهم بعين المجرمين.

تمت

راوي الأندلس

مكتبة

t.me/soramnqraa

# بحر الظلمات

تتغير الجغرافيا وتشيخ الحضارات، وتولد دول وتنتهي أخرى، ويظل التاريخ شاهداً لك أو عليك يُذكرك بما كان من بداية أمرك، وكثيراً ما حكي اللصوص عن إنجازات زائفة، ولكن كما لا توجد جريمة كاملة لا توجد حقيقة ناقصة... فما بين هارب بدينه راغب في أرض جديدة وبلاد بعيدة، وجشع طامع في كنوز أكيدة قامع لشعوب عديدة، سُطرت نهاية الهنود الحمر، وذهب أثرهم وعرقهم أدراج الرياح، لتخرج إلى العالم دولٌ تتغنى بحرية مزعومة وببطولات مكذوبة، فلا هم يعرفون الحرية ولا يحترمون قيمة الحياة، وكل هذا تشهد به وترويه قصة الاستكشاف.

telegram @soramnqraa

غلاف: إسلام مجاهد



www.aseeralkotb.com  
contact@aseeralkotb.com  
aseeralkotb  
aseeralkotb  
aseeralkotb